سوريّو جسر الكولا

ABU ABDO ALBAGL

ياسين رفاعية

رواية

مدونة ابو عبدو

...عات للتوزيع والنشر

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

ياسين رفاعيّة

سوريّو جسر الكولا

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN: 978-9953-88-029-7

صورة الغلاف: www.metransparent.com

تدقيق لغوي: محمد زينو شومان

الإخراج الفني: فدوى قطيش

تصميم الغلاف: داني عوّاد

إلى العمّال السوريين

الذين قُتلوا،

والذين فُقدوا،

والذين انتهكت أعراضهم،

هذه الرواية

شهادة للتاريخ

على الظلم والحقد

واللاإنسانية.

إهداء ثانٍ

إلى

الأستاذ المعلم

محمد البعلبكي

رفيق اللحظة الحرجة.

إهداء ثالث

إلى صديق العمر

طلال سلمان

وفاءً لتلك الذكريات

ماضياً وحاضراً ومستقبلاً

إن جميع الأسماء الواردة في هذه الرواية هي أسماء افتراضية ولا تمتّ شخصياتها إلى الواقع بصلة، وأي تشابه في الأسماء يكون محض مصادفة.

١

في الساعة الرابعة صباحاً، تسلّل كل من عصام وجميل إلى تحت جسر الكولا في بيروت. وفي يد كل منهما سيكارة حشيشة راحا يمجان دخانها وهما في حالة من الانتشاء، يرددان مترنمين أغنية لوديع الصافي، إلى أن انتبه جميل لرجل يقعى في الزاوية، ورأسه بين يديه، وكأنه نائم.

قال جميل: انظر.

التفت عصام قائلاً: لعله شحّاذ. قال جميل: لا يبدو شحّاذاً، ربما واحد من هؤلاء السوريين. أجاب زميله: هكذا يبدو.

استغرب عصام. ففي هذا البرد القارس كيف استطاع هذا الرجل أن ينام؟ أجابه جميل: هَوْدي متعودين. اقترب عصام: إنه نائم فعلاً.

اقترب جميل من الرجل الذي بدا نائماً بعمق. قال: يبدو شيخاً، لعله في الستين، شعره كله أبيض. قال عصام: هودي السوريين.

بيبعتولنا، دائماً قذاراتهم، بيشتغلوا بأقل ما بيشتغل فيه العامل اللبناني، يعني بالختصار، بياخدوا لقمة الخبز من فم العامل اللبناني. أجاب جميل: الله يلعنهم ويلعن دولتهم. وجع راسنا كله دائماً من تحت راسهم.

كان قد مضى على اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، بضعة شهور، وصارت الشكوك متجهة نحو البلد الشقيق سوريا، أنه وراء تدبير هذه الجريمة.

لم ينتبه عصام لجميل الذي اقترب من الرجل النائم. ثم فك سحّاب بنطاله وأخذ يبول عليه. لكن الرجل النائم لم يتحرك. قال عصام: العمى.. شو نومه عميق.. أجابه جميل: فعلاً: ربما ميّت، ثم دفعه بقدمه فانقلب النائم على جنبه، منحنياً كما كان ورأسه بين راحتيه.

فوجيء الرجلان، صاح عصام: إنه ميت، فدفعه جميل بقدمه مرة ثانية، ثم قال: حقاً.. إنه ميت.

كانا يدخنان سيكارتيهما بشراهة، فقال جميل: تعالَ لنرى ماذا معه؛ إلا أن عصاماً خشي ذلك، وقال: دعنا منه.. ولنترك هذا المكان. فلم يأبه جميل، أقعى إلى جانب الجثة وراح يفتش ملابسها، فعثر على مبلغ ثلاثمائة دولار، وخمسة آلاف ليرة سورية، وعشرين ألف ليرة لبنانية. ثم بطاقة هوية وقسيمة دخول إلى لبنان، قال لرفيقه:

تعال ساعدني. فسأله: ماذا تريد أن نفعل؟ أجاب: لنرمه في حاوية القمامة، ونتخلص منه.

تعاونا معاً ورميا بالجثة في حاوية قريبة للقمامة. كان الفجر قد بدأ يبدد ظلام المدينة عندما جاءت سيارة البلدية، فرفع عمال التنظيفات الحاوية إلى طرف الشاحنة، التي سرعان ما ابتلعت القمامة وفي جوفها جثة الرجل الستيني.

قال جميل: أوف! تخلصنا منه. ثم اقتسما المال الذي عثرا عليه في جيوب الرجل الميت. قال عصام: صيد من دون جهد. لنذهب إلى أبي رامي نشتري حشيشة، قال جميل: قد يكون نائماً.. أجاب: نوقظه.. إذا شمّ رائحة الدولار فسيركض نحونا مثل الكلب.

أسرعا إلى بيت أبي رامي القريب من الجامعة العربية، وفعلاً كانت رائحة الدولار قد وصلت إلى الطبقة الثانية من بناية قديمة، فأطل أبو رامي وصاح: نازل.

٢

ظلت أم خالد على قلقٍ شديد، خوفاً من أن يكون أبو خالد قد سافر إلى حلب بحثاً عن عروس، كما كان يهددها باستمرار. هتفت لابنها من عند أبي حسين البقّال تسأله عن أبيه، فقال لها إنه تركه تحت جسر الكولا منتظراً الباص الذي سيسافر إلى حلب باكراً ومنها إلى عفرين. وأنه قد أعطاه ثلاثمائة دولار عدّاً ونقداً. وأنه قبّل جبينه ويديه ليحمل هذه الأمانة لك، من أجل أخيه الصغير الطالب في الصف الثامن ثانوي لمتابعة دراسته. فقد كان خالد وأخوه حسن وأبوه وأمه يتوسمون الخير في هذا الفتى، لأنه يحب المدرسة والدراسة.

كان لخالد وأخيه حسن رفقة من العمال السوريين الذين يتوزعون في مناطق لبنان، يعملون من شروق الشمس حتى مغيبها. وينامون معه في غرفته في قبو البناية التي يعمل فيها ناطوراً. وهي بناية

فخمة حديثة تقع قرب عين التينة في بيروت. وقد أحبه سكان البناية جميعاً. ووثقوا به، لدماثة أخلاقه وجهده في جعل البناية أنظف عشر مرات من البنايات المجاورة. من طبقتها الثالثة عشرة حتى القبو، يعمل من دون توقف، ويتحرك على دراجته النارية إلى أي مكان يرسلونه إليه، مثل الطيارة – كما كانوا يصفونه – هو نفسه أحب هؤلاء السكان الذين اعتبرهم مثل أهله، فأخلص لهم بيتاً بيتاً، ولعله شعر الآن أنه بات مستقراً إلى أمد طويل، فيستطيع ذات يوم أن يتزوج وينجب عشرة أولاد. كان خالد يحب سكان البناية كلهم. حتى أن صاحبها رجل الأعمال، الذي يقيم في الطبقة الثالثة عشرة، والذي جعل من شققه الثلاث، شقة واحدة أشبه بالقصر مفتوحة صالوناتها بعضها على بعض، طلب إلى خالد أن يتعلم قيادة السيارة كي يضع بتصرفه فاناً خاصاً لنقل أولاد العائلات المقيمة في هذه البناية، إلى مدارسهم بنفسه، لأن ذلك أكثر أماناً من باص المدارس في هذه الأيام، التي كثرت فيها العصابات التي يخطف أفرادها أولاد الأثرياء من أجل الحصول على فدية. إذ يتذكر خالد فعلاً، تلك الحادثة التي اختطف فيها بسام أحد أبناء عائلة من عائلات البناية، وهو يصعد إلى باص المدرسة. في صباح ذات يوم، شاهد الحادث بأم عينه، عندما كان بسام يلوّح لأمه الواقفة على شرفة الطبقة الثانية مودعاً. وفي لحظات خاطفة، وهو يهم بصعود الباص، انقض عليه رجلان وحملاه عنوةً إلى سيارتهما المتوقفة قرب المدخل. حدث ذلك كله بسرعة مذهلة لم تسمح لخالد باللحاق بالخاطفين.

لكنه استطاع أن يلتقط رقم السيارة. وبين صراخ الأم ودهشة الناس من سرعة خطف بسام، اختلط الحابل بالنابل. وشاع خوف بين السكان وسكان الأبنية المجاورة على مصير أبنائهم.

لكن الناس كانوا في واد، وأم خالد في واد آخر.. أين ذهب زوجها بالمال؟ وكيف اختفى؟ ومن هي المرأة العاهرة التي سيصرف عليها هذا المبلغ الكبير الذي جمعه ولداه من أجل أمهما وولدها شقيقهما الصغير؟! هذا الذي له نباهة شاب في العشرين، فهو يردد على مسامع أمه أنه سيكون في المستقبل طبيباً، حتى يعالج أمه وأباه من أمراضهما، بل ليعالج أهل الضيعة من دون أن يتقاضى منهم أجراً.. كانت الأم خصوصاً، تتوسم فيه كل الخير، فهي تقول لصغيرها: أيمتى يا حبيبي أيمتى؟ قلبي تعبان من الشغل. تذهب كل يوم من الضيعة إلى حلب فتعمل خادمة في أحد المطاعم المشهورة، تغسل الصحون على مدى عشر ساعات وهي واقفة على قدميها.

٣

هم السوريون من مناطق مختلفة في سوريا. يظنون أنهم يجدون فرص عمل في لبنان أفضل بكثير من بلدهم. يحاولون في بلدهم حيث يسمّيهم تجار البناء «الفعالة»، أي الذين يعملون كل يوم بيومه، يجيئون من مختلف القرى البعيدة والقريبة بحثاً عن عمل ولو لقوت يوم واحد، فشح المياه جعل من البساتين يباباً، ولم يعد التراب يثمر حتى ولو بدمع العيون. أكثر المدن التي كانت تستوعبهم هي دمشق التي توسعت عمرانياً عشرة أضعاف مساحتها الأساسية، فتداخلت فيها كل القرى المحيطة، بل إن قرى بذاتها اختفت عن الأرض لتصبح شوارع وحدائق وأسواقاً حديثة تشبه أسواق لندن وباريس. مثال على ذلك بلدة كفرسوسة التي كانت تبعد عن دمشق حوالى خمسة عشر كيلو متراً أو أكثر أصبحت الآن داخلة في نطاق العاصمة، وفيها شقت شوارع حديثة ذات أبنية عملاقة وتنظيم مذهل لمتفرعاتها حتى باتت وجه دمشق العاصمة، فأُنشئت فيها

مبانٍ حكومية ذات هندسة بارعة وجميلة مثل مبنى مجلس الوزراء، ووزارتي الداخلية والخارجية. ويبدو أن كل دوائر الدولة ستنتقل إلى هذه المنطقة. وأدرك شباب القرى القريبة والبعيدة أن فرص العمل أصبحت متوافرة لهم في دمشق الحديثة وفي مشاريع دمّر، والشام الجديدة. ولم يكن يتجاوز أجر يوم العمل أكثر من ثلاثمائة ليرة سورية. ولكن من فاض من هؤلاء وُجدوا في لبنان الأقرب إلى سوريا، بل بعضهم من الذين تعلموا في المدارس، كانوا يتصورون أن البلدين بلد واحد. ولكن الأجر هنا في لبنان، وفي بيروت بالذات، لا يقل عن عشرة دولارات في اليوم، فإذا استأجر عشرة منهم غرفة في مبنى يشاد حديثاً وافترشوا الأرض وناموا متلاصقين، فستكون الغلة أوفر مما في بلدهم. فيتعاونون فيما بينهم حتى على اقتسام لقمة الخبز، وبما يتاح لهم من توفير قرشهم الأبيض لليوم الأسود، والأيام السوداء كما قال أحدهم عشرة أضعاف الأيام البيضاء. وكان خالد قد سخر ذات يوم من شيء اسمه «عيد العمال» وقال لماذا لا يقولون الحقيقة ويسمونه «عيد الجوعانين!» لكن ماهراً المثقف يقول لرفاقه: «نحن طبقة البروليتاريا» فيسخر منه عبد العظيم: ماذا تقول؟.. شو؟.. بروليتاريا.. يا حمار يعني الطبقة العاملة. فيسأله: طبقة عاملة.. شو يعني؟ فيجيبه أنك جاهل.. بروليتاريا نظرية لكارل ماركس في البيان الشيوعي.. يعني يا حمار نحنا شريحة من المجتمع تبيع نفسها جسداً وروحاً لرب العمل. يعني نبيع عملنا له بالأجرة اليومية، وتتوقف حياتنا ووجودنا حسب حاجة رب العمل

لنا. من هنا، يجب أن نربي عضلاتنا ونقويها حتى نتحمل العمل، لأن، هؤلاء، أصحاب هذه البنايات، هنا في بيروت وهناك في الشام بحاجة إلى جهودنا وقوة عضلاتنا سواء في أعمال البناء أو في البنى التحتية مثل مجارير الصرف، يعني يا أبله أن نعيش على ريحة خراهم! سمعت، خراهم!

هناك في الساحات، وعلى أطراف المجمعات السكنية ينتظر هؤلاء إشارة من إصبع أحد التجار.. يتهافتون عليه. وينادونه: الله يخليك خدني أنا.. ويتباهى ناصر بنفخ عضلات ساعديه: شوف يا سيدي بحمل أكبر صخرة وأكبر كيس شمينتو.. لكن هذا التاجر لا يأخذ إلا اثنين أو ثلاثة لينتظر الباقون حظهم مع تاجر آخر.

ويتجمع الفائض منهم من دون أن يعرف بعضهم بعضاً، ثم ينساقون كالغنم إلى أحد الباصات إلى بيروت، كما كان يسميها ناصر: باريس الشرق، وبين هؤلاء متخرجو جامعات لم يجدوا أي فرصة في بلدهم، حيث البطالة خمسة وعشرون بالمئة من عدد السكان، عدا المياومين الذين يشتغلون بالساعة وليس باليوم. والجوع يأكل أكبادهم.

يتذكر ماهر الذي كان الناجح الثالث من بين الطلاب في البكالوريا السورية، كيف تسلل إلى بيروت ليعمل في مهن عديدة من أجل أن يوفر مالاً لمتابعة دراسته في الجامعة العربية في بيروت. فقد كسّر صخوراً، وحمل على ظهره أكياس الشمينتو وهو يصعد أدراج

البنايات منهكاً على شاطىء البحر. وماهر يحب البحر، والبحر وسيلة للتأمل خصوصاً في الصباح الباكر أو في ساعات الغروب، وسيلة قادته إلى غايته التي كان يحلم بها وهي أن يصبح كاتباً وشاعراً. هكذا أخذ يكتب. لم يكتب من خيال.. كتب آلامه وتعبه ومعاناته. وكم كان سعيداً عندما فوجىء بالصحف تنشر له ما يكتب في أمكنة بارزة. ما قاده بعد ذلك إلى العمل مصحح بروفات في إحدى المجلات النسائية. بل أصبح بعد أشهر مدير تحرير مطبخها، فتحسن دخله. إذ ذاك استأجر غرفة في الأوزاعي جعلها بداية مشواره إلى الاستقرار.

على هذه الجسور، الموزعة بين شوارع بيروت، أبرزها جسر الكولا، وجسر بشارة الخوري، يجيئون بالمئات ينتظرون أرباب عمل وأصحاب مجمعات سكنية وكسارات في أطراف الجبال ليذهبوا إلى مصيرهم اليومي عرقاً وتعباً وإرهاقاً، ودموعاً أيضاً، فكم بكى ناصر لأنه لم يستطع حمل ثلاثة أكياس من الشمينتو على ظهره، من أجل حفنة من الدولارات، مما اضطره للعودة بعد ذلك إلى الوطن، حتى قيل في بعض الأحيان، وبناءً على دراسة اقتصادية، أن هؤلاء تحديداً كانوا سبباً في رفع قيمة الليرة السورية. ويتذكر ماهر ما قال له أبوه ذات يوم: إن رأس المال السوري هو الذي بنى بيروت الحديثة، فمعظم تجار البناء كانوا سوريين. فضلاً عن المال السوري الذي هُرّب تباعاً من سوريا في إثر الانقلابات العسكرية المتتابعة

والتأميمات والإصلاح الزراعي ومصادرة أملاك التجار والأثرياء. لهذه الأسباب جميعاً هرب المال – المعروف أنه جبان – إلى خارج الأرض السورية، خصوصاً إلى لبنان القريب. وبهذا المال توسعت بيروت وامتلأت مصارفها بمال السوريين، لا سيما وقد صارت هذه المصارف، صغيرها وكبيرها تعطي فائدة مرتفعة، وكلما كبر المال كبرت الفائدة.

٤

أين أبو خالد؟

ظلت أم خالد تنوح عليه وتشتمه في آن لأنه تخلّى عن أسرته، وذهب بالمال إلى مكان ما في العالم. ثلاثمائة دولار ثروة بالنسبة إليها.

وتخيّلت أن هذا العجوز، الذي يحب النساء ويتغزل بهن على الطالع والنازل، وجد فرصة في تحقيق أحلامه. وعندما عثرت الشرطة على بقية جثة أبي خالد، كانت مهشمة وبدون ملامح، إذ انتُزع لحمه عن جسمه، فبدا شكلاً مرعباً بين إنسان وحيوان، فلم تستطع الشرطة معرفة صاحب الجثة، فعمّمت الخبر على الصحف لكن لم يتصل بها أحد للاستفسار؛ ولم تردها أي معلومات عن فقد أب أو أخ أو قريب، لا من أسرة ولا شخص ولا شركة ولا أي جهة كانت. فدفنت بقايا الجثة في حفرة ما، من دون قبر ومن دون اسم، وظل أبو خالد

مختفياً كما كانت تتخيل زوجته، وبأنه يتنعم بهذا المال هنا وهناك.. ويا لها من ثروة!

الحلم هو ما يخفف الأعباء عن هؤلاء الشبان في سبيل بحثهم عن الثروة والاستقرار، وأكثرهم لا يحققون أحلامهم، التي غالباً ما تكون كبيرة مثل شراء منزل أو حقل يزرعون فيه ما يأكلون وما يبيعون، ربما، في أحيان كثيرة تأسيس شركة أو شراء دكان يملأونه بالبضائع من كل لون، وبعضهم، يفكر في الزواج وإنجاب الأولاد، الذين سيكبرون، ويتعاونون لتوفير الراحة والأمان لأمهاتهم وآبائهم عندما يصبحون شيوخاً.

وعندما عرف خالد أن أباه لم يصل إلى الضيعة، وأن أمه بحاجة إلى المال، فكر أن يذهب إلى الشرطة ليخبرها باختفاء أبيه. ثم صرف النظر عن ذلك، لئلا ترتاب فيه. فربما أبو خالد قتل، وتبدأ التحقيقات، وأول من يشكون فيه أبناؤه وأقاربه ومن يتردد إليه من العمال، وفي أبسط الأحوال يطردونه من البلد. على أن التقاطه لرقم سيارة خاطفي بسام، قاد الشرطة إلى إلقاء القبض على الخاطفين قبل أن يقبضوا الخمسين ألف دولار فدية للإفراج عن الولد، وهذا ما عزز ثقة سكان البناية به، وصاروا يؤمّنونه على أولادهم، بل على كل شيء يخصهم.

وصارت مهمته في الصباح الباكر، أن يمسك بأيدي أولاد سكان البناية إلى أن يدخلوا الباص الواحد تلو الآخر، لأن أهليهم الأثرياء

لا يثقون بمدارس الدولة، فيضعونهم في المدارس الخاصة، التي تتقاضى أقساطاً عالية. وأولاد هذه البناية لا يتعلمون في مدرسة محدّدة، بل في عدة مدارس. فيضطر خالد إلى الوقوف أمام مدخل البناية أكثر من ساعة حسب قدوم الباصات الصغيرة التي تنقل هؤلاء إلى مدارسهم.

واكتسب خالد ثقة السكان. فصار بعضهم يوفر له شيئاً من بقايا الطعام. فكان يأكل مع أخيه حسن وما يزيد يأخذه إلى غرفة السوريين الآخرين الذين يشغلون غرفة سفلى في بناية لم تزل قيد الإنشاء، وبات خالد في نظر هؤلاء زعيماً لهم، يحرص على راحتهم ومساعدتهم على كل ما يحتاجون إليه.

أما حسن، فقد سمح له صاحب البناية البيك بأن يشارك أخاه في غرفته في القبو. قبو له نافذة على المدخل، فيستطيع خالد أن يراقب من هذه النافذة الداخل والخارج من دون أن يُرى.

في الحقيقة، إن هذه الغرفة تشبه شقة صغيرة لأن كل أسباب الراحة متوافرة فيها، من ماء وحمّام ساخن، إلى مطبخ صغير، وتلفزيون صغير، فكانت جلسات الجميع ممتعة لهم. إذ بعد عودتهم من العمل، في أوقات مختلفة، يجدون لدى خالد صدراً رحباً، فيوفر لهم الحمّام الساخن، إلى جانب سهرات الليل المؤنسة، بين رواية معاناتهم اليومية، ومشاكل العمل، واضطهاد رب العمل لهم في بعض الأحيان، وسبّهم وشتم البلد الذي أرسلهم، لكنهم كانوا يتجاهلون

هذه الشتائم حرصاً على عدم إغضاب المعلم أو أحد مساعديه أو أبنائه.

وتلك الليلة التي كانت إنذاراً لهم جميعاً عندما دخل حسن متورّم الوجه ليتحدث إلى أخيه ورفاقه عن الاعتداء الذي تعرض له من قبل مجموعة شبان، حيث استولوا على كل ما يملك من مال، ثم تركوه وهم يشتمونه ويشتمون دولته التي قتلت الحريري. وحمد الله أنهم تركوه في عرض الطريق يحاول الوقوف ولا يقدر بسبب ضربهم له في كل أنحاء جسمه، وحمد الله أنهم لم يعثروا على تذكرة الهوية وقسيمة الدخول في جيوبه، لأنه، خوفاً من مشكل من هذا النوع أخفاهما تحت قميصه الداخلي، وإلا كان وقع في ورطة.

كان هؤلاء جميعاً ضعفاء في مواجهة استبداد أرباب عملهم، الذين كانوا يسترخصونهم إزاء العامل اللبناني الذي عادة لا يعمل بما يشبه السخرة، أو العمالة، إذ يترفع عن العمل في المهن القاسية، كفرز الرمل في الأبنية التي تشاد، أو حمل السجاد على أنواعه من المخزن إلى صدر الواجهة الرئيسية على الشارع، أو تنظيف مجارير البلدية، ومراحيض المخازن الكبيرة، أو الفنادق كبيرها وصغيرها، أو الذهاب إلى الكسّارات في الشتاء البارد أو الصيف الحار حيث يكادون يختنقون من شدة الرطوبة، خصوصاً في أوقات الظهيرة. عشر ساعات أو أكثر من دون توقف من أجل عشرة دولارات لا تكفي ثمن ثلاثة سندويشات من الفلافل أو الشاورما لكن هذا

العامل لا يأبه لذلك. المهم العمل. وأحياناً بأقل من عشرة دولارات في اليوم، لأنه يحسبها بالنسبة إلى العملة السورية، حيث بتقديره أن مبلغ خمسمائة ليرة سورية يعتبر مبلغاً «محرزاً»، وأنه، إذا شد الحزام، ونام من دون عشاء، فضلاً عن مشاركة آخرين في غرفة واحدة، وفي إعداد طعامهم بأيديهم، يستطيع توفير مائة دولار كل شهر، وهو ثروة بالنسبة إليه. وشهراً بعد شهر، يعود إلى ضيعته ويستقر بأمان ويقترن بابنة عمه التي تركها هناك.

تلك القرى الموزعة في الأطراف، هاجمها القحط منذ سنوات، فجفت المياه، وتحولت الحقول إلى صحارى تتناولها الرياح الضاربة من فوق أصحابها، ليبدو المشهد مريعاً، لا ثمار ولا خضار ولا ينابيع وخلت الأرض من أهلها فشاع الفقر. ومد الناس أيديهم إلى الأثرياء في المدن الكبيرة وغالباً ما تعود خالية الوفاض، وباع أكثر فلاحي الجبل بناتهم اللواتي تحولن إلى عاهرات وبائعات هوى في حلب واللاذقية وأطراف قاسيون في دمشق، تراهن على الأرصفة ومن أشكالهن وملابسهن ومكياجهن الفاقع تعرفهن. وبإشارة، تذهب الواحدة منهن ذليلة إلى غرفة نوم ما، لرجل تراه للمرة الأولى.

لم يكن هذا فقط، ففي المدن السورية، تنبه آباء هؤلاء لبلدان الخليج، خصوصاً، فتباع البنت بمبلغ من المال مع وثيقة زواج لشيخ طاب له أن يقبض من وراء الدولة وبغفلة منها، ثم تعود إلى بلدها

امرأة مطلقة، بعد أن يشبع منها زوجها المزيف، فيمنحها بعض المال وبطاقة طائرة ويعيدها إلى أهلها.

كان لهذه المهنة الطارئة قوادون، أخذوا يستثمرون حاجة هؤلاء البشر، فتألفت مافيات، تعقد الاتفاقيات مع آباء كهول وأمهات عاجزات، تذهب البنت بوثيقة زواج من ذلك النوع، لتنتقل من بلد إلى بلد، وأكثرهن إلى بيروت، حيث تجدهن في بارات الحمراء، والشوارع الخلفية، أو عاهرات سرّيات في الجمّيزة وحاراتها.

شبان وشابات اشتغلوا في كل شيء، منهم من نجح ومنهم من سقط إعياء، ومنهم من عاود الرحيل إلى أمكنة أخرى، فربّما أتيحت لهم فرصة ما، ولو للقمة خبز وقليل من الإدام.

كانت هذه حال الجميع من دون استثناء. لا يملكون إلا اليوم الذي يعيشون فيه. وإذا ما سقط أحدهم مريضاً فلن يجد من يسعفه أو يتحمل معالجته في المستشفى أو أجراً لأحد الأطباء، أو ثمن الدواء.

وكثيراً ما كان بعضهم يموت على قارعة الطريق، ولا يجد سيارة إسعاف تحمله إلى قبره. ولم يكن أبو خالد إلا واحداً من هؤلاء، مات من شدة البرد، وهو يقعي كالكلب تحت جسر الكولا. ولم يكن الذين استولوا على ماله إلا لصوصاً ولم يقتلوه. وربما تناول شيئاً من طعام فاسد قتله من دون رحمة، وهي جريمة لا يحاسب عليها القانون.

كثيرون ماتوا بهذه الطريقة أو غيرها. ومنذ اغتيال رفيق الحريري ورفاقه توسعت دائرة الاعتداءات على العمال، بل قتلهم في أماكن سكنهم وعلى الطرقات. ذلك كله مسجل في دفاتر الحكومة اللبنانية، ولكنه لم يسجل على الإطلاق في دفاتر الدولة السورية، بل لم تسأل عن أحد منهم. ولماذا اعتُديَ عليه أو قتل.

٥

سلمى تلك الفتاة الساحرة، التي ينظر إليها خالد بخفر، أين منها ومن أسرتها وأبيها البيك صاحب هذه البناية بكاملها. ثلاث عشرة طبقة. في أغلى منطقة عقارية في بيروت. سترثها كلها من أبيها، فهي وحيدته، ولها كل هذا المجد.

تدخل إلى البناية، فيسرع ويطلب لها المصعد مطرقاً، ثم يلمحها لمحاً بنظرة خاطفة لئلا تنتبه، وهي لا تكاد تشعر به إن فتح لها باب البناية أو باب المصعد، ودائماً تكون مشغولة بهاتفها النقال، لا ترفع عينيها عنه، وتبدو كأنها تقرأ شيئاً على شاشته.. ماذا تقرأ؟ أي إنسان محظوظ ترسل إليه مسجاً بكلمات ما، وهي بقامتها الطويلة والمشدودة وجسدها المتماسك الساحر، يشعر خالد كأنها نجمة سينمائية، بل يفكر لو أنها اشتغلت في السينما لخطفت ألباب الرجال والنساء معاً، وكل العاملين إلى جانبها.

كان خالد يعرف حدوده فلا يتخطاها أبداً. حتى أحلامه بها،

كانت مكسورة الخاطر، فهو أين وهي أين؟ كان يتمنى لو مرة واحدة ترمقه بنظرة عابرة. ودائماً يخيب أمله.. ويفكر ربما لها حبيب، صديق ما. في الجامعة أو في مكان آخر، جار من الجيران وهم كثر، شبان وسماء رائعون، من المستوى نفسه. لا بد أن أحدهم نال قلبها، لكنه، ولا مرة واحدة رآها تصطحب واحداً من هؤلاء إلى مدخل البناية، أو تخرج مع أحد من شبان الجيران. تركن سيارتها في الكراج، ثم تتجه نحو المدخل ويدها على هاتفها، من دون أن تنظر إليه، بل تنتظر أن يسرع صوب المصعد ليطلبه لها منحنياً قليلاً وعيناه إلى الأرض، ويحلم أن يتنشق عطرها الساحر. عطرها وحده، كان يعشش في خياشيمه، ويظل محتفظاً به طويلاً.. يتنفس ببطء، لئلا تذهب الرائحة الزكية من زفيره وشهيقه، غالباً، يحاول التنفس من فمه رغبة منه في الاحتفاظ طويلاً، بالرائحة الجميلة في أنفه، وكلما أتيح له لقاؤها خارجة أو داخلة، يستنشق بعمق عطرها، ويتنعم به أطول قدر ممكن من الزمن. عطر، برائحته، يدوخ، يستنشقه بقوة حتى أعماق أعماق رئتيه. استولت سلمى على أفكار خالد من دون أي شيء آخر، بل لم يعد يفكر إلا بها، وما أن يسند رأسه إلى عمود الرخام الضخم الذي عليه تجلس هذه البناية العملاقة، ذات الطبقات الثلاث عشرة كلها، حتى يغمض عينيه، ويسبح بعيداً في أحلامه، لا يوقظه منها إلا رنين جرس الخدمة من إحدى الطبقات، أو مجيء أحد السكان، أو غريب يطرق الباب، وقد حمل بريداً لأحد ساكني البناية.

بات خالد يعرف سكان البناية فرداً فرداً، حفظهم عن ظهر قلب، بأسمائهم، وأشكالهم، وتصرفاتهم المتنوعة، وحتى أسرارهم، عندما يتسلل أحدهم مصطحباً معه فتاة من دون الالتفات إليه، لأنه مجرد بواب ليس عليه أن يفهم ماذا يفعل هذا أو يفعل ذاك، وفتيات البناية أنفسهن، من تنزل من سيارة شاب أوصلها حتى الباب، أو أخرى تصطحب شاباً يقبلها قبل أن تدخل وتضغط على زر المصعد الذي سيرتفع بها إلى شقتها.

لم يكن خالد يفتح باب المصعد إلا لسلمى.. إلا لها تحديداً، سلمى التي تسبقها إليه رائحة عطرها المميزة، التي بات يعرفها من بين كل سكان البناية، هم يفتحون باب المصعد بأنفسهم إلا هي هي التي باتت تعرف أن خالداً هو الذي يتقدم ويكبس زر المصعد، وما أن تصل إلى المدخل، حتى يسرع ويفتح لها الباب وتدخل من دون أن تقول له ميرسي. لم يكن خالد يطلب أكثر من كلمة من هذا النوع. أو الله يعطيك العافية، أو، ولو نظرة عابرة ذات معنى امتنان ما. وكم تمنى أن تطلب إليه ذات يوم أن يغسل لها السيارة في مدخل الكراج السطحي، ومع ذلك كان يغسلها من تلقاء نفسه، يشمشمها، يتلمسها براحتيه، يقترب، ويتفحص داخلها، فيجد لها أغراضاً مرمية على المقعد الخلفي من دون انتظام، وكان يتمنى دائماً لو تترك له مفتاح السيارة كي يرتّب كل شيء في داخلها، وفي الصندوق الخلفي، وحتى محركها، آه، لو تسمح له، فيدلل سيارتها، كما لو كانت ابنته الوحيدة.

وعندما تنزل من طبقتها الثالثة عشرة، يدرك أنها هي من الرقم ١٣ في المصعد، ليس أباها ولا أمها المغناج المتصابية، التي كان يخاف من عينيها وهي تنظر نحوه فيتحاشاها لئلا يقع في حبائلها. كان يتجاهل دائماً تلك النظرات المرعبة، التي تكاد صاحبتها تجعل منه لقمة من العسل تريد أن تلحسها حتى آخر قطرة.. لا.. لا، كان يعرف أن سلمى تنزل في المصعد باكراً لتذهب إلى جامعتها، وربما تكون تلك الأم نائمة، أو أن البيك يدخن نارجيلته على الشرفة.. إنها سلمى، هي نفسها برائحة عطرها، فيقف إلى جانب الباب كي يسرع ويفتحه لها، فتذهب بخطى سريعة نحو سيارتها التي تراها كل يوم لامعة مغسولة، أنظف مما لو خرجت من مغسل للسيارات، فتقول له من طرف فمها ومن دون أن تنظر إليه: ميرسي.. ميرسي. هذه تظل ترن في أذنيه كأحلى من عزف ناي.. كم كان خالد يحب عزف الناي من أيام الضيعة في الأماسي الرائعة، أتقن العزف عليه، وها هو الآن قد أصبح بيته ذلك الحنين الشفاف إلى لمسة يد من سلمى. الناي وحده أصبح قادراً، بما يملك من لحن حزين، أن يعبر عن مكنونات قلبه ومشاعره التي تتقد ناراً يوماً بعد يوم.

لم يكن يجرؤ أن يشكو ما به إلى أحد من رفاقه أو إلى حسن أخيه، لأنه يعرف، سلفاً، كيف سيسخرون منه «أنت في الأرض، مجرد عامل سوري، وهي نجمة في السماء، لا تقدر يدك أن تلمسها».

هذه المشاعر أصبحت تأكله كالجرب، وتكاد أصابعه تكشف

لحم صدره لتصل إلى شغاف القلب. حكاك مؤلم كلما ازداد حكاً ازداد ألماً.

فكر خالد كثيراً لو يترك العمل في هذه البناية ويرحل بعيداً، يعود إلى ضيعته، ويدفن أحزانه بين أوراق النعناع والحبق، أو يقلب تراب الأرض ويرمي جانباً الأعشاب الضارة، ماله وما لبيروت. هذه المدينة الصاخبة، التي كان يتاح له أحياناً، في الآحاد، أن يركب السرفيس إلى شارع الحمراء، فيرى نفسه غريباً في هذه الزحمة الخانقة التي تملأ هذا الشارع على الدوام، فعلاً. وكأنه ليس من هؤلاء البشر، فلا أحد ينظر إليه، لا الرجال ولا النساء، ليس وسيماً لكنه – أيضاً – ليس قبيحاً، إنه رجل في الثلاثين. لا يعتني كثيراً بمظهره الخارجي، لا يحلق ذقنه ولا يغتسل إلا مرة واحدة، في الأسبوع.. لم يكن يهمه نفسه، صحيح أنه في بيروت، عاصمة الدنيا كما كان دائماً يقول لرفاقه، لكنه، بوضعه الحالي لا يعتبر نفسه منها، وعندما يكون في عمله في تلك البناية، يشعر أنه ما زال في ضيعته التي جفّ فيها حتى الضرع والزرع، هناك، حيث كل شيء بات تراباً ورملاً صحراوياً، ليس صالحاً للزرع، بل كل ذلك لم يعد يعني له شيئاً بعد تلك السنين القاحلة، فإذا به بين عشية وضحاها يجد نفسه في هذه المدينة، التي كانت حلماً من أحلامه ولو زيارتها مرة واحدة، لكن ومن حسن حظه يجد عملاً فيها، حيث الراتب بالدولار وليس بالليرة السورية التعسة. كان عندما يقبض أجرته من صاحب المبنى يشم ورقة المائة دولار

بعمق، مكتشفاً أن لها رائحة خاصة جداً، تختلف عن رائحة ليرته السورية التي ليس لها أي رائحة.

في هذا المبنى الذي أصبح ناطوراً له، حصل على عمله مصادفة. عندما أوصى به قريب له كان يعمل سائقاً لسيارة البيك صاحب البناية، فقد دهم هذا السائق – لاحقاً – مرض السرطان، فعاد إلى ضيعته ليموت فيها بهدوء، ويذكر أن صاحب البناية منحه مبلغاً من المال كي يتابع علاجه، معدداً أمام خالد أمانته وإخلاصه، فقد كان البيك حزيناً من أجله متمنياً له الشفاء.. وأي شفاء من هذا المرض الخبيث. فأوصى به لدى البيك. ولم يكن خالد يجيد قيادة السيارة فعينه البيك ناطوراً.

وقبل أن يلمح خالد هذه الفتاة الجميلة، لم تكن له حتى الأحلام، أو حتى التفكير في المستقبل. كانت له أمنيات، لكنها أمنيات عاجزة عن التحقق.

عندما جاء إلى بيروت عمل في كل شيء، ولم يتعفف قط عن أي عمل رديء، المهم الحصول على المال بعرق الجبين. ومن عمل إلى عمل، يوماً يوفق، ويوماً يفشل، تعذب وأرهق كثيراً قبل أن يصبح ناطوراً ملء الدنيا، وهذا كان أقصى ما تمناه، أما أن يعشق ابنة صاحب البناية، فهذا ما لم يكن يتخيله. ما له ولهذا الحب الذي لا طائل فيه البتة؟ ما له وحب لا رجاء منه سوى العذاب والتمني، والأحلام التي صارت كوابيس؟

فكر خالد كيف ينجو من هذا الفخ.. من هذه السقطة التي لم تخطر له على بال، هل يجرؤ مثلاً أن يقول لها: أحبك يا سلمى؟ ماذا سيتوقع غير صفعة على وجهه توقظه من واقعه البائس، واقعه الذي لا يحق له فيه سوى أن يكون ناطوراً، بل أن يكون ناطوراً هو أغلى أمانيه، واقعه هذا لا يحق له فيه، سوى أن يكون مرتهناً بأناس عالين، أكابر، أثرياء، وأن يعيش بين جدران غرفة، فلا يطل من نافذتها إلا على آمال لا قيمة لها. إلا على أشواق لا تتحقق، إلا على أوجاع أقسى ما فيها أنها أوجاع قلب، أوجاع لا يقدر أي طبيب أن يشفيه منها، ولا تستطيع أي بدوية أن ترى في خطوط كفه، إلا طرقاً متعرجة لا تصل إلى مكان.. ولا تقدر ساحرة من ساحرات ضيعته العجائز على إحضار الحبيب ولو بضرب المندل. فلتخرس. وتضبّ حالك ولا تنظر أعلى من حاجبيك أيها التعس.

٦

عندما خرج السوريون من لبنان، كان خروجهم مذلاً، بل أسوأ بكثير من انسحاب الإسرائيليين من الجنوب بعد أن أذلتهم المقاومة. ولأول مرة ينتصر هذا البلد الصغير على من كانت تدّعي أنها أقوى دولة في الشرق الأوسط، وأن جيشها أقوى جيش، ليس في المنطقة، بل في العالم كله. وشتان بين هذا الخروج وذاك.

خرج السوريون وأصابع الاتهام، بل أصابع شعب برمته، تتهمهم بأنهم وراء مقتل الحريري. رئيس الوزراء الأسبق. الرئيس المحبوب الذي كان يعتبره اللبنانيون جميعاً، على اختلاف طوائفهم أنه رئيس وزرائهم، أكان في الحكم أم كان خارجه، وكانت كل إنجازاته لكل لبنان من دون استثناء. لم يبخل على أحد، ولم يرد أي إنسان كان يقصده إلا فرحاً، أعطى نفسه ليس لبيروت فحسب، بل لكل لبنان، ربما ظن أن الوجود السوري يحد من طموحه، وأنه يريد أن

يجعل من لبنان الصغير بعشرته الآلاف كيلومتر مربع أقوى دولة. لا عسكرياً، بل حضارياً، في العالم كله. كانت أحلام الحريري كبيرة جداً، وكثيرة. في هذه الرقعة الجميلة المسترخية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. كان يريدها معلماً سياحياً يقصده العالم كله من أقصاه إلى أقصاه، فوضع ميزانية كبيرة من ماله الخاص ليحقق به طموحات أكثر من أربعين ألف طالب للتخصص في الجامعات العالمية، أرسل بهم إلى مختلف العلوم. كانت أحلام هذا الرجل أكبر من أن يتسع لها لبنان بمساحته الصغيرة، بل كان طموحه يمتد إلى كل المحيط في البلاد العربية الأخرى. تساعده على ذلك ثروته التي جمعها قرشاً قرشاً وليرة ليرة من خلال نجاحه منذ كان شاباً في العشرين بكل مشاريعه التي كانت تنجح وتتقدم، فاستخدم ألوف الشباب اللبنانيين في تلك المشاريع. ولم يكتف بوضع ثروته لتحقيق هذه الإنجازات، بل ثروة أسرته الضخمة التي ساعدته وتساعده على تحقيق أحلامه. كان رجلاً استثنائياً، فبالرغم من تعرض لبنان لسلسلة من الاغتيالات، نالت رؤساء جمهورية ورؤساء وزارات وشخصيات كبيرة من مختلف المستويات. مثقفين، صحافيين، رجال دين. لكن اغتياله، بهذه الصورة البشعة كان الأقسى ليس على لبنان فحسب، بل على العالم.. إذ كان الرجل شخصية عالمية يستقبله كبار رؤساء جمهوريات العالم من أقصاه إلى أقصاه. فبدماثته وتواضعه، أصبح محبوباً من الصغار قبل الكبار، بل من جميع الشعوب والأمم. استطاع في خلال سنوات معدودة أن يكون على كل شفة ولسان،

بل ذكرت مجلة عالمية أنه الشخصية الأكثر تأثيراً ليس في بلده فحسب، بل في العالم. ربما من هذه الزاوية خافوه، ففي ١٤ شباط الذي يعتبر عيداً للحب، ١٤ شباط ٢٠٠٥ وقعت الجريمة التي اهتز لها العالم وأدت إلى استشهاده واستشهاد سبعة عشر رجلاً من رفاقه، كانوا معه في ذلك اليوم المشؤوم.

وكل أصابع الاتهام توجهت إلى سوريا. بل تحديداً إلى النظام، الذي كان قبل ذلك أيضاً متهماً باغتيال عشرات الزعماء.. رؤساء سابقين، زعماء طوائف، سياسيين، صحافيين، كتاباً، هل هذا معقول؟ وما هي مصلحة النظام في ذلك كله.. كما كان يتساءل مثقفون سوريون. سوريون كانوا يعتبرون لبنان بلدهم وأهله أشقاء لهم.. فإن كان النظام هو القاتل، فهل قصد بذلك تشويه هذه الصورة الجميلة التي كانت تجمع بين السوريين واللبنانيين في إطار من المحبة والتواصل والإحساس المشترك بأن كلا البلدين لا يستغني عن الآخر، بل ما بين سوريا ولبنان ما لا تستطيع أي قوة في العالم زعزعته، فهل يمكن للنظام أن يرتكب مثل هذه الخطوة الشنيعة، فإذا بالبلدين يتحكم فيهما خوف متبادل، انعكس على كل سوري في لبنان، حتى أن خالداً نفسه لم يكن يعرف من هو الحريري عندما استشهد. كان خالد يتناول شراب المتّة وهو مستند إلى العمود الرخامي في مدخل البناية، عندما اهتزت به كأن زلزالاً قد ضرب البلد. فشعر بأن شيئاً ما خطيراً قد حدث، خصوصاً عندما تناهى إلى

سمعه صوت قوة ذلك الانفجار. فظن أنهم اليهود، وقد هجموا على لبنان ليثأروا من هزيمتهم المذلة عام ٢٠٠٠. فسأل، فقالوا له وهم واجمون: الحريري قتل. لكن كالأبله سأل: من هو؟

عرف لاحقاً من هو، عندما صار رفاقه العمال يحذرون ويتحذرون، إذ، في أيام معدودة، اقتص بعض الغوغاء الذين اتهموا بأنهم من رجال الحريري من العمال السوريين الذين كانوا فشة خلق. حتى قالت الأخبار إن الذين قتلوا في ذلك اليوم المشؤوم والأيام الأربعة التالية تجاوز عددهم الثلاثمائة وسبعين قتيلاً، قتلوا في أماكن عملهم بوحشية أين منها وحشية اليهود في فلسطين. اقتصوا منهم بأسلوب أكثر شبهاً بالمذابح التي ارتكبها اليهود ضد الفلسطينيين عام ٤٨ وما بعده. ويتذكر خالد ابن ضيعته أبا سعيد الذي أراد النجاة بنفسه، فحمل فرشته على ظهره متسللاً، لكنهم عثروا عليه، فطلبوا إليه أن يفرد فرشته على الإسفلت الأسود، وعلى قارعة الطريق أفرغوا فيه مسدساتهم دفعة واحدة: يا كلب.. قتلتوا الحريري.. وعندما أغمض عينيه مستسلماً للموت.. كان يسألهم: من هو الحريري؟. والله لا أعرفه.

والغريب في الأمر أن أحداً من وزارة الداخلية السورية لم يسأل عن مصير هؤلاء مع أنهم كانوا مواطنين يسعون إلى لقمة خبز مغمسة بالدموع والعرق، وأصبحت لاحقاً مغمسة بالدم.

طاش عقل بعض اللبنانيين عندما وقعت هذه الجريمة فاضطهدوا

العمال السوريين. بل طردوهم من أعمالهم من دون أي تعويض. واعتدي عليهم، واغتصبت بناتهم من دون رحمة. وأحد اللبنانيين وهو يغتصب فتاة أمام عيني أبيها كان يصرخ أمامه: جنودكم يا كلب اغتصبوا ابنتي. وفي الحقيقة، على ما عرف العالم أجمع، حتى الناس السوريون أنفسهم، أن الجنود السوريين ضباطاً وعسكراً، عاثوا فساداً في طول الأرض اللبنانية وعرضها، اعتدوا على الناس، ومارسوا ضدهم أبشع أنواع الاضطهاد من القمة إلى القاعدة. سرقوا مصارف، واعتدوا على الحرمات، وتصرفوا عكس الشعارات التي أعلنوها يوم دخولهم، أنهم جاءوا إلى بلد شقيق لحمايته من التقسيم. دخلوا واللبنانيون يحلمون بنهاية الحرب على أيديهم، فإذا بهم يصيرون طرفاً. فقاتلوا يميناً تارة ويساراً طوراً آخر. دخلوا محبين منقذين، وخرجوا مكروهين مذمومين من كل الطوائف. وقد كشفت جريمة اغتيال الحريري كل هذه الجرائم بالتفاصيل، بما يندى له الجبين خجلاً.

وأصبح العمال السوريون بعد خروج جيشهم مكسوري الخاطر وخائفين. وقد ظل هؤلاء، تباعاً، شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة عرضة للاعتداء من غوغاء وعصابات تصطاد في الماء العكر. ذلك كله سطرته مذكرات السياسيين ووكالات الأنباء خصوصاً ما فعله ضباط عسكريون ورجال مخابرات وعسس. وعندما انسحبوا، عادوا أثرياء ولم تسألهم دولتهم من أين لكم هذا. لقد حملوا معهم حتى أثاث البيوت التي كانوا يحتلونها، بل خلع الجنود من الأبنية التي شغلوها

الأبواب ومفاتيح الكهرباء والرخام والبلاط، وكل ما استطاعوا نزعه، مثل أي جيش احتلال في العالم، انسحبوا مرغمين بقرارات دولية، وإلا لظلوا ينتهكون حرمة هذا البلد الذي اؤتمنوا عليه ذات يوم.

٧

لم يعرف أبو محمد كيف كان عليه أن يتسلل خارج تلك المنطقة التي يعمل فيها. تداول مع زوجته العجوز كيف السبيل إلى الهرب من كل لبنان. وكان يتناهى له سابقاً أن الاعتداء على العمال السوريين فاق التصور. مع أن أبا محمد كان يحب الحريري، ليس وحده بل كل أسرته. ويتذكر في المواسم السابقة كيف كانوا يعطفون عليه وعلى أسرته، حيث كان يجيء في مواسم القطاف، مع زوجته وابنتيه ويعود إلى ضيعته في الشتاء، ويكون قد ادّخر بعض المال الذي يكفيه حتى الموسم المقبل. فأسرة البيك الذي يعمل أبو محمد في حقوله أصبحت مثل أسرته. وعندما ينتهي القطاف في حر الشمس وزوابع هواء البحر، تذهب ابنتاه إلى قصر البيك، لتبتدئا عملاً جديداً غير قطاف النهار من أشجار الليمون والبرتقال. تخدمان في البيت بالرغم من أن لدى البيك ثلاث خادمات أثيوبيات، لكنه لا يثق إلا بفاطمة وأختها عائشة في تنظيف البيت وغسل الصحون التي تتكاثر

يومياً بسبب ولائم البيك لمريديه وأزلامه.. فتاتان مسلمتان والنظافة كما تعلمتا في المدرسة الابتدائية هي من الإيمان.

وفي تلك الفوضى التي دبت في البلد، والاتهام اليومي لسوريا نظاماً وحكاماً وضباط مخابرات بأنهم قتلة الحريري، انعكس ذلك كله على العمال السوريين الموجودين في الحقول والمعامل كما على بائعي الخضر، والقصّابين، وموظفي توصيل الحاجات إلى بيوت أصحابها. ومع أن سوريا ظلت تنفي علاقتها باغتيال الحريري، لكن الناس العاديين لم يصدقوا. وظلوا في حياتهم ولقاءاتهم وأمسياتهم في البيوت والمقاهي يعتقدون أن لسوريا مصلحة في اغتيال هذا الرجل. وبعد انسحاب الجيش السوري من لبنان، أشاع الناس، إمعاناً في الكره، أن سوريا تركت في البلد أجهزة مخابراتها بانتظار أوامر ومهمات أخرى. وكثرت الإشاعات أن هؤلاء، يتخفون كباعة يانصيب ودخان مهرب وعطورات مزورة وباعة صحف على الزوايا، فهم ليسوا من العمال، بل رجال مخابرات متخفون وراء هذه المهن التي يأنف منها أي لبناني.

كانوا يعرفونهم من لهجاتهم القروية، ومن أي ضيعة جاءوا. قد يكون ذلك حقيقة، والحقيقة أيضاً أنهم مجرد عمال مساكين لم يجدوا عملاً في بلدهم، فلم يكن أمامهم سوى هذه المهن الوضيعة وفي بيروت بالذات، للحصول على لقمة الخبز. وبسبب تلك

الإشاعات، اعتدى الناس عليهم في أكثر من مكان، بل ارتكبت جرائم بحقهم، ليس أقلها ذلك الشاب المسرع بسيارته على كورنيش المنارة. إذ سحب مسدسه من حزام بنطاله ليطلق الرصاص على بائع ذرة مشوية على الرصيف فأرداه وفي ظنه أنه عامل سوري، بينما لم يكن في الواقع كذلك. ولم يُعرف إذا كانت الشرطة قد اهتمت بالأمر ولاحقت القاتل أم تركته ينجو بفعلته.

كان الغضب عارماً على هؤلاء، الذين لم يفقه معظمهم سبب هذه النقمة، فهم بسطاء، لا يعرفون في السياسة شيئاً وشيوخهم ما زالوا يعتقدون أن الملك فاروق ما زال يحكم مصر. كما ظل بعضهم يستغرب هذا الكره الذي بدأ اللبناني يعامله به، معاملة احتقار وعنصرية أين منها عنصرية التعدي على السود في الغرب. وكم تعرض هذا العامل أو ذاك لسرقة ما معه من مبالغ بسيطة كان يحتفظ بها إلى اليوم الأسود.

أبو محمد وزوجته، الأكثر مأساة.. فقد خطفت ابنتاهما من دون أن يعرفا شيئاً عن مصيرهما لعدة أيام.

وكان البيك قد وعد بما له من سلطة أن يهتم بالأمر لمعرفة مصير الفتاتين. وبالفعل لم يأل جهداً في البحث عنهما، صبيتان في عمر الورد، الفرق بينهما سنة واحدة، إحداهما ست عشرة سنة والثانية سبع عشرة. وكانتا تبدوان أكبر سناً في نضج فتاة في العشرين أو أكبر. صباحة وجمال بدوي واسمرار أجمل ألف مرة من اسمرار

شواطىء السباحة المشوية بالشمس، سينكشف مع قدوم الشتاء، ويعود كما كان.

فاطمة وعائشة كان ينظر إليهما ابن البيك نظرات شرهة، وينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليهما الواحدة تلو الأخرى. وجاءت جريمة اغتيال الحريري كي تحل عليهما اللعنة والنقمة من كل جانب. وما خطط له ابن البيك على مدى أيام، نفذه بخطفهما مع رفاق له، فقادوهما إلى بؤرة بعيدة في سفح جبل الشيخ، ليغتصبوهما الواحدة تلو الأخرى من دون توقف، وغير آبهين لتوسلاتهما وبكائهما وطلبهما الرحمة بصباهما، ولا سيما الكبرى التي راحت تذكّر ابن البيك بالخبز والملح، وكم كان أبوه يعتبرهما مثل أولاده. لكنه ورفاقه لم يكترثوا قط لهذه التوسلات.. أليستا سوريتين؟. أليستا من شعب.. ومن نظام. ومن بلد.. قاتل الحريري؟! الدولة الشقيقة، الجارة العزيزة.. فأصابع الاتهام تقول، إنها هي التي تآمرت على قتل هذا الرجل، وغيره من الشهداء. إذاً، فليس لهم من ثأر سوى هؤلاء العمال السوريين المنتشرين تحت الجسور وفي الساحات وأمام كراجات السفر، والعاملين في الحقول والمخازن والشركات وبائعي الخضر على عرباتهم يجرونها من شارع إلى شارع ومن زاروب إلى زاروب، يلهثون ويتعرقون ويتعبون من أجل إيصال حاجات الناس الغذائية بثمن أقل من المحال والسوبر ماركت، حيث فرق السعر يكون كبيراً. وكم من عامل من هؤلاء يدفع عربته صعوداً إلى

الحازمية فيسقط ميتاً قبل أن يقطع نصف الطريق،بل كم من عامل تعرض للأذى من شرطي بلدية، أو شرطي سير، أو عسكري مجند. أليس هذا العامل من بلد قتل قادته زعيمهم رفيق الحريري؟! بل كم من ولد دون العاشرة، يعمل أجيراً لهذا الخضري، أو ذاك السوبر ماركت ولا يتقاضى منهما راتباً، بل يعتمد على البخشيش، الذي عادة يكون قليلاً، أو كثيراً، حسب نخوة الزبون. فتتراكم مع الطفل، مع قدوم المساء، بضعة آلاف لا تتجاوز العشرة دولارات كي يساعد أباه أو أخاه الذي يعمل في مكان آخر، في مهن صعبة لا يقدر عليها هذا الصبي.

هؤلاء، من قرى بعيدة، ومن أطراف الحدود مع تركيا أو العراق أو الأردن. يتعارفون ثم يتعاونون معاً، على توفير الليرة تلو الليرة، كي يعودوا إلى قراهم، إلى آبائهم الشيوخ وأمهاتهم ليردوا عنهم العوز والموت جوعاً.

اغتصبت كل من فاطمة وأختها بقسوة ووحشية. وتعاقب ابن البيك ورفاقه عليهما من دون توقف، ليالي عديدة. وأبو فاطمة يسأل البيك عن ابنتيه، والبيك لا يتردد في الاستفسار عنهما لدى السلطات المختصة، من دون العثور عليهما.

كان ابن البيك يعود إلى قصر أبيه وكأن شيئاً لم يكن، وكان ينظر إلى أبي فاطمة باحتقار، كأنه يثأر بمأساة تلك الفتاتين للشهيد. كان رفاقه يحرسونهما في شاليه صغير مخصص للتزحلق على الجليد، وهو ملك لأبيه، إلى أن ملوا منهما. ودرءاً للفضيحة اتخذوا قرار

قتلهما معاً، ودفنهما في سفح الجبل وكلتا الفتاتين لم تكن تنتظر هذا المصير عندما أطلق ابن البيك ورفاقه معاً الرصاص عليهما. ثم دفنوهما في حفرة عميقة، وفي المكان نفسه الذي اغتصبتا فيه.

وبسبب اهتمام البيك بمعرفة مصير الفتاتين وسعي أجهزة الأمن إلى البحث عنهما، عثرت الشرطة على جثتيهما، ولم يخطر ببال البيك أن الشبهات حامت حول ابنه بالذات. وبالضغط عليه اعترف بالجريمة، ودلّ الشرطة على شركائه في الجريمة، فألقي القبض عليهم جميعاً، لكن البيك بما يملك من سلطة، سحب ابنه كالخيط من العجين. وبإقناع أجهزة الأمن بأن ابنه شارك في الاغتصاب فقط ولكنه لم يشارك في القتل، استطاع أن يخرج، بعد ذلك، من السجن، بكفالة بلغت مائة مليون ليرة، إلا أن رفاقه، بالرغم من اعترافهم بالجريمة لكنهم أكدوا أن ابن البيك كان شريكاً معهم، إلا أن القضاء لم يأخذ بذلك. فهنا، في هذا البلد ذي الواجهة الحضارية الفاقعة، كل شيء فيه مرتهن بالمال أو بالوجاهة أو بالسلطة التي تتقاسمها الطوائف كل حسب حجمها في انتخابات تقرر سلفاً وإن كان الناس، يذهبون بعفويتهم إلى صناديق الاقتراع.

أبو محمد لم يعد يطيق البقاء في تلك الحقول، ولم يعد يطيق لا البيك ولا أسرته. فقرر مع زوجته التسلل خارج لبنان لئلا يكون مصيرهما القتل أيضاً.

حاول البيك تعويض أبي محمد. لكن الرجل بما لديه من كبرياء رفض أي تعويض، فقتل ابنتيه على هذه الصورة، لا يكفيه

تعويضاً ولو بلغ الملايين من الدولارات. ولو كان أبو محمد يستطيع بشيخوخته وتعبه أن يثأر لمقتل ابنتيه بنفسه لفعل، ولكنه كان يعرف أنه لا يستطيع ذلك. وما كان منه إلا الرحيل بصمت تواكبه أحزانه التي تندفع في صدره كالنهر على ابنتيه، ليس لاغتصابهما فحسب، بل لمقتلهما أيضاً.

عندما وصل أبو محمد إلى قريته، بعد تنقل متقطع لعدة أيام، طلب إلى زوجته ستر الفضيحة، حتى على ابنهما محمد الذي كان يدرس الطب في مصر بمنحة من وزارة الصحة في سوريا. وهو يعرف إلى أي مدى تكون الصدمة قاسية عليه إذا عرف حقيقة هذه الجريمة البشعة.

كَزّ على حزنه – بتعبير أهل القرى – إذ ليس لهما بعد ذلك سوى هذا الشاب محمد الذي يجتهد منصرفاً إلى دراسته كي يحقق حلمه أن يصبح طبيباً، ويكون سنداً لأبويه وأختيه. وكان الأب يترقب رسالة من محمد يخبره فيها بأحواله ودراسته، فالابن الآن هو عزاء الأبوين العجوزين، فانصرفا إلى الأرض يزرعان فيها ما تيسر بكفيهما من أجل رغيف يمنع عنهما الجوع.

٨

لم يكفّ خالد عن عشق سلمى. ولم تكف أمه عن السؤال عن زوجها الخائن، الذي هرب بالمال، ليتزوج صبية في حلب. وكانت تدعو عليه بالموت، لأنه خانها وتخلى عنها في وقت هي بحاجة إليه. إلا أن شقيقها الشرطي في البلدية شكّ في الأمر، فهذا الاختفاء المفاجيء ليس إلا جريمة، ولكن هل له سلطة ليعرف مصير صهره؟

ذهب إلى رئيسه المباشر ليبثه شكوكه. ولكن رئيسه الرائد في الأمن نصحه بعدم الاهتمام بالأمر. لأنه سيدخل في دوامة. فما أن يفتح له باب حتى يغلق باب آخر. وقال له: مئات من السوريين اختفوا في لبنان، ولا تحرك الحكومة ساكناً لمعرفة مصيرهم، بل لم تهتم بهم.. ثم قال ضاحكاً: خلصنا منهم، وبالناقص.

لم يناقش الشرطي خال خالد رئيسه في الأمر، بل قطع أي خيط من أمل في معرفة مصير أبي خالد.. وقد تكون شكوك شقيقته

صحيحة، لكن أبا خالد ضاق ذرعاً بها، وقد يكون بالفعل تزوج امرأة ما، شابة، تمنحه ما افتقد في زوجته العجوز.

لم تنس أم خالد أبا خالد الذي عاشت معه على الخبزة والبصلة. ولكن كانت تشتمه وتدعو عليه بالحُمّى والسرطان.. والشلل، وأن يموت ميتة بشعة. دهساً بسيارة ما، أو قتلاً، أو أي وسيلة أخرى تجعله ميتاً منذ اختفى، وأن لا يتمتع بأي حياة خارج بيتها، فهو – كما تعرف وتكرر – لم يعد قادراً معها، فكيف يكون قادراً مع فتاة شابة كما تخيلتها.. ثم تستدرك: شابة، فتاة في عمر الورد، لا شك أنها ستكون قادرة على تحريك ما مات فيه منذ زمن بعيد. وتتذكر المختار السبعيني الذي اقترن بأربع نساء. وآخرهن صبية في العشرين من عمرها أنجب منها ثلاثة أولاد. وأصبح أباً لعشرين ولداً وجدّاً لخمسة أحفاد، وما زالت شهيته للنساء كبيرة.. كيف عرفت أم خالد أن هذا الرجل ما زال قادراً على النساء؟ عرفت من خلال تحرشه بها كلما احتاجت إليه، لتوقيع ورقة، أو تأخير أجرة البيت. بل إن عجائز القرية المجتمعات كل يوم جمعة تحت ظل شجرة الزيتون في الأماسي الصيفية، كن يلكن سمعة الرجل النسونجي، الذي لو استطاع، لقفز فوق نساء القرية كلهن عجائز وصبايا من دون أي تردد. لكنهن يخفنه لأن السلطة بيده، إلى جانب ثروته التي لا تحرقها النيران. وأم خالد تؤكد أن هذا المختار زير نساء، وأن له مغامرات ليس في هذه القرية فحسب، بل في القرى المجاورة أيضاً. والرجل، عن هذه الثرثرات غافل، وغير مهتم.

وتحاول أم خالد أن تفهم من جاراتها هل يعرفن شيئاً عن زوجها؟ فلا ترد واحدة إلا بكلمة أو كلمتين: يمكن يا أم خالد جرى له شيء.. أو مات في مكان ما، فترد أم خالد: لو أن هذا جرى فعلاً لكنت عرفت، ولجلبوا لنا جثته لندفنها هنا كما كان يتمنى دائماً. فتدعوها جاراتها أن تصبر لعل الله يجد لها مخرجاً. بل لعل طيراً أو نسمة عابرة، أو غراباً أسود يحمل إليها الحقيقة أن أبا خالد مات وشبع موتاً، بل ونهشت الوحوش جثته، حتى لم يبقَ منها أثر. ولم تكن تعرف أن المسكين كان قد صمم أن يعود إليها بثروته، ليعيشا معاً، كما كان يردد، جنباً إلى جنب بقية العمر، وفي جوار موقد النار في الليالي الباردة التي تلذع الوجوه كالأفعى.

فإن كان هذا مصير أبي خالد، فأين هي جثث العمال الذين قتلوا هنا وهناك، بالعشرات، ولا أحد يعلم أو يسأل عن مصيرهم، فدفنوا مجهولين في مقابر جماعية عديدة في صيدا وبيروت والجبل ثأراً منهم لجرم لم يرتكبوه.

وكانت أم نبيل، التي فقدت كل أثر لابنها، الذي سافر إلى لبنان للعمل ثم اختفى، قد جاءت، بما تملك من مشاعر الأم وحنانها لتعرف مصير ابنها الوحيد، فلم تترك وسيلة إلا لجأت إليها، فسألت مخافر الشرطة، وكل عامل سوري أو أي شخص، لعل أحدهم يعرف مصير ابنها ولكن من دون جدوى. وعندما صادفت نساء ورجالاً وشيوخاً وعجائز، يقفون في ساحة رياض الصلح، وحاملين يافطات

يسألون فيها عن أبنائهم المختفين، ربما، في السجون السورية، شعرت بالتعاطف معهم، بل تجاسرت ووقفت إلى جانبهم من دون أن يعرفوا شيئاً عن هذه المرأة الطارئة على تجمعهم. فهي أيضاً تريد أن تسأل، في الوقت نفسه، الحكومة اللبنانية عن مصير ابنها نبيل ورفاقه الذين اختفوا في الفوضى التي أعقبت اغتيال الحريري. كأن المفارقة تجمعهم معاً في هذه المأساة التي لم يجد لها أحد حلاً. فهل كان اختفاء عدد غير محدد من العمال السوريين ثأراً لاختفاء لبنانيين آخرين في مجاهل السياسة وألاعيبها؟!

وعندما عرف التجمع اللبناني من نساء ورجال ما فتئوا يلتقون في ساحة الصلح قريباً من تمثال رئيس وزراء لبنان الأسبق رياض الصلح الذي قضى هو الآخر اغتيالاً، أن هذه السيدة السورية التي تقف إلى جانبهم لتسأل عن مصير ابنها ورفاقه.. تشكو المأساة نفسها وتعاني المشكلة نفسها، طردوها من بينهم بقسوة، فلم تجد مكاناً آخر للتعبير عن احتجاجها على اختفاء ابنها، إلا الذهاب والوقوف في ظل تمثال الرئيس الشهيد رفيق الحريري الذي لم يمض على جريمة اغتياله سوى أشهر. لعل الوقوف في ظله يُنبّه الناس لمأساتها، ولكي يعرفوا أنها سيدة سورية، استحضرت علماً سورياً صغيراً ورفعته مع يافطة صغيرة كتب عليها «أنا أم سورية أسأل الحكومة اللبنانية عن ابني ورفاقه الذين انقطعت أخبارهم في لبنان». لكن المفاجأة التي جعلت هذه السيدة تبكي بصوت عال، أن شابين يمتطيان دراجة

نارية انتزعا من يدها حقيبتها التي تعلقها بكتفها وفيها كل أوراقها مع أموال أحضرتها معها، إلى جانب انتزاعهما العلم السوري الصغير الذي كانت تحمله، فداساه بعجلتي دراجتهما النارية، فيما تمسّكا بحقيبتها وولّيا الأدبار على مشهد من الناس والسيارات العابرة من دون أن يحاول أحد منهم اللحاق باللصين.

٩

وصل محمد إلى قريته فجأة. أراد، في إجازة له، أن يفاجىء أبويه، حاملاً لهما ولأختيه ملابس جديدة وقليلاً من المال وفره من منحته.

دق الباب الخشبي لتفتح له الأم وقد فغرت فاها دهشة ثم ترحيباً وعناقاً حاراً: تقبرني.. ليش المفاجأة.. كنت عطينا خبر فنستقبلك في المطار، ولكن، هذه هي ألاعيبك.

ضحك محمد وضم والدته إلى صدره. ثم سرعان ما لمح الأب الذي اقترب منه ببطء قبل أن يضمه إلى صدره: الحمد لله على السلامة يا ابني.

جلس محمد على أول كرسي ليرتاح، كان متعباً من السفر بين مطار القاهرة ومطار دمشق فمطار حلب، ثم سيارة الأجرة التي نقلته إلى الضيعة.

في البداية، لم يخطر بباله أن يسأل عن أختيه، طالما كانتا دائماً في الحقل الصغير تنبشان التراب بأيديهما وتزرعان البندورة أو الفجل أو الخس وتراقبان الدالية الوحيدة التي انقطعت عن الثمر، ولكن أوراقها، أو بعض أوراقها ما زال أخضر طازجاً يصلح لطبخة ورق عنب بالزيت، أكلة العائلة المفضلة.

تمنى محمد فنجاناً من القهوة المضمّخة بالهيل التي تطحنها أمه بيدها، وفي أثناء ارتشافه القهوة على مهل كعادته ممسكاً الفنجان براحتيه متدفئاً به، راح يتحدث عن نجاحاته في كلية الطب وعن اختياره التخصص في جراحة القلب، فقال ضاحكاً: سأصبح طبيب القلوب المعذبة، أداويها وأفتح شراييها المتكلسة، كي يستمر أصحابها في الحياة. ولمّح إلى أبويه أن ثمة خبراً سعيداً سينقله إليهما عن هيفاء الفتاة المصرية، التي تدرس الطب النسائي في القاعة المجاورة. وأنه على وشك أن يطلب يدها من أهلها برضى الله والوالدين..

أسعدهما الخبر. ولكن، سرعان ما انتبه محمد لذلك الحزن الذي ظهر فجأة في عيون والديه.. فسألهما تواً: أين فاطمة وعائشة؟ صمتا معاً. لكن الأم قالت: هما في الحقل. فهب واقفاً ليطل من النافذة نحو الحقل الذي يلتف حول البيت الطيني المتواضع فلم ير أحداً. قال: ليستا هناك. ظل الأب صامتاً، لكن الأم، ابتدرته: ربما عند أم حسين جارتنا.. فابنتها صديقة لأختيه.. سكت، ولكن بدت عليه

الحيرة، فهو كان يتمنى أن يجدهما في البيت ليتأمل وقع المفاجأة عندما يريانه يدخل إلى البيت. وعاجلته الأم بسؤالها عن هيفاء.. عن جمالها.. طولها وعرضها، قصيرة، سمينة، نحيلة. فوصفها كأنها ملكة جمال. ومن خلال وصفه لهيفاء، أدرك الأبوان إلى أي حد يحبها ابنهما، وكم هو مسحور بها وسعيد، بل عاشق حتى أذنيه، إذ كان صوته يتهدج حين يتحدث عنها كأنه يقرأ الشعر من كتاب. وقال إنه اتفق معها على الزواج بعد التخرج، حيث سيسعى إلى ممارسة نشاطه في إدلب وحلب المتقاربتين جغرافياً، وإن هيفاء تتشوق إلى التعرّف إلى سوريا، وإلى قريته بالذات.

فتح محمد حقيبته وأخرج الهدايا التي اختارها لأبيه ومن بينها الدشداشة المصرية، ولأمه ملابس مزركشة بالزهور ولأختيه فساتين حديثة لأنه يريد أن ينقلهما من البداوة إلى الحضارة، كما كان يقول..

وراح يفرد هذه الملابس على البساط الملون المشغول بيد أمه، ثم قال لأمه: هيا اذهبي.. واستدعي فاطمة وعائشة حالاً. أريد أن أراهما الآن فأنا مشتاق إليهما كثيراً. في البداية لم ترد الأم. ولم يرد الأب. فأدرك محمد أن ثمة شيئاً ما يخفيانه. فتوجس خيفة، ثم راح يلح: أين هما؟. أين هما؟.

قال الأب: ارتح يا ابني.. حتى أشرح لك.. قال محمد: أنا مرتاح.. هات حدثني. في البداية ارتبك الأب، فيما الأم راحت ترمق زوجها بقلق وقد دمعت عيناها.

قال الأب: البقية بحياتك يا ابني.

شعر محمد كأن صخرة مفاجئة سقطت على رأسه. بداية لم يستوعب ما قاله الأب. ثم سأل بتردد: ماذا؟ فبكت الأم بصوت عال، وأخذت ترتجف بكل جسدها الضعيف، عاد محمد ليسأل: قلت لكما ماذا جرى؟ قال الأب متماسكاً: توفيتا في إثر حادث سيارة في لبنان.

أخذ محمد يردد: حادث سيارة.. حادث سيارة.. حادث سيارة. ماتتا معاً في حادث سيارة.. أين أين.. ومتى؟

وأمسك محمد رأسه بين يديه وأخذ ينشج.. شعر بأن دماغه سينفجر وبأن قلبه سيخرج من بين ضلوعه وبأن العالم كله يكرهه. شعر كيف أن القدر يفاجيء الناس، فيحول ليلهم نهاراً، ونهارهم ليلاً.. وظل يردد: حادث سيارة.. حادث سيارة.. أين كانتا ذاهبتين لتموتا معاً.. لماذا لم تبق واحدة معكما فتنجو من الموت.. لماذا معاً، في حادث سيارة واحد.. وكرر: أهو الغدر يعكّر صفو حياتنا؟ أهو الغدر يضرب براحتيه القاسيتين من دون رأفة؟ باطشاً بأفئدتنا ولا نستطيع أن نعترض. معاً بسيارة واحدة. أين كانتا ذاهبتين من دون أن تكونا أنتما معهما؟ أي سيارة كانت. أين كانت تقلهما وإلى أين؟ لا أصدق.. لا أصدق. قلبي يقول لي إنكما تكذبان، قلبي يقول إنكما تحاولان تخفيف المصيبة عني.. لا.. لا، كل عيونكم تقول إنهما لم تموتا بحادث سيارة. إنه حادث كريه. حادث لا يصدق.. وأريد الآن

أن أعرف كل شيء. فاطمة وعائشة. زهرتان طاهرتان نقيتان كالماء الذي نشربه. أيديهما اختلطت بالأرض وتراب الأرض وتورمت من نبش التراب كي نزرع ما نأكل. لا.. لا..

كان محمد مضطرباً إلى حد الجنون. وظل يردد: لا أصدق.. لا أصدق موتهما هذا. لا بد أن شيئاً خطيراً قد حدث لهما. وإن لم أعرف منكما فسأعرف من غيركما. سأعرف.. سأعرف كيف وقعت هذه الكارثة.. سأعرف.. سأعرف.. سأعرف.

١٠

كان حسن شقيق خالد، قد عُرض عليه العمل بشكل دائم في بناية سترتفع ثلاثين طبقة، على الواجهة البحرية، وفي أغلى وأعلى سعر للمتر الواحد في العالم كله، ناطحة سحاب كما كان يتصور حسن، ولا ينتهي العمل بها قبل خمس سنوات.

خمس سنوات من العمل المستمر فهذا ما تمناه، عوض الانتظار تحت الجسور، خصوصاً جسر منطقة الجناح القريب من الأوزاعي، الذي يشعر بأنه ليس غريباً هناك عن هؤلاء المحيطين به، من العاملين في كراجات لتصليح السيارات، مخازن لبيع مفروشات زهيدة السمن، مطاعم رخيصة، محطات بنزين، إلى جانب بائعي الورود، وسوبر ماركت صغيرة ثم باعة خضر وفاكهة تحت الجسر مباشرة. والأجمل من ذلك كله مقهى صغير يقدم الشاي والقهوة والنراجيل المختلفة النكهات من التبغ المعسل إلى طعم الليمون والتفاح والياسمين آخر موضات تدخين النراجيل..

كان حسن قبل أن يتاح له العمل في ناطحة السحاب تلك، يختار هذا المكان تحديداً، لأنه يوفر له العمل السريع، فهو محاط بكثير من أعمال البناء، خصوصاً عمارات الضباط في الجيش اللبناني التي تمتد من ساحة حافظ الأسد نزولاً إلى الجسر. وكثيراً ما كان يتنوع العمل هنا بالنسبة إلى حسن، ربما لرفع جدار، أو تعزيل مجاري البنى التحتية، على ما فيها من روائح كريهة، إلى إزالة صخرة من جانب الطريق. فيتذكر الأستاذ رباح القادم من مدينة صور الذي جاء إلى هذا الجسر، لمعرفته أنه سيجد ضالته بين العمال السوريين فلمح حسناً بفتوته وشبابه وعضلاته، بما يوحي له أنه العامل المطلوب، فسأله إن كان يقدر مع رفاق له على إزاحة تلك الصخرة التي تعرقل بناء مدرسته الجديدة. وعرض على حسن ومن يشاركه مائة دولار عداً ونقداً إن استطاعوا إزاحة الصخرة من مكانها. ومع أن صاحب المدرسة كان يستطيع الاعتماد على بلدية صور لإزاحة الصخرة، لكن ما كان يضمره هذا الأستاذ هو أن يضم مكان الصخرة إلى داخل حديقة المدرسة، أي إنه يريد سرقة قطعة الأرض التي تجثم عليها تلك الصخرة، ومن دون أن تعلم البلدية بذلك، أو غيرها من سلطات المدينة. وسأل حسن الأستاذ عن حجم الصخرة، فقال له إنها كبيرة، فسأله: هل كاف عشرة عمال لإزاحتها؟ ثم ردد له: نحن، إذا أردت، نزيح جبلاً من مكانه.. فاتفق ورفاقه على مبلغ المائة دولار.

تعمد الأستاذ أن يكون يوم الشغل نهار الأحد، حيث مسؤولو

البلدية غائبون عن عملهم، وحتى الشرطة يكون رجالها نائمين في بيوتهم. لأن الأحد هو يوم عطلة، يرتاح فيها الجميع في بيوتهم. فجاء الأستاذ بباص صغير وانتقل الجميع إلى أطراف مدينة صور حيث يشيّد الأستاذ مدرسته الخاصة، فعمل الشبان بكل ما أوتوا من قوة، حيث حفروا حول الصخرة عميقاً، ثم بدأوا زحزحتها بأكتافهم. كان العمل مرهقاً وقاسياً واستمر أكثر من عشر ساعات والأستاذ يراقب الطريق خوفاً من مرور مسؤول ما من البلدية، أو شرطي سيتطفل ويسأله ماذا يفعل، فهو يسرق قطعة أرض ليست له، وعندما ينتهي من تشييد مدرسته، فهو قادر بالواسطة والرشى أن يضم إلى مدرسته شارعاً برمته لو أراد، ولكن يبدو أنه متواضع جداً، فلا يريد أكثر من مكان الصخرة الذي تبدو مساحته ثلاثة أمتار مربعة ليس إلا.. وعند الانتهاء من بناء المدرسة فمن سيجرؤ على مساءلته كيف سرق هذه القطعة الصغيرة من الأرض وهي ليست لك، والجواب الجاهز للأستاذ الذي حفظه عن ظهر قلب: هذه مدرسة.. وهل ترفض توسيع جدار المدرسة للحفاظ على الطلاب من اقترابهم من الشارع. والأستاذ إلى ذلك، شخصية انتخابية، أي أنّ له دالة على آباء تلاميذه وأمهاتهم ليصوتوا لمن يراه هذا الأستاذ صالحاً لخدمة البلد. بل إنه قادر على توفير نحو ألف صوت لأي مرشح يتفق معه على دعمه لكي يصبح نائباً في مجلس النواب. الأمور كلها هكذا في هذا البلد، الأستاذ يعرف اللعبة جيداً. بل الجميع يعرفون قوانين اللعبة. وما حدا أحسن من حدا.

استطاع الشبان السوريون بإمرة حسن خلع الصخرة من مكانها. ولكن بعد أن بذلوا جهداً كبيراً جعلهم يتعرقون، مع أن الأيام، أيام شتاء. وعندما طالبوا الأستاذ بالأجرة، أخذ يساومهم من جديد، لعله يستطيع أن يدفع لهم أقل من المبلغ المتفق عليه، إلا أنه عجز عن إنقاص ولو دولار واحد، وعندما قبض حسن المائة دولار صرخ بوجه الأستاذ: يا حقير.. تريد أن تأكل حقنا.. هل لأننا لا سند لنا في هذا البلد.. إن لم تُعدنا إلى بيروت بالطريقة نفسها التي أتينا بها فسترى منا ما لم يخطر لك على بال.. فسخر الأستاذ من حسن ورفاقه، وتمنّع عن إعادتهم من حيث أخذهم، فاقترب منه حسن وكاد يُوجه إليه لكمة على وجهه تفقده عينه. لكن الأستاذ أسرع ورضخ، وجلب لهم الباص الصغير نفسه ليعيدهم إلى جسر الجناح. فاقتسموا المبلغ بالعدل ثم اقتطع كل واحد دولاراً واحداً لشراء مناقيش تقاسموها أيضاً بالعدل.

كانوا منهكين. وكانوا في الوقت نفسه سعداء، فقد أنجزوا عملاً عظيماً.. إزاحة صخرة وزنها خمسة أطنان من مكانها، فقد كان ذلك، بالنسبة إليهم، عملاً عظيماً.. وتباهوا بعضلاتهم التي راح كل واحد منهم ينفخها أكثر من الآخر كما لو أنهم أبطال جمال جسماني يسمح لهم بالمشاركة في مثل تلك الاستعراضات. وبعد الانتهاء من وليمة المناقيش رقصوا الدبكة. ثم ناموا على أحرمتهم الصوفية متلاصقين فقد كان سقف الجسر، يحميهم من المطر، ومن البرد والهواء العاصف عندما يهب.

قال حسن في اليوم التالي إنه عثر على عمل سيستمر فيه أقله خمس سنوات متواصلة. وإنه سيحاول إقناع صاحب العمل، وهو مستثمر كويتي، أن يعملوا معه كلهم، أو أقله بعضهم.

وحسن أصغر من أخيه خالد، وأكثر وسامة وجسداً مشدوداً كالمصارعين أو الملاكمين أو لاعبي كرة القدم، وهي رياضة كان يحبها ويتابع أخبارها محلياً وعربياً وعالمياً.. وكانت له أحلامه مثل أي شاب آخر. فالبنت التي تركها في الضيعة المجاورة، كان قد وعدها أنه سيعود ويطلب يدها ويعيشان بسلام وأمان، بعد أن يقتصد ويجمع ما يسمح له بشراء قطعة من حقل المختار يعملان على إصلاحها ويزرعان فيها ما يكفيهما ويكفي أولادهما بحيث لا يحتاجون إلى الآخرين.

وكان حسن عندما أنهى امتحان البكالوريا بنجاح، لم يرد الحصول على وظيفة مردودها لا يكاد يسد الرمق، بل كان طموحه أكبر من ذلك، فسافر مع أخيه إلى لبنان، الذي سيوفر له ما كان يحلم بتحقيقه.. وهكذا دخل حسن إلى عمله الجديد ممتلئاً بالتفاؤل. واكتشف أن هذا العمل سيكون مضنياً فلم يأبه، مادامت الأجرة لا تقل عن أربعمائة دولار شهرياً، والمسؤول عن العمل يسمح له ولرفاقه بالمبيت في المبنى عندما تشاد الطبقة الأولى، كما أن صاحب المبنى الشيخ الكويتي أمر بتوفير وجبة غداء لكل العاملين من بينهم حسن، وكأنه بذلك قد عثر على كنز.. والخطوة الأولى نحو تحقيق أحلامه.

والمستثمر الكويتي سمح لحسن بإحضار رفاقه، إذ كان بحاجة إلى عدد كبير من العمال كي ينجز العمل، كما خطط له المهندس المسؤول في خلال سنوات.

مرت الأيام هنيئة على حسن وذات يوم وفي الطبقة الرابعة زلت قدمه من على السقالة ليسقط ويرتطم بالأرض. كان لا يزال حياً عندما نقلوه إلى المستشفى، لم يعرف كيف سقط. وأين.. ولكنه أدرك في اللحظة ذاتها التي ارتطم فيها جسمه بالأرض أنه تكسّر تكسيراً.. بل تحطم تماماً وأنه لم يعد قادراً على الحراك. بل أحس أنه يموت وأن أحداً لن يستطيع إنقاذه.. وسيارة الإسعاف تمضي به بسرعة هائلة، لكن سرعتها تتوقف فجأة بسبب زحمة الطريق الموصل إلى المستشفى. كان ذهن حسن تلك اللحظات صافياً ونقياً، إذ أحس أن حلمه انهار فجأة.. وأن ما كان يعد له لمستقبله قد انتهى إلى غير رجعة.. ومع زعيق بوق سيارة الإسعاف الذي لم يتوقف.. تم شق الطريق بصعوبة نحو المستشفى. أحس حسن أن الحياة تنسحب من جسده، لكنه استعاد صور القرية بكل وضوح كأنه يراها على شاشة سينمائية كبيرة، وتصور أنهم سيدفنونه حياً، لأن قلبه ما زال قوياً ولأن جسده الرياضي ما زال يقاوم الأوجاع، ولأنه ما زال قادراً على التحمل.. وتصور أنه سيشفى، ربما سيشفى ليجد نفسه مشلولاً، أو فاقداً إحدى يديه، أو ساقيه.. أو ربما سيصبح أعمى مفقوء العينين..

المهم من ذلك كله أن يعيش لأنه ما زال شاباً وما زال يحلم أن يطول عمره مئة عام ويصبح جداً لأولاد وأحفاد..

بين توقف سيارة الإسعاف وسيرها، كانت أفكار حسن تنتقل من مكان إلى مكان مصراً على عدم الموت.. فلم ينل حقه من الحياة بعد وله فيها الكثير الكثير.. ولذلك كان مصراً على عدم الموت مهما كانت قدرته على التحمل. بل إنه لشدة ثقته بنفسه، كان يتخيل أنه سيشفى ويعود إلى العمل مثابراً وقوياً. فالحلم يجب أن يتحقق. الحلم الجميل.. البنت في القرية المجاورة المربوعة القامة والشعر الأسود الذي تسدله على كتفيها ضفيرتين.. كم داعب شعرها، كم لمسها برقة، كم قبل يديها المتورمتين من عمل الأرض.. كم انحنى أمامها كأنه يصلي.. كانت البنت الريفية خلابة في عقله الناشط الآن.. لم يكن يحلم إلا بغرفتين وقطعة أرض وأن يتزوج هذه البنت العذبة الصوت التي كانت سعيدة به. وتصدح بعيدة تحت شجرة الزيتون بالغناء والميجنا والعتابا فيكاد يجن حسن.

سيعود إليها، ربما على عكاز.. لكنه سيعود وستنجب له صبيين وبنتاً تشبه أمها. وسيشيخان معاً كتفاً بكتف، ويكبر الأولاد ولن يألو جهداً في تعليمهم ليوصلهم إلى أقصى ما تمنى من التعليم.. ولم لا فالتعليم في البلد مجاناً، ومن يتفوق يصل إلى الذرى.. سيراهم في القمم وستظل ابنته قريبة منه حتى يأتي نصيبها من شاب مخلوقة من ضلعه.

شطح خيال حسن وهو على المحفة داخل عربة الإسعاف التي لم تصل بعد إلى طوارىء المستشفى. عربة لا تستطيع شق طريقها إلا بصعوبة بزعيقها الراعب وغضب سائقها والمرافقين. كان حسن يعرف بيروت جيداً، ويعرف ازدحامها الخانق.. وأن السير في الشوارع يزدحم ويتوقف على نار. وكان يعرف لو أنه الآن لم يتعرض إلى هذا الحادث لوصل على قدميه إلى المستشفى قبل أن تصل سيارة الإسعاف، ما زال ذهنه صاحياً إلى الآن، وما زال يتدفق أحلاماً. كان يريد أن يبقى صاحياً.. وإذا استسلم فسيموت وهو لا يريد أن يموت. كانت تنتابه أفكار مجنونة وكان يريد أن يصرخ بالسائق كي يسرع، لكن لم يكن يمتلك صوته.. كأن حبال صوته تقطعت.. وبدأ يفقد صبره، بدأ يحس أنه منتهٍ لا محالة.. وأنه سيموت الآن وفي هذه اللحظة.. لم يعد يستطيع الاستمرار في أحلامه. فهو دائماً كان رجل حلم لأنه كان يعرف أن الواقع قاس وغدار ولا يُحب الناس أمثاله من الفقراء.

الآن بدأ يحس أن روحه تسحب ببطء من جسده، وأن شعوره بالألم بدأ يزول، بل شعر بأن جناحين نبتا في أطرافه وبأنه بدأ يطير إلى الفضاء. غمره إحساس عميق بالسكون.. ها هو يغادر هذه العلبة الخانقة التي اسمها سيارة الإسعاف، لكنه الآن في غير المكان الذي تتألق فيه ساحرته القروية. لقد خرج منها من دون أن ينتبه له المسعف الجالس إلى جانبه. خرج بعباءة بيضاء يرفرف كالطيور، كالفراشات،

وأحس عميقاً بأن جسده يموت، وبأن روحه نجت من هذه الحياة القادرة في أي لحظة على امتصاص سعادته، بل هي الحياة حياة وموت.. وها هو الآن.. وها هو الآن.. وأغمض حسن عينيه لكن أحلامه استمرت في التدفق.

١١

كان موت حسن بهذه الطريقة الفاجعة، صدمة قاسية لخالد، فهو الأخ الأصغر، الذي كان يتمنى أن يتابع دراسته إذا توافرت له الظروف الملائمة، لكن الحاجة كانت سدّاً أمام تحقيق هذا الحلم. شعر خالد بموت أخيه وبفقدانه والده أنه أصبح بلا سند، بل أصبح يتيماً ليس له غير أمه المجنونة التي تشتم أباه صباحاً ومساء.. ولا أحد يعرف مصير الأب وإلى أين ذهب. كل ما أربكه ماذا سيفعل بجثة أخيه.. وكيف يحملها إلى قريته لتدفن هناك. وكانت ملاحقة شهادة الوفاة أصعب ما مر به في حياته، لكن البيك صاحب البناية ووالد حبيبته الذي شاركه في حزنه، كلف محاميه متابعة القضية في دوائر وزارة الداخلية، فوفّر على خالد عناء ما كان ليعرف كيف سينتهي منه، ومع صدور القرار بتسليم الجثة، وضعها بمساعدة رفاقه وبيدين مرتجفتين في نعش خشبي عادي وهو يلقي عليه نظرة الوداع ويبكي بحرقة، متمنياً إذا مات أن يموت في وطنه وفي قريته بالذات ليعفي من حوله

من أي مشقة أو حيرة بسبب دفن الجثة. حمل النعش على ظهر سيارة أجرة ومضت به إلى قريته كفر ساليم القريبة من إدلب، فاستقبلت الأم موت ابنها بالعويل وبالدعاء على لبنان وسوريا والعالم كله بالخراب. إنه ابنها فلذة كبدها، فها هي أمام خسارة أكبر من خسارتها زوجها الخائن الهارب بمال أولاده إلى حلب ليتزوج هناك. ولا يعود إليها أبداً متهمة الرجال بأنهم ما لهم أمان. مثل ما يقول المثل: «يا مأمنة بالرجال مثل المي بالغربال».. هكذا كانت أم خالد تروي لجاراتها الفلاحات ألا يأمن الرجال.. الرجال كلهم كلاب يشمون من هنا إلى حلب رائحة الأنثى فتتدلى ألسنتهم ويلهثون.

ولكن في غمرة بكائها المصيبتين، وضع خالد حزمة من المال بين يديها تعويضاً من صاحب البناية الشيخ الكويتي حتى خفت صوتها وهي تدعو للشيخ الكويتي بطول العمر. إلا أن حزنها ظل طويلاً يرسخ في أعماقها كشجرة من الحزن. وبعد عودة خالد إلى بيروت، أصبحت زيارة قبر ابنها سلواها الوحيدة. ونسيت زوجها الخائن ولم تعد تذكره. وإذا تذكرته في مناسبة ما انهالت عليه بالشتائم وكسر الرقبة وأن يمرض بالسل ويموت بالسرطان. وبقطع لسانه الثرثار الذي كان يتعبها آناء الليل وأطراف النهار. لكن أبا خالد لم يكن يسمع هذه الشتائم في سمائه العليا، لقد دخل رحاب الله مظلوماً، ومنتزعاً لحمه عن عظمه. وما كان المسكين يتصور أن حياته ستنتهي هذه النهاية المفجعة. فقد كان مشتاقاً إلى زوجته التي

أعطته نعمة الأولاد أجمل نعم الله كما كان يردد أمامها فتتظاهر أنها لا تسمع، وكان أبو خالد يتمنى أن يجيء يوم تجتمع الأسرة كلها تحت سقف واحد وبسعادة وارفة تخيّم على هذا البيت المتواضع.. لكن هل صحيح أن الأموات يلتقون في العالم الآخر.. هكذا سمع خالد من الشيخ فجاءت كلماته برداً وسلاماً على فؤاده الحزين.. فها هو أخوه حسن يموت محطم الأضلاع مكسوراً. فلا أحلام ولا مستقبل ولا أمان. كانت الحياة مقبولة بما فيها من مرٍ وحلو.

عندما عاد خالد إلى بيروت، أول من خفف من حزنه، سلمى التي اقتربت منه معزية، صافحته وقالت له بأسى: العوض بسلامتك يا خالد، والله قلبي تقطع من الحزن. حسن أخوك عرفته في لقاءات عابرة في مدخل البناية، كان شاباً لطيفاً وخجولاً.. رحمه الله. ثم كررت على مسمعه: العوض بسلامتك يا خالد.. العوض بسلامتك.. دير بالك على حالك. وتساءل خالد في هذه اللحظة: أكان موت حسن مفتاحاً لقلب سلمى التي كانت منذ تسلمه عمله كناطور تتجاهله ولا تهتم به، بل لا تلتفت إليه، على الرغم من كل تصرفاته الخجولة للفت نظرها، من فتح باب المصعد لها دخولاً وخروجاً، ومن غسل سيارتها في كراج البناية، التي كان يشكو إليها، إلى هذه الآلة الصامتة حبه العميق لصاحبتها، يتلمّس زجاجها وأبوابها، كما لو أنه يتلمس صاحبتها، تلك الحبيبة الجميلة، يستنشق عطرها وهي غادية ورائحة. لكن مقتل أخيه بهذه الصورة البشعة، كسر أحلامه،

ولم يعد يستطيع أن يمزج حزنه بفرح لقائها، الأخ أغلى الأخ شقيق من اللحم والدم نفسيهما. لا تقدر كل قصص الحب التي يتابعها عادة، في المسلسلات السورية والمصرية، ولا تلك القصص الغرامية التي كان يسمعها من رفاقه أن تخفف عنه هذا الحزن. رفاقه الذين يعشقون نساء من غير طبقتهم ويموتون عشقاً من أجل أن يسمعوا كلمة حب من فتاة، كهذه مثلاً التي أحبها نادر حباً شغله عن كل شيء، وما كانت تلتفت نحوه، فاختار أقسى طريقة للفت نظرها، أن رمى نفسه تحت عجلات سيارتها التي كسرت أضلاعه، وبيديها أخذته إلى المستشفى واعتنت به طوال رقوده فيها، ولكن ذلك أكسبه عاهة يصعب الشفاء منها، إذ تحطمت ركبته اليسرى وانسحقت بما لم يستطع الطب أن يجد لها حلاً، فأصبح يعرج متكئاً على عصا.. هذه الفتاة.. بما في قلبها من حنان، لم تتركه لمصيره، وأدركت عمق حبه لها، لكن كان صعباً عليها أن تبادله هذه العواطف، لأنه لم يكن سوى هذا السوري الذي جاء من أجل لقمة العيش والعمل في مطعم صغير للفلافل، وهي الفلافل التي جعلته يتعرف إلى هذا الوجه الذي لا يشبه القمر فقط، بل الشمس والنجوم والنور الذي يسطع من عينيها الخضراوين ليس حولها، بل في قلبه وأعماقه. أما كان يعرف أنه من غير هذا المكان الذي تتألق فيه هذه الساحرة، إذ كانت بين حين وآخر تقترب من هذا المطعم الصغير وتطلب منه سندويشة فلافل قبل ذهابها إلى الجامعة القريبة من مكان عمله. سحرته منذ النظرة الأولى، حتى باتت سندويشة الفلافل التي يوضبها

لها على مهل أغلى من خاتم ذهب، فهذه السندويشة التي سوف تأكلها في إحدى استراحات الجامعة هي من صنع يديه. لكن، ويا للأسف، هل تخطر ببالها اليد التي وضبتها لها ووضعت فيها كل ما تجعلها تستطيبها أكثر من أي سندويشة أخرى في مطعم آخر؟

كان تفكيره بهذه الطريقة المجنونة التي كان من الممكن أن يدفع حياته ثمناً لها كوسيلة ليلفت نظرها وتهتم به. وصل إلى غايته، ولكن ها هو الآن يعاني عاهة دائمة فلا يمشي إلا على عكاز. ليس على عكاز فقط، بل على عكاز قلبه يشكو إليه الخيبة، وليس بأحلامه ما شاءت أحلامه أن تمشي صعوداً أو هبوطاً، على سطح البحر الأزرق وقرب ينابيع الأنهار فستظل دائماً أحلاماً لا تتحقق

يقول له خالد: لا تنظر إلى فوق يا نادر.. وماذا أعطاك هذا الحب غير هذه العاهة، التي لن تشفى منها أبداً.. ضع عينيك جيداً في مقلاة الفلافل. ولكن انتبه، إياك أن تحرق أصابعك مرة أخرى، فنحن لم نخلق لنعشق، بل لنكافح من أجل الرغيف وعندما نفقد العمل نجوع.. نحن يا صاحبي مكسورو الخاطر.. الحمد الله إن هذا البلد الجميل هو الذي يؤوينا. ونلتصق به كما يلتصق اللحم بالعظم. نجيء إلى هنا محنيي الرؤوس أذلاء وكما جئنا نذهب.

امش الحائط الحائط.. ولتطلب السترة من الله يا صديقي.

١٢

فوجيء أبو محمد باختفاء محمد. غادر ليلاً من دون أن يخبر أحداً. وقع الأبوان في حيرة، فمعظم ملابسه التي جاء بها من مصر، ما زالت في حقيبته الكبيرة، أما حقيبته الصغيرة التي يشدها إلى كتفه، فلم تكن موجودة، وبعد التدقيق، تبين لهما أن محمداً لم يحمل معه إلا أشياء قليلة تخصه.

كيف ذهب من دون أن يخبرهما؟ هذا ما جعل الأبوين يتوجسان، فلا بد أن طارئاً ما جعله يذهب على جناح السرعة من دون أن يقول لهما بخاطركما. كل شيء خطر ببالهما، ربما ذهب إلى حلب، المدينة التي يحبها ويتمنى أن يعمل طبيباً في إحدى مستشفياتها، لعل له أصدقاء هناك، فهما يعرفان أن له أصدقاء كثراً درس معهم في الجامعة. ربما اختار الذهاب باكراً عندما يكون الطقس أقل حرارة ونسائم الصباح تتهادى مع فراشات الحقول المجاورة، وبرفقة

أسراب الطيور وزقزقة العصافير المتناوبة بعضها مع بعض على أغصان الأشجار العالية. وفعلاً كان يحلو لمحمد الصحو باكراً كي يقوم يومياً بتلك النزهة الصباحية سواء أكان الفصل صيفاً أم شتاء. تلك هي عادته كما يعرف الوالدان. وربما، هو الآن في هذه النزهة، فلم يزعجهما وتركهما نائمين.

هذا كل ما خطر في بال الأبوين، ولكن لماذا لم يعلمهما بوجهته؟

مر يوم أو يومان، وربما أسبوع وهما حائران، ثم كبُر قلقهما فلا حس ولا خبر.

هل ذهب إلى الشام؟ هناك له أصدقاء أيضاً. إلى أين إذاً؟ وهو المعروف عنه أنه كان يخبر والديه بكل صغيرة وكبيرة، ولا يخبىء عنهما حتى همومه وأسراره وها هو قد أصبح شاباً قد الدنيا، وقريباً، قريباً جداً سوف يفرحان به وبعروسه المصرية وبأحفاد يخففون الحزن الرابض في أعماقهما كجذع شجرة زيتون معمّرة.. حزن ما كانا يستطيعان إخفاءه، لا بين نفسيهما ولا عن الجيران الفلاحين الذين كانوا يدركون قسوة الحدث الجلل. ابنتان في عمر الورد، حالمتان بمستقبل زاهر جميل، ما بين الأرض عندما يعود المطر... وبين من يسترهما بسقف بيت وتأسيس أسرة، هذه الأحلام انكسرت، ليس بمقتلهما فقط، بل بالأبوين أيضاً. وبمحمد تحديداً.

ذلك الحزن الذي خيّم على البيت الطيني الصغير، أمرض الشيخين وعشش في قلبيهما كاختناق الشرايين التي بانت من تحت جلدهما الهش وبرزت عروقهما واضحة للعين المجردة، فبدآ يشعران بأنهما يموتان ببطء. كانا يبكيان من دون توقف. كل شيء في غرفتي هذا البيت كان فاطمة وعائشة، وها هما الآن ليستا موجودتين، إنما هناك في سفح جبل الشيخ تتعانقان في حفرة ضيقة. هذا ما لم يكن يخطر لهما على بال.

أتراها هي إرادة الله..؟ فبين ركعة وسجود كان أبو محمد يسأل الله: أهذه هي عدالتك يا الله؟. أستغفر الله.. أستغفر الله. كانت أم محمد تسمع هذيان زوجها مع صلاة الصباح فتدمع ببكاء كتيم. وكانت هي أيضاً تسأل نفسها أسئلة متوالية: أهي إرادة الله أن تكبرا وتصبحا نجمتين مضيئتين؟ وعلى قدر البنات يجيء الخير، حيث الأحلام تكبر كلما صارتا أكثر شباباً ورقة وشفافية.

هل كان يخطر في بال الأب أو الأم أو أهل الضيعة، وبغفلة من الزمان، أن يفقد هذا البيت، هذا الحقل الصغير، هذه البلدة الساكنة سكون الليل، هاتين الفتاتين اللتين غابتا تحت الثرى اغتصاباً وقتلاً ضحيتي جريمة بشعة. كأن مرتكبيها وحوش وليسوا من بني آدم. وحوش لا ضمائر لها، تزأر وتصرخ وتفتح أشداقها عن أسنان كالمنشار سرعان ما انغرست في جسدي هاتين الفتاتين تمزقهما بشراهة..

ها هو ابن البيك أصبح طليقاً بعد سجن ستة أشهر. خرج بعدها

بكفالة مالية قدرها مائة مليون ليرة ومحاطاً بحب أبيه وأمه وأخته رغداء التي كانت فاتنة الجامعة الأميركية، يحوم حولها الشباب كذباب حول قرص العسل، لعلها تعلق بصنارة أحدهم فيجمع الثروة والجمال في آن.

ابن البيك أصبح في واد آخر، يحمل المؤونة والمال إلى رفاقه في السجن واعداً إياهم بالانفراج قريباً. فالأب بما يملك من نفوذ سيسعى، بل هو ساع فعلاً لإخراجهم من وراء القضبان، خصوصاً وأن لا أحد يسأل عن حقوق القتيلتين. وما من أب أو أم بقادرين على دفع مئات الألوف من الدولارات لمحام شاطر يحصل لهما تعويضاً مالياً كبيراً، ولكن أي تعويض وفاطمة وعائشة لا تعوّضان بمال الملوك والسلاطين فكيف بمال سياسي يستطيع بين أخذ ورد أن يضيّع الحقوق ويدفن الجريمة في دفاتر النسيان؟

وحرصاً على سمعة البيك، أصرّ على إبعاد ابنه عن أولاد الشارع، بل أولاد الشر لئلا يتورط في جريمة مشابهة فلا يستطيع بعد ذلك إنقاذه، فإذا سلمت الجرة أول مرة فلن تسلم ثاني مرة.. والأب على ما له من موقع سياسي في البلد، وطموحه المستمر في الوصول إلى أعلى المراتب. فهو بحاجة إلى سمعة طيبة نظيفة لا يعكرها معكّر ولا يعكرها ابن ضال ولا يسيء إلى سمعته أحد.

كان الحل بالنسبة إلى البيك أن يُعجّل بزواج ابنه، كي يحصنه من الوقوع ثانية في ارتكاب جريمة أخرى. كما من المفترض أن

يكون وارثه في المعترك السياسي الذي لا يهدأ. والتفاهم بين الأسر الكبيرة في لبنان وسيلة للنفوذ السياسي ووسيلة للإمساك بالمجد من طرفيه. فها هي سناء ابنة زعيم أحد الأزقة الكبيرة في المدينة قد أصبحت ثمرة ناضجة حان قطافها، فهي جميلة بكل المقاييس، راقية، ذكية، وتنتمي إلى عائلة كبيرة لها وزنها في الانتخابات. ومصاهرة من هذا النوع توفّر للبيك، أقله، ألفي صوت يدعمان ترشيحه في الانتخابات المقبلة. وهو في كل مرة، يلعب بالحسابات الانتخابية والتحالفات المعروفة، فيدخل قبة البرلمان بكل ارتياح، والانتخابات الجديدة باتت على الأبواب. فليكن عرس ابنه مناسبة لجمع أكبر عدد ممكن من ناخبي منطقته. وأين؟ حول موائد فاخرة في فندق فينيسيا أشهر فنادق بيروت وأفخم ما فيها. والبيك قادر على أن يجمع حول مائدة عرس ابنه خمسة آلاف شخص ممن هم مفاتيح الانتخابات في مناطقهم، فيصطاد عصفورين بحجر واحد. بل لماذا لا يقول خمسة آلاف عصفور منتخب حول طاولة العشاء وابنه يرفل بثوب العرس السموكن؟..

هكذا قام العرس بطنة ورنة. وفي أكبر صالات الفندق الفخم.. كان الضيوف يحضرون تباعاً تسبقهم باقات الورد البيضاء من أغلى أنواع الزهور. عرس برزت فيه أجمل أزياء النساء بفساتينهن الطويلة التي يجررنها على سجاد القاعة الفخم، غير آبهة كل واحدة منهن لما يحدث لذيل الفستان وهو يتمسح بالأرض المغبّرة من أحذية

الرجال. عرس سبقته أخبار الصحف في زواياها الاجتماعية: «اقتران نجل معالي البيك بابنة رجل الأعمال المعروف في المدينة». فأكثر من جاء من غير الضيوف، هم مصورو أقنية التلفزيون والصحافة الأسبوعية واليومية. وراح يزهو، كل بما على جسمه من أزياء تحمل في طياتها الذهب والماس.. ولا غرو فحفلة من هذا النوع تستحق كل هذه المظاهر، وأن يعرض كل واحد من هؤلاء الحاضرين ما عنده، فإذا بهذا العرس عرض سينمائي مسرحي لهذه الطبقة من علية القوم وأرستقراطيتهم. في الحقيقة، يخيّل إلى المتفرج أن فساتين النساء أكثر منهن، وأن كل واحدة ترتدي أكثر من فستان مما يدوخ المتفرج العادي.. فمن أين هذا المال؟ ومن أين هذا البذخ؟ عطور، ومكياج، ونعمة لحلاقي النساء الذين تباروا في أفخم تسريحة شعر. حيث كل واحدة راحت تسأل الثانية عن هذا الحلاق أو ذاك، أو مصممة هذا الصالون وفي أي شارع يقع، لكي تذهب إليه في حفلة أخرى، لا تقل روعة عن هذه الحفلة.

بدأ الضيوف يتوافدون زرافات ووحداناً من كل حدب وصوب، بسيارات مرسيدس من أغلى وأحدث الأنواع، حتى ليظن المرء أنه في برلين وليس في بيروت. سيارات يسرع موظفو الفندق في أخذها من أصحابها وركنها في القبو تاركين معهم أرقاماً كي يعودوا بها بعد انتهاء الاحتفال.

والغريب أن عدد النساء المتبرجات كان أكبر من عدد الرجال.

فهن أكثر الناس، رغبة في حضور مثل هذه الأعراس الفخمة بصورة ما تنشرها لهن الصحافة هنا وهناك وحتى خارج لبنان.

ولم يكتف البيك بهذا الاحتفال الفخم. بل استقدم مطربة معروفة كانت تغني في زاوية الصالة بعض أغانٍ وهي تعزف على البيانو: حبيتك بالصيف.. حبيتك بالشتي.

ثم، أخيراً، جاء العريس والعروس بسيارة ليموزين بيضاء ليس فيها سوى ابن البيك وتلك الشابة الحسناء يفتح لهما مدير التشريفات على مهل، وكلاهما متأبط ذراع الآخر. هي في ثوب عرسها الأبيض الفضفاض وهو في السموكن الأسود. وسرعان ما ظهرت سيارة ليموزين أخرى ليهبط منها ستة أولاد صغار حملوا ثوب العروس من الخلف الذي بدا طوله أكثر من مترين. رفعوه قليلاً كي لا يلامس الأرض. ودخل هؤلاء معاً وسط الأهازيج والموسيقى من رجال في لباسهم الشعبي وهم يهزجون بأغانيهم على قرع الطبل وعزف المزمار.

انشق الضيوف نصفين ليمر العروسان وهما في ذروة سعادتهما، والتصفيق الخفيف من الجانبين، وهمس النساء ما إذا كانت العروس أجمل من غيرها من حسناوات الحضور.. وتباهي هذا الشاب الوسيم ابن البيك أمام الجميع، ممسكاً بيد حسنائه واعداً نفسه بأجمل ليلة حميمة في سويت في أعلى طابق في الفندق، قبل أن يرحلا في اليوم التالي لقضاء شهر عسل في باريس قد يطول. فالمال موجود، هو المال حيث هو الله، وله حضوره في أي بلد في العالم. وما أن

جلسا على عرشهما، حتى اقترب عدد من النساء يقدمن للعروس ما لم تستطع حمله من الجواهر والعقود وخواتم الماس.. وكان والدا العروسين يتقبلان التهاني وإلى جانبهما وزراء ونواب ورجال أعمال، وجميعهم يتهامسون بكلمات قليلة، هذا الشبل من ذاك الفارس.

ولم يعرف أحد أمام المفاجأة المذهلة التي جرت بغمضة عين، كيف شق شاب الجميع بكتفيه، حتى صار وجهاً لوجه أمام العريس وصاح به: خذ يا كلب.. وأطلق عليه ست رصاصات فخرّ ابن البيك صريعاً مضرّجاً بدمه.

١٣

من هو القاتل؟

كان محمد، قد خطط، ونفّذ. سافر إلى حمص، ثم إلى تلكلخ، ليعبر منها إلى شمال لبنان، وإلى عرسال بالذات، حيث يباع السلاح علناً، وليتأكد، اتصل بصديق له لبناني يعيش في المنطقة. فقال له تعال، لا تخف، كل شيء جاهز.

اتخذ قراره بقتل ابن البيك عن سابق تصور وتصميم، وعندما عرف صديقه نيته قتل إنسان ثأراً، حاول منعه. قال له اترك لي الأمر وأنا أخلصك منه. هنا، ما أكثر من يقتلون ولو بقشرة بصلة.. اترك لي الأمر يا محمد، وعد إلى بلدك، وسوف تقرأ في الصحف نبأ قتل ذلك الأزعر، فترتاح، وتذهب إلى حياتك.. ومستقبلك لكن محمداً أبى ذلك مذكراً صاحبه بقول الشاعر:

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يُـــراقَ على جوانبه الـــدمُ

وكان لا بد لهذا الصديق، أخيراً، من تلبية طلب محمد الحصول على مسدس بست طلقات، وعلّمه كيف يستعمله. فالمسدس جديد، هو المسدس نفسه على استعداد أن يلبي رغبة محمد في الثأر والانتقام. فلن يخذله. ومع أن محمداً لم يمسك بيده مسدساً طوال عمره، لكنه، ما أن وضعه في وسطه حتى شعر بالقوة والثقة بالنفس.. يا للغة السلاح عندما تقف هنا!.

صديق محمد أخذه إلى الخلاء خارج البلدة. وعلمه كيف يستعمل المسدس وكيف يلقّمه وكيف يُصوّب عن بعد.. وضع له على جذع شجرة قطعة من الكرتون المقوى ودائرة في وسطها، وقال له: لن أتركك حتى تصيب قلب الدائرة، عندئذ تكون قد أصبحت.. وسكت الصديق لحظة وهو يتأمل محمداً وفي قلبه خوف عليه.. ثم تابع: أصبحت قاتلاً.

أطلق محمد أكثر من عشرين رصاصة إلى أن أصاب الهدف.. وكان يتخيّل بين كل طلقة وطلقة وجه ابن البيك الذي سيسعى إلى التعرف إليه قبل أن ينفذ خطته. قال محمد لصديقه: هل ست رصاصات كافية لقتل إنسان؟ أجاب الصديق: إذا أحسنت استعماله تكفي رصاصة واحدة إلى الرأس أو إلى القلب مباشرة.. المهم أن تحسن التصويب..

وصل محمد إلى لبنان من تلك المسارب المتداخلة بين حدود البلدين، بسهولة تامة. واختلط بالسكان فهو ليس غريباً عنهم وليسوا غرباء عنه. فقد جاء مراراً لزيارة صديقه في عرسال، وعاش بين هؤلاء الرجال، الذين يرون السلاح زينة الرجال. وبالسلاح وحده تمشي مع الحياة بكل عنفوانك، فلا تخاف أحداً. لا الدولة، ولا الزعماء، ولا الأعداء.

ولم يأبه له أحد وهو يتمشى في أزقة عرسال، هي البلدة الخارجة على سلطة الدولة. الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود. فهو مثل أهلها وفقير مثل بقية الفقراء.

ألقى بأحلامه وراء ظهره، وقرر ألا يذهب دم أختيه هدراً.. ويجب، كما قال لصديقه، أن ينفذ بنفسه العقاب. وليكن القتل في مقابل القتل، العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم.. فكم كان البيك وابنه أشد ظلماً لأختيه الشهيدتين.. فإذا كان بقية رفاق ابن البيك سجناء الآن، فهذا الابن هو القاتل الأول والمتآمر الأول. وهو الآن طليق بحماية أبيه الذي لم يرحم أبويه وأختيه الذين استغلهم خدماً عنده. وليس أُجراء فعليين فقط يقطفون ثمار حقوله ويضعونها في علب من الكرتون عليها ماركة تدل على أنها من حقول البيك. وأنها من الصنف الأول، قطفتها أيدٍ طاهرة من أجل لقمة العيش، كان أصحابها خدماً داخل القصر يغسلون حتى ملابس أسرته الداخلية.

لم يكن هذا البيك يرحم أختيه، فبعد القطاف كل يوم تدخلان

القصر لتنظيفه، فهو لم يعتمد قط على خدمه الأثيوبيين لأن المرأة المسلمة، كما كان يتباهى أمام ضيوفه، هي التي تعرف كيف تجعل القصر طهوراً نقياً. كأنه كان يدرك في أعماقه، أن هذا القصر ملطخ بالفساد والخطايا والرذيلة والنفاق والكذب، فيدعو الفتاتين لتطهيره من أدرانه.. يعرف معالي البيك ذلك. وحتى المقربون يعرفون ذلك. فالسوس منه وفيه. فإن كان البيك قد استطاع أن يُجمّل صورته بأنه من أنقى السياسيين وأشرفهم.. هذا ظاهرياً، أما في الحقيقة، فلم يكن كذلك البتة. فها هي ابنته تتعاطى المخدرات. ولا تكاد تدخل قصر أبيها إلا والفجر يهزم ظلام الليل.

كان معالي البيك على خلاف دائم مع ولديه اللذين، مهما فعل، لم يحسن تربيتهما. ولم يكن يخطر في باله أو يفكر أن النبتة السيئة لا تعطي إلا ثمراً سيئاً يسقط على الأرض قبل نضجه. فكان على شجار دائم مع ابنته الطالبة الجامعية التي لما تتخرج إلى الآن، والتي، غالباً تعود إلى البيت شبه غائبة عن الوعي. مدمنة مخدّرات شتى. فلا تأبه لتأنيب أبيها ولا لصراخ أمها أن تكف عن هذه الرذالة، فيزداد تمردها وشراستها في مواجهة أبويها. أما ابنه المهندس الزراعي، فلم يكتف باغتصاب البنتين السوريتين، بل شارك في قتلهما من دون رحمة. وفي ظنه أنه سينجو من إثمه، لكن القدر كان له بالمرصاد، فثمة دائماً جرائم ترتكب ولا يحاسب أصحابها على ما أثمت أيديهم.. ولكن سرعان ما يعاقبهم القدر عقاباً شديداً.

كان محمد في أثناء دراسته يقرأ الصحافة اللبنانية قبل الصحافة المصرية، التي كانت تفضح ما يرتكب في هذا البلد الصغير من جرائم ومن تعديات ومن ظلم، خصوصاً على هؤلاء السوريين الذين لم تحمهم دولتهم من العوز. فجاءوا مسلوبي الكرامة ليعملوا ولو من أجل رغيف خبز. كان محمد يعرف كل شيء، يعرف هؤلاء المساكين من العمال السوريين، الذين غالبيتهم من القرى المحيطة بالمدن الكبيرة. يجيئون للعمل في لبنان، في مهن من أقسى المهن في بناء العمارات الشاهقة، وخدماً في المطاعم والمقاهي أو باعة بضائع رخيصة في الشوارع، ولو من أجل ألف ليرة ترد عنهم الجوع.

لم يكن محمد يريد أن يظلم أحداً، فكان يرى دائماً أن زهرة تنبت على سطح ماء آسن، فليس الجميع سواسية. ولكن بعد اغتصاب أختيه وقتلهما بهذه البشاعة، أصبح لبنان كله، من وجهة نظره شريكاً في هذه الجريمة التي يندى لها الجبين خجلاً. وعليه الآن، بلا تردّد أن يثأر لهما مهما كان الثمن. وطز على المستقبل وطز على الزواج من حبيبته المصرية.

كان محمد يعرف أي مصير ينتظره إذا ما نفذ خطته. فليكن، ما قيمة الحياة إذا لم تستطع أن تأخذ حقك بيدك. لا أحد لا الدولة ولا الشرطة، ولا المؤسسات أو التجمعات قادرة أن على نيل حقك.. ويتلمّس المسدس في وسطه؛ إلا أنت، أنت وحدك يجب أن تعاقب المجرم، وهو يعرف أن هناك مظلومين في السجون اللبنانية، ومنهم

السوريون، لا أحد يسأل عنهم ولا من يدافع عنهم.. أما الأثرياء فيقدمون على جرائم سرعان ما يمحوها من سجلات الدولة المال. وبسخاء ما تستحق هذه الجرائم من سخاء، فالمال أصلاً، هو مال فاسد، لفاسدين في المناصب العليا والسفلى. والصحافة وأقنية التلفزيون تفضح هذه الممارسات يومياً، في نشرات أخبارها وفي برامجها. ولكن، على من تقرأ مزاميرك يا داوود؟ كان محمد يعرف ذلك كله، فقرر أن يأخذ حق أختيه الشهيدتين بيده.. بيده هو بالذات، دخل أحد الدهاليز الذي لا ينتبه له فيه أحد، وهيّأ مسدسه. وأيقن أنه لن يخونه. فالمسدس نفسه، لو كان له فم لشجّع محمد على الانتقام والثأر. بل شجعه أن لا يتراجع.. في هذه اللحظة الحرجة، لم يعد محمد يفكر في أي شيء إلا في ما صمم عليه. لم يفكر لا في أبويه ولا في حبيبته المصرية ولا في دراسة الطب. إلا أن يقتل هذا المجرم في ليلة عرسه. وهو يدعو من قلب مؤمن أن لا تخونه يده في اللحظة الأخيرة، فهو ليس من طباع المجرمين والقتلة. ولكن الآن الآن بالذات، يجب أن يكون قاتلاً لا يرتجف. أمسك المسدس بيده اليسرى. وانتبه أن يده ترتجف.. نقله إلى اليد الأخرى. هي أيضاً ترتجف.. بل انتبه أنه كله يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه. ضرب قبضته بالجدار حتى أدماها، وتسلل إلى الداخل.. إلى حيث الهرج والمرج والصراخ والرقص والغناء.. لم يعد يرى شيئاً إلا ذلك الكلب يسقط أمام عينيه قبل أن يعرف من هو قاتله. فليس مهماً من القاتل ومن القتيل.. المهم أن فاطمة وعائشة ستزغردان في قبريهما وأن

الاقتصاص أصبح قاب قوسين أو أدنى. غير أنه ما أن أطلق الرصاص ورأى بأم عينيه المجرم يتهاوى وقد لطّخ دمه ثيابه وثياب العروس والذين كانوا قريباً منهما، حتى ديس بالأقدام وتلقى الضربات من حرس البيك وقبضاياته. ولم يقاوم.. هرب الناس، وداس بعضهم بعضاً. بل ثمة من مات تحت الأقدام الهاربة من وقع المفاجأة ودب هرج ومرج وكل حاضر يريد أن ينجو بجلده غير آبه للآخرين. ما وفّر لقبضايات البيك أن ينهالوا على محمد بكل ما أوتوا من قوة دعساً وضرباً بأعقاب المسدسات التي يحملونها.

كان محمد قد أُدمي تماماً، وانهارت قواه واستسلم لمصيره. في هذه اللحظات تقدم معالي البيك يستشيط غضباً ويسأل محمداً صارخاً فيه.. من أنت يا كلب؟ لم يرد محمد. فليكن سؤالاً مبهماً لهذا الأب، ليكن غموضاً وخوفاً دائمين. فربما هناك أكثر من محمد ينوي شراً بالبيك.. فليأخذ حذره. وليعش بهذا الخوف ما دام على قيد الحياة. كرر البيك السؤال: من أرسلك يا كلب؟

حدق محمد مباشرة إلى وجه البيك متشفياً، وبكثير من القوة، حتى شعر البيك بأن هذا الرجل، لما في عينيه من حقد، يكاد حقده هو الذي يقتله أيضاً. شعر البيك في هذه اللحظات بالخوف الشديد، ومع أن محمداً قد أصبح عاجزاً تماماً عن القيام بأي حركة، لكن البيك سرعان ما سحب مسدسه من وسطه وأمطر محمداً بكل ما فيه من رصاصات وهو يردد بغضب: ولك قل لي مين بعتك يا كلب؟.

مين بعتك؟. إلا أن عيني محمد المفتوحتين على آخرهما، ظلتا تحدقان إلى وجه البيك بما يشبه التحدي، إلى أن أغمضهما مرتاحاً، وأن أختيه أيضاً، سترتاحان هما الأخريان في قبريهما وتنامان بسلام. فإن الله أنذر القاتل بالقتل.

ولكن ما كان أقسى وأدهى ألماً على البيك هي ابنته. ابنته أيضاً التي تصوّر أنها ستكون عوناً له بعد مقتل ابنه. إذ عثر عليها جثة هامدة في حديقة الجامعة الأميركية، بل أسفل الحديقة، التي كان أساتذة الجامعة وإداريوها غالباً ما يعثرون بين الحين والآخر، على أجنة ملفوفة بخرق ومرمية على أطراف الأشجار. وهي حكاية يعرفها الجميع.

عثروا على جثة بنت البيك هامدة بعد تناولها جرعة زائدة، كما جاء في تقرير الطبيب الشرعي، الذي قال إنه لم يمض على موتها سوى عشر ساعات. ولو كان إلى جانبها أحد.. لكان من الممكن إنقاذها.

وإزاء هذه الصدمة تلو الصدمة انهارت أعصاب البيك، ونقل إلى المستشفى حيث تم علاجه. إلا أنه لم يعد كما كان. حدث انشراخ في شخصيته. وأصبح يرتجف حيثما يكون، خائفاً من محمد آخر أن يغتاله، كان مرتعباً على الدوام يتلفت يساراً ويميناً وهو يخشى من رصاصة تناله فجأة ولا يستطيع ردها. فأدمن الكحول وأصبح كل شيء بالنسبة إليه كريهاً، وبات الناس من حوله كلهم أعداء ينتظرون

الخلاص منه حتى أهل بيته. فصار يعتدي عليهم من دون سبب. تحوّل إلى وحش، وبدت له الحياة ظلاماً لا نور فيها. عاف السياسة وأهل السياسة، وفقد طموحه السياسي من الأساس. وبات جميع السياسيين بالنسبة إليه أعداء يضمرون له الشر، حتى حلفاؤه باتوا يتحاشونه. أما والد العروس مفتاحه الانتخابي، فقد علم بعد ذلك بحقيقة ابنه. وماذا فعل بالفتاتين السوريتين. وهو سر ظل البيك يخفيه، مدّعياً أن سبب سجن ابنه أنه دهس بسيارته طفلاً. فحمد الله أن نجت ابنته من هذا الوحش الذي ما كان ليعامل عروسه لاحقاً إلا بقسوة والحمد لله أنها نجت من براثنه. حتى العروس وجدت أن قتل عريسها على يدي محمد كأنه القدر لينقذها منه، وكانت بأمر من أبيها قد أعادت إلى البيك وإلى جميع المهنئين كل تلك الهدايا التي منحوها إياها إكراماً لعرسها. فلا تريد أن تتدنس بهذه المجوهرات أو بهدايا العريس المجرم. شكرت الله أن أنقذها في اللحظة المناسبة من مستقبل أسود مع مجرم قاتل. وآثرت العروس أن تعود إلى ذلك الشاب المتواضع ورفيقها في الجامعة، الذي طالما أشعرها بحبه لها وبتمنياته أن تكون رفيقة دربه وشريكة حياته. رفضته لأنه فقير، والآن أدركت أي شاب خسرت وما عليها إلا السعي إلى ترميم العلاقة وإعادتها إلى حرارتها لعل وعسى.

١٤

منطقة الجميزة، بشوارعها الضيقة وأزقتها ومطاعمها وأنديتها ليست من طبيعة بيروت شرقها وغربها. ولا في أي مكان آخر من لبنان، والعالم العربي، حتى والعالم.. وصل الليل بالنهار والنهار بالليل، وسهر متصل ليلة إلى أخرى. ضجيج ورقص ومخدرات ونساء من كل لون. صبايا يتصيدن الشبان ليلوهن ويرقصن من دون أن تمتد يد واحدة إلى جزدانها وتدفع ما عليها، هي جمهرة من جميلات يضحكن على هؤلاء الذين في النهاية، لا ينالون منهن شيئاً، مع أنهم أفرغوا ما في جيوبهم من مال. هذا جانب، وجانب آخر سيدات متزوجات تنتظر الواحدة منهن أن تصطاد زوجها زبوناً «محرزاً»، غالباً ما يكون من أهل الخليج الذين يملأون هذا المكان وجيوبهم عامرة بالمال. خليجيون تحديداً. يتركون زوجاتهم في فنادق من خمس نجوم ويجيئون إلى الجميزة التي أصبحت شهرتها تتفوق على

شهرة أي مكان آخر في لبنان. لا جونيه ولا الكازينو ولا السوليدير ولا أي مكان سري أو علني..

زحام وغناء وموسيقى من كل نوع. ولكن، هنا، أيضاً، يباع السوريون بأقسى ما يمكن من البيع. رجل ستيني يصطحب بناته الثلاث ليوفر مالاً لعلاج زوجته أم هؤلاء الصبايا التي تعاني مرضاً عضالاً. ثلاث صبايا يرضخن لمشيئة الوالد خصوصاً، عندما يعرفن أن ما يحصلن عليه من مال قد يمد من عمر أمهن المسكينة القابعة في ضيعتها قرب مدينة إدلب السورية. هن عاملات أيضاً، ولكن من نوع آخر. بضاعتهن أجسادهن، تتعرى الواحدة منهن لرجل لا تعرفه. وتغمض عينيها، لعل إغماضهما يستر ما تتعرض له من هذا الرجل الجاثم فوقها يغتصبها من دون رحمة.. ولا يهتم بها. ولا بعواطفها.. وما إذا كانت تستجيب له أم لا.. ثم تنتقل إلى غرفة أخرى، فهناك رجل آخر شبه عار ينتظرها هي وأختيها وغيرهن من فلاحات وفقيرات، بضاعة معروضة لا تدري بأمرهن لا دولتهن ولا دولة المكان التي تستهين بهن وبكرامتهن، وما من يردّ عنهن هذا الألم.. إنها الحاجة إلى المال. حيث بسبب حاجته يبيع الإنسان نفسه أكان امرأة أم رجلاً. وتتكرر الصورة مع هذا الوحش أو ذاك، من الرجال الوافدين من كل أنحاء الدنيا، حتى من الغرب. رجال شقر تستهويهم المرأة السمراء بعينيها السوداوين. ومثل القادمين من الخليج يحملون في جيوبهم من المال ما يجعل أي امرأة من هذا النوع تدوخ بين أقدامهم.

عالم ليل بكل ما في هذه الكلمة من معنى. عالم ليل ليس له شبيه في أعتى المدن الغربية من شيكاغو إلى نيس إلى برلين ولندن وباريس. ليل لا ينام وناس مختلفون عن بقية ناس شوارع بيروت.

في ذلك الصباح الباكر، من صباحات الجميزة ينتبه المرء لشبان يتكئون بعضهم على بعض بعدما مارسوا كل شيء مما ذكر. حقنوا بعضهم بعضاً بالمخدرات، وشمّوا حتى الانتشاء. بل حتى فقدان الوعي لساعات، وعندما يصحون يتحولون إلى مجانين. ويعتدون على الناس ويحاولون تحطيم كل شيء في طريقهم.. ويبرز منهم ستة شبان وجدوا أن كل هذا لم يكفهم، فقال وديع علينا بالسوريين. قال نادر: لنبحث عنهم. وقال ثالث: إنهم موجودون تحت الجسور. من جسر الكولا إلى جسر الأوزاعي.. وإلى.. وإلى.. ولكن الأقرب لنا جسر بشارة الخوري.. هناك يتكومون كل صباح بقذاراتهم وملابسهم الرثة يبحثون عن فرصة عمل.

في هذا الوقت، وصل باص وسط إلى تخوم بيروت حاملاً مجموعة من العمال السوريين. تعارفوا في مركز الانطلاق في أعزاز قرب حلب، فحملوا أحلامهم معهم، بالبحث عن الرزق، ولقمة العيش، والعودة إلى بلدتهم ومعهم ما ادخروه من مال، يكون قليلاً عادة.. لكنهم استطاعوا أن يدخروه. شبان لم تتجاوز أعمارهم العشرين أو أقل أو أكثر. نزلوا من الباص قرب جسر بشارة الخوري.. هنا، تحت هذا الجسر يستطيعون الاحتماء من حر الشمس والرطوبة

الخانقة. وبعضهم جاء لأول مرة إلى بيروت ليعمل بأي مهنة مهما كانت متعبة أو مهينة مثل تعزيل المجاري.. ومصطفى الحالم الذي يرى لبنان لأول مرة سحر بهذه الطبيعة الخلابة وخصوصاً عندما صعد الباص إلى ضهر البيدر فشاهد الثلوج على القمم كأجمل ما رأى. وأكد لرفاقه أنه يرى الثلج لأول مرة في حياته.. ها هو الآن في لبنان الذي حدثوه عنه.. ها هي الجبال الخضراء بمشهد آسر كأنه في حلم.. وها هو الباص يطل على بيروت فينتبه لهذه المدينة كأنها بساط من لآلىء.. وها هو البحر يحيط بها من كل جانب.. بل إن مصطفى شهق حين وجد نفسه هنا، وكأن بيروت في هذه اللحظات هي المدينة الحلم.. مدينة المستقبل التي منها يبني حياته بلاطة بلاطة وحجراً فوق حجر. شعر أنه مقدم على مغامرة حقيقية ولكنه لا يعرف ماذا يخبىء له القدر. ترك ضيعته قرب أعزاز واعداً أمه وأخته أن يكون رجل البيت بعد وفاة أبيه. وأنه في لبنان سيشتغل في أي عمل ليوفر لهما المال. فأخته تحلم أن تستمر في الدراسة، وأن تعمل لاحقاً ممرضة في مستشفى في حلب أو إدلب. وأمه المفجوعة بغياب المعيل الأول تتوسم خيراً في ابنها الذي ما خط شاربه بعد، وتأمل أن يكون السند الجديد لهذه العائلة الصغيرة، فرفعت يديها إلى السماء كي يسدد الله خطاه ويساعده في غربته كي ينجح ويعود إليها بصحة وعافية..

السوريون كلهم، تراودهم هذه الأحلام. فأبو راشد المتخصص

في مهنة الدهان، يعرف بيروت جيداً، فقد كان جاءها عشرات المرات للعمل في الأبنية التي تُشاد في بيروت وعلى شواطئها وفي أمكنة أخرى.

كان أبو راشد المرشد الأول لهؤلاء الشبان، فقد وعدهم أن يستأجر لهم غرفة في أحد الأبنية التي لم ينته بناؤها بعد.. يتكومون فيها كي يوفروا المال للعودة إلى وطنهم، وطنهم الذي لفظهم من الأساس فلم يوفر لهم أي فرصة عمل، ولم يهتم حتى بمصيرهم. فيعرف أبو راشد كم من عامل سوري فقد، وكم من امرأة سورية اغتصبت ولم تستطع أن تعاقب من اغتصبها. كان أبو راشد يعرف ذلك كله، وكان يعرف أيضاً أن كل هذه الأبنية الشاهقة التي تزيّن بيروت قامت على أكتاف هؤلاء بالمال الخليجي الآن، وفي ما مضى بالمال السوري الهارب من الانقلابات المتعاقبة. كان أبو راشد حكواتي الباص وهو يسير باتجاه بيروت، فطلب إليهم أن يكونوا حذرين في العمل، فاللبنانيون باتوا يكرهون كل سوري بعد اغتيال زعيمهم رفيق الحريري. أبو راشد الدهان، كان يعرف قليلاً في السياسة.. فكان يقول لهم: نحن متهمون بقتل الحريري.. وكان يعرف أن هؤلاء المحشورين حشراً في الباص.. لا علاقة لهم باغتيال الحريري. وبعضهم لا يعرف من هو الحريري ولماذا قتلوه؟ ولماذا أيضاً اتهم السوريون به؟ ظل أبو راشد طوال الطريق يحذرهم.. فقد يتعرضون للاعتداء من شباب هذا التيار أو ذاك ونصحهم أن يمشوا الحائط الحائط ويطلبوا من الله الستر.

وكاد يقول لهم من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن.. ويتذكر أبو راشد معاونه أحمد الشاب الإدلبي المتدين، الذي يصلي صلواته في مواقيتها. كيف دخلت مجموعة من الشبان إلى المبنى الذي يعملان فيه. ودفعوه من على السقالة في الطبقة الخامسة، وفرشاة الدهان ما زالت بيده، ليسقط إلى الأرض مضرّجاً بدمائه.. يروي أبو راشد كيف سمع شيئاً ثقيلاً قد ارتطم بالأرض، فالتفت مذعوراً ليجد هذا المسكين محطماً على آخر نفس، فأسرع لنجدته، وسأله لماذا لم يكن حذراً: دائماً كنت أنبهك عندما تكون على السقالة. فخرجت الكلمات بصعوبة من أحمد أنه لم يسقط من تلقاء نفسه بل هناك من دفعه عنها: لا.. لا معلمي جاء شبان من خلفي لا أعرفهم ودفعوني إلى الأسفل وهم يصرخون: قتلتم الحريري يا كلاب ثم أغمض عينيه. وقال أبو راشد دامع العينين: لن أنسى أحمد ما عشت.. وقال للشباب محذّراً من مصير كهذا. وهذا البلد ليس بلدهم.. وليس هناك من يحميهم أو يرد عنهم الاعتداءات: انتبهوا لا أريدكم أن ترتعبوا. بل أن تكونوا حذرين فقط. نعرف كلنا أن الحياة بالنسبة إلينا صعبة، فقد تجدون عملاً وقد لا تجدون. لكنني سأساعدكم وأحرص عليكم.. أنتم مثل أولادي..

كان أبو راشد يقول الحقيقة، ويعرف كثيراً ما كان يجري في السابق، خصوصاً عندما كان السوريون في البلد جيشاً وضباطاً وعسكراً فقد أساءوا إلى الغاية التي دخلوا من أجلها بتصرفاتهم

الرعناء التي يعرفها اللبنانيون صغاراً وكباراً. ولم يكسبوا بعد خروجهم سوى الحقد والكره، من أكبر ضابط إلى أصغر مجند عسكري، جاءوا حسب شعار قادتهم لإنقاذ لبنان من التقسيم ولإيقاف الحرب الأهلية، وما أن استقروا حتى أصبحوا طرفاً. وما لم يحصلوا عليه في بلدهم أرادوا الحصول عليه في هذا البلد.

كان أبو راشد يعرف أكثر من ذلك. فيتحدث بخجل شديد عن هذه التركة القاسية التي تركوها هنا، حتى بات يسمع اللبنانيين يتندرون على ما فعل هؤلاء، مثل مجند عسكري على حاجز في سن الفيل، في ظروف هدنة حيث كان الناس عائدين من حفلة لصباح فخري في فندق البستان. فأبى هذا المجند إلا أن يشهر كل مسيحي يقف على حاجزه الإسلام بالشهادتين.. وما فعل غيره أكثر بكثير ما سوف تكتبه الدراسات عاجلاً أم عاجلاً، وكان بعض اللبنانيين يتساءلون هل نحن بلد شقيق أم بلد عدو؟ وهم يعرفون أصلاً أن عدوهم كان إسرائيل التي خرجت مهزومة مدحورة بقوة التحالف بين الشعب والمقاومة. وكان ذلك في العام ٢٠٠٠ ثم خسرت الحرب عندما جاءت لتثأر من هزيمتها الأولى في تموز ٢٠٠٦، إسرائيل أقوى دولة في العالم صارت تتحسب لمجموعة رجال أشداء من رجال المقاومة ألحقوا بها شرّ هزيمة. في حين لم تستطع جيوش كاملة عدة وعديداً من جيوش الدول العربية أن تهزمها.. أبو راشد كان يعرف ذلك كله.. وكان يروي لهؤلاء الشباب شيئاً من بطولات

أولئك الرجال، الذين أثبتوا للعالم كله، أن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يستعاد إلا بالقوة.. هكذا يا أولادي خرج الإسرائيليون بالقوة وخرج السوريون بقرار من الأمم المتحدة. والغريب في الأمر يا أعزائي، أن العسكر السوري استولوا على كل ما استطاعوا خلعه من أبواب ونوافذ ومفاتيح كهرباء.. بل كل شيء نالته أيديهم. كانوا يرفعون شارات النصر وهم مكوّمون في شاحناتهم ليستقبلوا على الحدود وكأنهم عائدون من حرب انتصروا فيها على العدو.. ويا للخجل!. فلم يكن هذا العدو إلا جارهم لبنان.. وقف أبو راشد عند هذا الكلام دامع العينين ثم تابع إلا جارهم لبنان الشقيق.

قال لهم أبو راشد كل شيء قبل أن يصلوا إلى جسر شارع بشارة الخوري، خاطبهم: انتظروا هنا.. فلا بد أن يصل رزقكم.. فبعد ساعة أو ساعتين سيأتي من يأخذكم إلى العمل، فلا ترفضوا أي عمل يعرض عليكم مهما كان متعباً ومهما كان رديئاً حتى ولو في المراحيض أو الكسارات.. ووعدهم أن يعود إليهم أول الليل ويكون قد دبّر لهم مكاناً للسكن.

وإذ جلس هؤلاء بعضهم لصق بعض منتظرين رزقهم.. في هذا الوقت بالذات، قرر شباب الجميزة أن يخرجوا هم أيضاً من أوكارهم في البحث عن شيء يتسلون به، فامتطوا سيارتين رباعيتي الدفع، وخرجوا من الجميزة وهم يشعرون بالنشوة التي يريدون الاحتفاظ بها حتى الليلة المقبلة.. وكانوا يحتفظون في سياراتهم بعصي غليظة

لاستعمالها عند الحاجة. وعند وصولهم إلى قرب جسر بشارة الخوري صاح أحدهم: ها هم.. انظروا.. هؤلاء قتلة الحريري.. هيا.

كان الشباب في غفلة عندما هاجمهم هؤلاء بعصيهم وأوسعوهم ضرباً قاسياً.. فدبت الفوضى فيما بينهم.. واحتاروا ماذا يفعلون.. حاولوا الدفاع عن أنفسهم، كما حاول بعضهم الهرب، كانوا يردّون انهيال العصي عليهم بسواعدهم، وهم لا يعرفون لماذا يعتدي هؤلاء عليهم ولأي سبب، غير أن مصطفى من بين جميع رفاقه شعر بالإهانة. وكان يحتفظ بجيبه بموسى صغيرة لتقشير البرتقال، فلم يجد سواها للدفاع عن نفسه.. استلها بسرعة وصار يضرب بها المعتدين عليه ضربات عشوائية. توقف المعتدون لحظة وهم مستغربون كيف اجترأ هؤلاء على الدفاع عن أنفسهم. وكيف اجترأ هذا الكلب السوري أن يشهر عليهم سكيناً.. فتركوا الجميع وانهالوا عليه بكل ما أوتوا من قوة. وراحت عصيهم تنهال على رأسه مباشرة بضربات متتالية، ومع أن المسكين ظل يدافع عن نفسه، بل استطاع أن يؤذيهم بجروح طفيفة، ولكنه كان يتلقى الضربة تلو الضربة.. إلى أن جاءت الضربة القاضية على رأسه مباشرة فتهاوى بطيئاً بطيئاً وسقط على الأرض والدم ينفر من كل مكان في جسمه..

هرب شباب الجميزة عندما سمعوا زعيق سيارات الشرطة واختفوا تماماً.. وعندما جاءت سيارة الإسعاف لتنقل مصطفى إلى المستشفى، وقد حاول فريق سيارة الإسعاف منع دمه من التدفق

من دون جدوى.. فكان رأسه محطماً تماماً ومعجوناً بدمائه.. وقبل وصول سيارة الإسعاف إلى طوارىء المستشفى كان مصطفى قد لفظ أنفاسه.

١٥

ماهر، من بين العمال الذين يعتبرون دولتهم قد تخلت عنهم. وتركتهم عرضة لكل أنواع الاضطهاد في هذا البلد. فأصبحوا مطاردين من أجهزة مخابرات بلدهم، ومعرضين في الوقت نفسه للاعتداء عليهم من بعض المتحمسين للثأر من اغتيال الحريري.

ويتذكر ماهر، صديقه الدكتور فؤاد ابن بلدته في جبل الدروز في سوريا، هذا الجبل الذي يسمونه جبل العرب، ومنه زعيمهم سلطان باشا الأطرش الذي قاد الثورة السورية في العشرينيات من القرن العشرين ضد الاحتلال الفرنسي. وما زال الدروز يكنون له، ليس في سوريا فحسب، بل في لبنان وفلسطين الفخر والاعتزاز. إذ أصبح رمزاً قومياً يتفاخرون به في كل مكان.

يتحدث ماهر بألم عن صديقه الدكتور فؤاد، الذي جاء إلى بيروت في إجازة له برفقه أسرته، زوجته وابنتيه الطفلتين. فقصدوا

شارع الحمراء، الشارع الذي تحبه زوجته وتحب التبضع فيه. وتروي ساخرة أن في الشام أيضاً شارعاً يحمل الاسم نفسه، ولكن أين الثرى من الثريا! فكانت صغيرتا الدكتور فؤاد تتأملان هذا الشارع المزدحم بالناس مدهوشتين، فلأول مرة يصطحبهما البابا خارج مدينتهما، لتنتبها لعالم غير مألوف لهما.. فالسويداء مدينة هادئة بالمطلق، بل ما زالت على قديمها. مع تحديث بطيء كما كانت تقول الأم. هنا، في شارع الحمراء البيروتي ثمة جاذبية ليست موجودة في أي شارع في العالم، وكما كان يقول الدكتور فؤاد. فهو زار لندن وباريس وجنيف وروما.. وليس في أي شارع من شوارع هذه العواصم نكهة تشبه نكهة شارع الحمراء. حيث على أرصفته يرى المرء الحديث والقديم جنباً إلى جنب، نساء في بناطيل جينز قصيرة عالياً فوق الركبة ونساء متحجبات، بل المفارقة أن يرى المرء امرأتين جنباً إلى جنب المتحجبة والتي تقريباً من دون «هدوم».

كان الدكتور فؤاد يتمشى على مهل، ويلتذ بهذا الزحام الجميل، حتى زوجته كانت تشير بكفها إلى هذه المرأة المتحجبة وتلك ذات الفستان القصير جداً. بل تقول ضاحكة إن هذه المرأة كأنها خرجت الآن من غرفة النوم إلى الشارع تواً وقد نسيت أن ترتدي ملابسها. كانا يتضاحكان على هذا التناقض في هذا الشارع وفي مقاهيه المتنوعة على أرصفته ومطاعمه الفاخر منها والعادي.

وكان فؤاد، كما روى ماهر، يجيء بيروت، لأول مرة بسيارته المرسيدس الجديدة، التي اشتراها حديثاً بالتقسيط، على أن يسدد ثمنها الغالي جداً، كما كان يتفاخر، بواسطة البنك.

ركنها جانباً في الأمكنة المخصصة لوقوف السيارات بأجر رمزي وأثنى أمام زوجته على هذه الطريقة المستحدثة في بيروت، والمعروفة في مدن الغرب. وراح مع أسرته يتمشون هنا وهناك، يدخلون هذا المخزن ويخرجون إلى غيره.. فينسى نفسه لأنه كان يريد أن يشتري لزوجته وابنتيه كل ما يطلبن. ويداعب زوجته ضاحكاً أنا أنسى نفسي عندما أريد أن أشتري كل شيء لكنّ.. فلا يشتري لنفسه شيئاً.. فتداعبه الزوجة قائلة: خزانتك ملأى بالبذلات وربطات العنق والأحذية الفاخرة التي اشتريتها من خلال أسفارك إلى البلدان الأوروبية لحضور المؤتمرات الطبية، تعود محملاً بها من دون أن تتذكر إلا البسيط لنا. زجاجة عطر، أو وشاح.. أو أشياء أو دمى لابنتيك الصغيرتين.. أما هنا، في شارع الحمراء فتتكارم علينا بكل شيء. يدافع فؤاد عن بضائع شارع الحمراء بأنها أيضاً تبز بضائع المدن الأوروبية.

وبعد تناولهما الغداء في أحد المطاعم، عادوا إلى التجوال ثانية لعلهم نسوا شيئاً من حاجاتهم. ثم اتجهوا سعداء إلى السيارة، فإذا بفؤاد يصرخ مرعوباً: ما هذا؟ إذ هاله أن يجد سيارته محطمة من كل جوانبها وزجاجها متناثر على الأرصفة: أخذ يتلفت حواليه مذعوراً..

كانت صدمة لم يفق منها والناس ينظرون إليها بشفقة .. وراح يسألهم لماذا سيارته بالذات من دون السيارات الأخرى.. فاقترب منه ابن حلال وأشار إلى نمرة سيارته.. فسأله: ماذا بها؟ قال له: إنها السويداء. فعاد وسأله مرتبكاً: وماذا يعني أنها من السويداء؟.. فقال له الرجل: يعني أنك من سوريا.. ثم تابع.. ربما هؤلاء الذين حطموا سيارتك ظنوا أنك من قتلة الحريري.

ذعر فؤاد، وراح يسأل: هل أنا قتلت الحريري؟. هل أنا؟. هذا جنون.. هذا ظلم، لقد كنت أكثر حزناً منكم عند استشهاد الحريري ما هذا الجهل.. هل الثأر لمقتله تحطيم سيارتي؟ فاقترب منه رجل آخر ينصحه قائلاً: اذهب وقدم شكوى. مخفر حبيش قريب من هنا.. فقال فؤاد وهو ما زال يستشيط غضباً: ماذا سيفعل لي مخفر حبيش إذا كان المجرمون قد ولّوا الأدبار.. ومن يعطيني حقي؟! قال له آخر متهكماً: ألستَ مؤمّناً عليها؟

غضب فؤاد غضباً شديداً. وعندما دخل مع أسرته إلى ما تبقى من السيارة، كانت الزوجة تبكي مع طفلتيها. وصاح فؤاد: يلعن أبوكم وأبو الحريري.. ثم وضع المفتاح ليحرك السيارة فوجد المحرك سليماً. انسحب من الشارع متوتراً. وكان يزيد توتره بكاء زوجته وطفلتيه. فأقسم أمام الجميع أنه لن يزور هذا البلد بعد اليوم أبداً.

وقاد سيارته راجعاً من حيث أتى.. وهو يردد: من قتل الحريري.. من قتل الحريري؟ لماذا نؤخذ بجريرة قاتليه المجرمين.. فلم يكن إلا زعيماً نحبه ونعجب به.. فكيف نقتله نحن.. نحن بالذات؟!

١٦

اثنان من ماسحي الأحذية في بيروت سوريان متقدمان في العمر، ولكن هناك ماسحو أحذية سوريون آخرون، شبان من القرى السورية لا يقيمون طويلاً في بيروت. صناديق علب البويا، صغيرة ومتواضعة، وكرسي كل واحد منهم عبارة عن علبة حليب نيدو كبيرة يقلبها ويجلس عليها. لا يجرؤ هؤلاء على العمل في محيط ماسحي الأحذية الشيوخ كأبي عامر في مقهى الروضة وأبي حسين في شارع الحمراء. فلكل منهما صندوق جميل ذو طابات نحاسية لامعة وكرسي واطئ مريح، إنها عدة ماسح أحذية كاملة، من خرق للتلميع وفراشٍ خشنة وناعمة، ثم ادعاء كل واحد منهما أنه يستخدم أجود وأرقى البويا الصينية أحياناً، والفلبينية في بعض الأحيان الأخرى.

إذا ذهبنا إلى شارع الحمراء نجد أبا حسين الذي بات الجميع من أصحاب وتجار وعمال الشارع المذكور يعرفونه جيداً، ولكنهم لا

يعرفون شيئاً من أسراره أو مما يخبىء داخل صدره من هموم. يجلس وراء صندوق البويا كأنه أمير من فرسان القرون الوسطى. أما صديقه الآخر الذي سهل له الحضور إلى بيروت فهو أبو عامر الذي يخفي في صدره سراً دفيناً. ومن ينظر إليه يظنه من دراويش الحضرات الصوفية، لحيته بيضاء طويلة نوعاً ما، تخفي وراءها وجهاً مجعّداً يدل على تجارب قاسية طحنت حياته، ومن الصعب اكتشافها.

ذلك اليوم الذي حمل فيه أبو حسين جسمه السمين الذي لا يساعده على الإسراع في المشي وعلى كتفه صندوق البويا يمشي ببطء من الأوزاعي حيث له هناك غرفة بالإيجار، إلى شارع الحمراء وهو يحدث نفسه أن المشي أحسن رياضة للتخسيس، فوزنه فاق المائة كيلو وأصبح مائة وعشرة كيلوغرامات. مما كان ذلك يجعله يمشي بصعوبة ويتعرّق في عز البرد والشتاء. درعاوي من قرية قرب الحدود الأردنية، ولذلك فإن لهجته تختلف عن لهجة أبي عامر التي تبدو أقرب إلى لهجة أهل الشام، فيها نعومة مع لهجة أرستقراطية يحاول إخفاءها عن أسماع الآخرين ولذا تراه قليل الكلام إلا نادراً. أبو حسين في الستين من عمره. وعمره في بيروت نحو عشر سنوات.. لم يتزوج، ظل أعزب هذا العمر كله. كان يتحاشى الزواج لشدة نفوره من النساء. وإلى ذلك فهو لا يملك قطعة أرض ولا بيتاً طينياً يؤويه.. لكن أبا علي جاره بائع الصحف، يروي عنه حكايا بعضها صحيح وبعضها غير صحيح. والركن الثابت لأبي حسين قرب سينما ستراند

المغلقة منذ أيام الحرب الأهلية، وعلى بابها ورقة مكتوب عليها أنها ستعود إلى الافتتاح قريباً.

عمل أبو حسين في مهن عديدة. واستقر بعد ذلك ماسح أحذية. لأنها وإن كانت مهنة وضيعة، لكنها تمنع عنه ذل العمل عند آخر هنا أو هناك.. علّق على مقدم صندوق البويا ورقة بيضاء كتب عليها خطاط لقاء مسح حذائه مجاناً.. «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».. ولم يسأله أحد عن سبب كتابة هذه الورقة. لكن جاره أبا علي يهمس أن لهذه الورقة سراً رهيباً..وفي كل مرة يروي أبو علي قصة هذا السر، فلا نعرف منه الحقيقة من الخيال.. وهي كما يروي أبو علي أن أبا حسين كان شرطي سير في درعا عندما كان شاباً. وعلى وشك أن يتزوج ابنة عمه خديجة، ولكن خديجة خانته مع رئيسه الملازم أول نجوان الكرم الذي أسرع واقترن بها. ثم طلب نقله إلى أقصى الشمال السوري وهذا ما جعل الدنيا تسود في عيني أبي حسين، الذي كان يتمنى الاقتران بخديجة لتنجب له حسيناً حتى يصبح اسماً على مسمّى. ويقول أبو علي ربما بعد هذه الخيبة الفظيعة آثر أبو حسين أن يترك البلد ويجيء إلى بيروت.. حاملاً معه حزنه ونقمته على رئيسه الذي قتل كل أحلامه دفعة واحدة، وكذلك نقمته على ابنة عمه خديجة التي باعته بقشرة بصلة، لتقترن بالضابط المذكور من دون أي هزة ضمير وتأسف على ابن العم. هنا في بيروت عمل في مهن شتى ولكن لم يساعده شكله السمين على أي عمل

يعرض عليه. ويوم ترك بلده خلفه، ظن، مثل بقية السوريين أن لبنان سيفتح له باب الجنة. عمل في مهن عديدة، عاملاً في محطة بنزين إلى بائع خضر على عربة كان يدفعها بيديه إلى زوايا الشوارع منادياً على بضاعته، لكن شرطة البلدية كانت تطارده من مكان إلى مكان. لقد تقدم به العمر. وهو متأفف لا يحب مخالطة الناس فاستمع إلى نصيحة أبي عامر، بأن يعمل مثله ماسح أحذية وهكذا استقر في هذا المكان الاستراتيجي، وبالذات لصق تلك السينما التي كانت ذات يوم من أشهر دور السينما في بيروت.

اعتبرته شرطة البلدية شكلاً فولكلورياً. فلم تعد تقربه ولم تعد تمنعه من البقاء في هذا المكان، خصوصاً وأن الناس بحاجة إلى تنظيف أحذيتهم.

تتفاوت غلة أبي حسين، بين يوم وآخر، أحياناً عشرة آلاف ليرة، وأحياناً أقلّ، لكن كل غلته يصرفها على شراء السكائر وسندويشة أو منقوشة زعتر تكفي وجبة غداء. ودائماً، في لحظات السكون وعدم انشغال الجارين بائع الصحف والبويجي، يسأله أبو علي عن أحواله وعن سبب هذه الآية التي يضعها في مقدم صندوقه «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».. فلا يردّ ويقول: «بترجاك أبو علي، انس هذا الموضوع» يقول ذلك وتملأ وجهه غمامة من الحزن وتدمع عيناه فيخفيهما بكفه. ومع أن أبا علي كان يريد دائماً أن يعرف سر هذه الآية ولماذا علقها أسفل الصندوق. إلا أن أبا حسين

ظل دائماً يرده بلطف إلى أن أخطأ ذات يوم، فروى شيئاً عن خديجة وهربها مع رئيسه الضابط، ومنذ ذلك اليوم لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف.

وظل أبو حسين يتعاطف مع العمال، خصوصاً الذين عرفهم في بلده، وجاءوا بحثاً عن لقمة الخبز. لكن كل شيء انقلب على ما كان يتمنى منذ اغتيال الحريري، فكان يسمع شتيمة السوري في أذنه ويتجاهلها: السوريون الكلاب.. السوريون الحرامية.. السوريون القتلة.. حتى أصبحت كلمة.. سوري.. لعنة يتحاشاها كل سوري جاء ليشتغل ويأكل.

لم يكن أبو حسين قد سمع شيئاً عن الحريري إلا كل الخير، وأن الرجل كان كريماً ومحباً للناس.. سمعة نظيفة ما كان يمتلكها سياسي آخر.. ويتساءل: لماذا قتلوه؟ وهل صحيح أن الذين قتلوه هم السوريون؟ وتحديداً النظام؟وما هي مصلحة النظام في قتل الحريري؟ على ما كان يعرف أن للرجل بيته في الشام التي كان يرى كأنها شارع من شوارع بيروت، وبيته قرب السفارة السعودية في الشام يعرفه القاصي والداني. وكثيراً ما كان الحريري يتردد إلى الشام، حتى ولو كان على غير موعد مع المسؤولين.. فما الذي جرى حتى قتلوه بهذه الطريقة البشعة؟ ولماذا اتهم اللبنانيون سوريا بهذه الجريمة حتى تنعكس على كل سوري موجود في لبنان؟!

ذلك الصباح المشؤوم كان أبو حسين مفلساً تماماً وقد تأخر عن دفع أجرة غرفته في الأوزاعي، الذي كفله فيها زميله الآخر أبو عامر

ماسح الأحذية في مقهى الروضة، وقد سبق أن هدده صاحب هذه الغرفة بطرده ما لم يدفع الأجرة التي تخلف عن دفعها منذ أسبوعين أيضاً.

كان أبو حسين متوتراً ذلك الصباح. وبحاجة إلى سيكارة وفنجان قهوة من الشاب السوري الذي يدور بائعاً لها في الحمراء وأطراف الشوارع الأخرى الملاصقة، يتمشى بطيئاً وهو يصفق بفنجانين بين يديه كدليل على أنه قادم لمن يريد أن يشرب قهوته. ولن يكلفه ذلك سوى مائتين وخمسين ليرة. وهو مبلغ يعادل عشر ليرات سورية، كان هذا الشاب من مدينة إدلب شمال سوريا، يقوم بجولته في الصباح الباكر. ويحصّل مدخوله اليومي الذي يساعده لاحقاً على متابعة دراسته في الجامعة العربية. ومعظم زبائنه هم الذين يتجمعون لدى باعة المناقيش التي أصبحت تجارة رابحة، وكذلك باعة الصحف في الأكشاك الموزعة على طول الشارع، إلى باعة العصير وحتى عابري الطريق. باتوا يعرفونه ويعرفون طعم قهوته الطيبة، التي يحرص أن تكون لها نكهتها الخاصة.

مر بائع القهوة عابراً، فلم يستطع أبو حسين أن يناديه.. مع أنه لو ناداه لما بخل عليه بفنجان قهوته البلاستيكي إن دفع ثمنه أم لم يدفع. خجل أبو حسين أن يطلب قهوته مستديناً وهو رجل في الستين من شاب في العشرين، فهو حتى هذه اللحظة لم يأت إليه أي زبون لمسح حذائه.. وأبو حسين في هذه اللحظة كان يريد أن يدخن

سيكارته. بحث في جيوبه فلم يجد أثراً لعلبة الدخان التي أفرغها في منتصف الليل الماضي. وهو في هذا القلق ظل يرمق أحذية العابرين لعل أحدهم يتقدم لمسح حذائه. وثمة هاجس آخر جعله ينظر إلى السماء، فانتبه لتراكم الغيوم كأنها تنبىء بيوم ماطر، وألدّ أعداء أبي حسين المطر، على طريقة مصائب قوم عند قوم فوائد. فالأيام أيام آذار الغادر بين الصحو والشتاء. فإذا أمطرت فيه، تحول المطر سيولاً هادرة في الشوارع. وكان أبو حسين في هذه اللحظات يرجو ربه أن يتلكأ عن إرسال المطر. لأن الجو الصاحي هو مصدر رزقه. ومتى أمطرت ابتعد الناس عنه. ظل أبو حسين يرمق السماء بما يشبه الاسترحام: يا رب.. صحّ الجو. يارب لتنقشع تلك الغيوم. إن أي زبون سيتقدم منه الآن سينقذه، وقد يكون مدخناً مثله فيطلب منه سيكارة. وربما يعطيه علبة الدخان كلها. فقد سبق لأحد الزبائن أن ترك له علبة سكائر ملأى.

عندما خرج أبو حسين صباحاً، متسللاً من غرفته عبر أزقة الأوزاعي، متحاشياً أن لا يمسك به صاحب الغرفة.. مشى بصعوبة كل هذه المسافة التي تفصل ما بين الأوزاعي والحمراء، مسافة تجعله يمشي ثلاث ساعات ثم يتوقف ليرتاح، بسبب ثقل وزنه، ثم يمشي. لعل رياضة المشي هذه تخفف من شحمه المتكوّم على كل أنحاء جسده. طوال الطريق كان ينظر إلى السماء، فيرى الغيوم تتكاثف ثم

تنقشع ثم تعود وتتكاثف فيردد: يارب. يارب.. لا أريد المطر لا أريد المطر.. ولم يكن أبو حسين يعرف أن الفلاحين في سهل البقاع وعلى السواحل، على عكسه تماماً يصلّون من أجل المطر.

لم يهطل المطر.. لكن الخوف من هطله ظل جاثماً على صدر أبي حسين، ما جعله يزداد توتراً.

سمع أبو حسين طرطقة فناجين القهوة.. هه.. ها هو السوري قد عاد.. هل يسأله.. هل يطلب منه قهوة..؟ ولكن لا طعم للقهوة من دون سيكارة. فمن أين له ولو واحدة، أو بزبون يقترب منه ليمسح حذاءه فيكون كافياً لشراء علبة دخان. وربما لفنجان قهوة.. لكن هذا لم يتحقق. كان سيسأل جاره أبا علي سيكارة، لكنه تذكر أن أبا علي قد كف عن التدخين بعد أن تطور لديه مرض الربو فأصبحت السيكارة خطراً على حياته. فانقطع عن تدخينها منذ عقد.. بل صار يكره المدخنين، ويحرص أشد الحرص على أن لا يدخل مكاناً، مطعماً أو مقهى يتكاثر فيه المدخنون، الذين باتوا هذه الأيام من أعمار مختلفة، فالتدخين استشرى في كل لبنان بالرغم من التحذير من مضاره على الصحة العامة. وكان أبو علي ينصح أبا حسين أن يخفف من التدخين، لكنه لم يكن يعرف أن السيكارة لأبي حسين، هي فشة خلق، من هذا العالم الظالم. الظالم للفقراء أولاً وأخيراً. والظالم لأمثاله من السوريين التعساء المشردين في كل أصقاع الأرض بحثاً عن العمل.

لكن المطر لم يأبه لتوسلات أبي حسين. بدأ رذاذاً ناعماً قبل أن يشتد هطله دقيقة بعد أخرى. فأسرع الناس يختبئون تحت مظلاتهم. وفي مداخل المحال التجارية، أو تحت سقوف الأرصفة، والرجل الوحيد الذي كان متضايقاً من هذا المشهد هو أبو حسين، فلم يعد يمر به عابر، ولم يعد يلتفت إليه أحد حيث هو مركون بجسمه الضخم على الكرسي الواطىء وهو ينظر إلى صندوقه بألم وحسرة.. ما هذا اليوم السيئ؟ لماذا المطر ورزقه على الصحو ومن حذاء متسخ ينتعله رجل كريم يدفع أكثر من ألف ليرة؟.. فهو يعرف ذاك الباشا الذي يتسكع يومياً في شارع الحمراء، يتمشى متكئاً على عصا فاخرة مزدانة بالأصداف، وغالباً ما كان يقترب من أبي حسين مسلّماً ثم يترك له حذاءه كي ينظفه. مع العلم أن حذاء هذا الأفندي ليس بحاجة إلى البويا.. ومع ذلك فإنه يضع قدمه على دواسة الصندوق، فيشرع أبو حسين في العمل، وقد رمى همومه وراء ظهره.. كان يعرف دائماً أن هذا الرجل سيترك له خمسة آلاف ليرة في كل مرة يضع حذاءه أمام عينيه.. ولكنه، هذا اليوم لم يظهر قط.

بعض الأحيان قد تكون الغلة أكثر من بحبوحة فيسدد منها جزءاً من إيجار الغرفة. لكن هذه الأيام كانت صعبة عليه، فلم يعد الناس يهتمون بنظافة أحذيتهم. خصوصاً عندما يكون الطقس ماطراً وأيام الشتاء طويلة.

يتذكر أبو حسين شبابه، يتذكر أنه حصل على الشهادة الابتدائية

التي سمحت له أن يكون شرطي سير في درعا، وبدأت أموره تتحسن خصوصاً عندما طلب يد ابنة عمه ووافق أهلها، فقد بات في بزة شرطي السير مهيباً خصوصاً وأن المسدس يظهره ابن حكومة محترماً.. ولم يخطر في باله أن رئيسه الضابط الذي صار يتردد إليه ويلمح خطيبته، معجب بجمالها البدوي الساحر؛ وفي غفلة منه هربت خديجة واختفت مع ذلك الضابط الذي قيل أنه نُقل إلى أقصى الشمال، إلى القامشلي على الحدود التركية.

منذ ذلك الوقت قرر أبو حسين مغادرة ضيعته، ومثل بقية مواطنيه الدرعاويين قرر الرحيل إلى بيروت وهو يحلم بالمن والسلوى يهبطان عليه من السماء، وجاء بتشجيع من أبي عامر ورفاق له سبقوه إلى نعيم لبنان وبيروت بالذات. لعل وعسى تجيء الرزقة فتمنع عنه حاجة الناس.

اشتد المطر واشتد حزن أبي حسين، لم ينعم بزبون واحد هذا اليوم.. يريد سيكارة. يريد فنجان بلاستيك قهوة. يريد ثمن منقوشة وقد مرت ثلاث ساعات وهو في هذه الحال من الترقب، ينظر إلى أبي علي المختبىء في كوخه درءاً للمطر. وينظر إلى الشارع الذي لا يكاد يرى فيه عابر سبيل. لا أحد يلتفت نحوه، لا أحد يشعر بمشاعره، أو يفكر في أفكاره.. من هو سوى سوري مسكين، مخلوق لا قيمة له، مخلوق أشبه بالحيوان.. أشبه بفيل ضخم أقعى على كرسي واطىء. أشبه بالجثة لا حراك فيها ولا حياة.. ولا يدري أبو

حسين، في تلك اللحظة، كيف انتبه لشاب يركض وقد رمى بالقرب منه عقب سيكارة تكاد تكون نصف سيكارة. بدت لأبي حسين أنها سيكارة من ذهب أو لؤلؤ.. نصف سيكارة ما زالت مشتعلة، وقبل أن تتبلل بالماء حاول الانحناء نحوها ماداً يده بكل قوة. بل أحس كأن يده أصبحت ساعداً طويلاً. وكأن أصابعه تمددت لتلتقط السيكارة وكادت تلامسها. إنها السيكارة الحلم.. السيكارة الكنز.. السيكارة استمرار الحياة، دقيقة بدقيقة. لكن يد أبي حسين خذلته.. لم تصل إلى السيكارة، توقفت في مكانها ممدودة متيبّسة، كل شيء قد توقف. كل شيء بدأ يزوغ ويبتعد، وفي لحظة ما رأى أبو حسين نفسه شاباً أيام زمان.. شاباً عزيز النفس يأمل حياة زاهرة سخية، لكن ما بدا للعابرين المسرعين كأن أبا حسين مجرد تمثال وراء صندوق بويا، فلم ينتبه إلا أبو علي الذي صرخ: أخ يا أبو حسين.. أخ يا أبو حسين، إذ رأى أبا حسين منحنياً على صندوقه ورأسه يكاد يلامس دواسته. بينما كان ساعده ممتداً نحو عقب السيكارة الذي انطفأ. أبو علي وحده أدرك أن أبا حسين قد مات.

١٧

كان الأكثر حزناً على بويجي الحمراء أبي حسين، بويجي مقهى الروضة المجاور للحمّام العسكري، منذ أكثر من أربعين عاماً، فهو الذي أعدّ لأبي حسين جنازة متواضعة، لم يخرج خلفها إلى جانبه إلا أبو علي بائع الصحف، الذي كان مقهوراً من صاحب الغرفة الذي كان أبو حسين مستأجرها. فقد جاء إلى الحمراء يسأل عنه. وعندما أخبروه بأن الرجل مات، صار يصرخ غاضباً.. «العمى بقلبو ما كان يؤجل موتو حتى يدفعلي أجرة الغرفة». فلم يكن يريد أن يموت أبو حسين وعليه ديون لأي شخص آخر.. مشى وراء نعش أبي حسين بضعة عمال سوريين من بينهم بائع القهوة في الشارع المذكور. وكان يبكي عليه كأنه أبوه. فيما بعد استأجر أبو عامر صالة ليستقبل فيها المعزين وشيخاً ليقرأ القرآن. لم يستغرب أبو عامر قلة المعزين. ولكنه اعتبر نفسه قد أدى واجبه تجاه هذا السوري الذي

مات غريباً. سقط في سبيل سيكارة لم يحصل عليها. وقد تكون سبباً لنجاته، بينما هي في العرف سيكارة قاتلة لمدمني التدخين.

أبو عامر، مثل كل ماسحي الأحذية، لا يرفع رأسه عن أحذية الزبائن. حياته كلها أحذية بأحذية، حتى صار يعرف الحذاء الجيد من الحذاء الرخيص.. رجل في الخامسة والسبعين. ولكن في همة ابن الخمسين، كان يداري حزنه على أبي حسين، ويرجو الله أن لا تكون نهايته مثل نهاية هذا المسكين الذي مات من أجل سيكارة. ولا أن يموت وهو وراء صندوقه يمسح حذاء ما حتى بات لا يرفع رأسه ليعرف من هو الذي وضع حذاءه على دواسة صندوقه. يرتدي قبعة رياضية يرخيها حتى حاجبيه، فلا تكاد تعرف من هو هذا البويجي إلا من يديه المجعدتين وأصابعه الملوثة من مادة البويا. يبكي على أبي حسين بصمت من دون أن يلمح أحد دموعه، دموعه العصية على الخروج من عينيه، بل يداريها، لئلا تسقط وتفضحه. وعندما بلغه خبر وفاة أبي حسين ظل يصفع خديه مراراً وهو يردد: يا أسفي عليك يا أبو حسين.. يا أخي.. يا ابن بلدي. قد يعزّيه أحد زبائنه متسائلاً هل أبو حسين أخوه حقاً، فيردد آية: «إنا لله وإنا إليه راجعون».. أي.. والله أخي، وأكثر من أخ.. وإذا حاول أحد الزبائن أن يسترسل في الحديث معه، دفع قبعته إلى الوراء قليلاً، فيلمح هذا الزبون شعر أبي عامر الأشيب، الذي ربما كان في شبابه أشقر، وقد يسأله عن حياته وتجاربه، ويقترح عليه صبغ شعره. فيرد عليه يا

أستاذ لن يصلح العطار ما أفسده الدهر.. عيب يا أستاذ.. أنا شخصياً لا أحب الرجل الذي يصبغ شعره، ولكن أسمح به للمرأة التي تريد، بل تتمنى أن تبدو جميلة وشابة.. هذا حقها. أما الرجل فعيب عليه، لأن الصبغة تفضحه. والأفضل له أن يبقى طبيعياً ويقبل ويعترف بتقدمه بالعمر وأن لا يتهرب من هذا الواقع. فينتبه هذا الزبون أنه ليس أمام ماسح أحذية عادي، قد يفرح أبو عامر أحياناً أن يروي شيئاً من حياته، فهو قد تزوج ابنة عمه في الضيعة التي أنجبت له في عمرها المديد ثلاثة ذكور وابنتين. وهو على كل حال راضٍ يشكر الله على نعمته. بل يردد «وأما بنعمة ربك فحدث» ويا لها من نعمة ومردود من مسح أحذية الناس. وإذا تابعت وسألته تسمع منه أنه كان يتردد إلى بيروت منذ أن كان يافعاً. فعمل في كثير من المهن التي لا يمارسها العامل اللبناني، مهن قاسية سواء مثل حمل الأحجار أو جبل الإسمنت بالماء ساعات، أو تكسير الصخور في أطراف الجبال. في تلك الخمسينيات، كانت بيروت في نهضتها العمرانية التي أخذت تكتسح أطراف المدينة القديمة، فيتذكر أبو عامر زلزال العام ١٩٥٢ الذي ذهب ضحيته عدد كبير من الناس. يتذكر تفاصيل بيروت القديمة، ساحة البرج، قهوة الإزاز التي كان يرتادها كبار الشخصيات السياسية والاجتماعية مثل رياض الصلح وصائب سلام بسيكاره الكوبي، والقرنفلة في أعلى الجاكيت وغيرهما، إلى جانب شعراء كبار مثل الأخطل الصغير وأمين نخلة، وذلك الشاعر العراقي الصعلوك الصافي النجفي، الذي كان أبو عامر يظنه شحاذاً.. وعندما

انتبه أن صائب بيك يجالسه استغرب الأمر فسأل فقالوا له هذا الصافي النجفي شاعر العراق الكبير، فأحبه أبو عامر لتواضعه وكثيراً ما دخل وسلّم عليه. يتذكر أبو عامر سينما ريفولي حيث كان يحضر فيها أفلام يوسف بك وهبي ونجيب الريحاني. ويتحدث معك بلهجة تجعلك تظنه من محلة البسطة أو الخندق الغميق، ناسياً أو متناسياً لهجته الدرعاوية وقريته التي تلاصق الحدود الأردنية.. بل يكاد ينسى ضيعته وأهل ضيعته.

يتباطأ أبو عامر في مسح الحذاء ليروي لك تلك الذكريات التي لا ينساها، ويشير إلى أصابعه الثخينة قائلاً: لهذه الأصابع علاقة متينة بالأرض، تلك الأرض التي ورثها من أبيه، هذه الأصابع اكتسبت لونها الرمادي الأدكن من تلك الأرض، فتشعر أن هذا الرجل المنحني أمامك قد عجنته التجارب وطحنته الأحداث، ومع ذلك ما زال قوياً، لا يريد لقمة خبزه إلا من يديه، يتحدث عن زواجه بابنة عمه التي أصبحت في نظره معملاً لإنتاج الأولاد. يتركها في القرية أشهراً ويجيء إلى بيروت ليعمل هنا وهناك، حتى إذا ادخر بعض المال عاد إلى ضيعته وحضن زوجته الصابرة وهو يردد أن اضطراره إلى فراقها هو من أجل الشغل وجمع المال فلا تعتب. لكنها تلح أنها اشتاقت إليه وأنها لم تعد تستطيع العيش من دونه.. ثم تغفر له لأنه يتغرب من أجل الأولاد ومستقبلهم. يأتي إلى الضيعة وقد اشترى لها من بائع على رصيف ساحة البرج في بيروت، سواراً مزيفاً يبدو كأنه

من الذهب الخالص، فتفرح ثم تدخله بأصابعها إلى رسغها عنوة، تلك الأصابع التي لا تبدو للعين أنها أصابع أنثى، بل أصابع عامل يعجن خبز بيته بيديه ليأكل الأولاد خبزاً طيباً كفاف يومهم.

كان أبو عامر راضياً عن حياته، وتاركاً لأخيه الأصغر العناية بالأرض ناصحاً إياه ألاّ يفرّط فيها، فهي مآلنا ومآل أولادنا.

يقول إذا سألته عن أحوال بيروت، إنه شارك في إعادة بناء العازارية وسط بيروت التي أصبحت بناية عملاقة لاحقاً، بل حفظها الأفرقاء المتقاتلون في الحرب الأهلية جميعاً، إذ تجنب هؤلاء استهداف الأماكن الدينية سواء أكانت إسلامية أم مسيحية. ويتفاخر أنه عايش مع غيره من العمال السوريين تشييد هذه البناية العظيمة، التي ما زالت إلى الآن معلماً من معالم بيروت، وأصبحت وسط.. جزيرة.. السوليدير التي قامت محل المدينة القديمة.. وكان أبو عامر إذا ارتاح قليلاً جلس قرب الأستاذ المتقاعد أبي جوزف بائع الكتب القديمة، فيستعير من عنده كتاباً كل يوم حتى قرأ معظم الروايات البوليسية مثل روايات أرسين لوبين وشرلوك هولمز.. كما قرأ ألف ليلة وليلة بكاملها، وهو مستعد أن يرويها لمن يحب أن يسمع حكاياها الواقعية وغير الواقعية، وكان يترنم بين الحين والحين مردداً أغاني محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش، وكان بعض الأحيان يستمع إلى مثل هذه الأغاني من محل لبيع الأسطوانات، التي كانت منتشرة في ذلك الوقت. ويتذكر أبو عامر تماماً محل بيع هذه الأسطوانات

قرب سينما ريفولي. كان أبو عامر يحب تلك الأمكنة المزدحمة بالبشر والمتحركة ليلاً نهاراً. هنا عاش أبو عامر شبابه، يتمشى بين مقهى الحايك وسينما ريفولي وهو يعلك سندويشة فلافل من بائع قرب شارع المتنبي، الذي كان أبو عامر يسميه شارع الشراميط. فإذا مزحت معه وسألته هل كنت تعرفهن؟ لأجابك من بعيد لبعيد. ثم يضع يده على صدره ويكرر أعوذ بالله، أعوذ بالله.. أنا عندي حريمات. تسأله: ألم تسعَ إلى وظيفة يا أبا عامر؟ فينظر إليك منزعجاً ويظن أنك تسخر منه: وظيفة.. وظيفة فين. شو بدي بهالوجع الراس. الشغل الحر هو الذي يعطيك.. مرة في صعود ومرة في هبوط.. هكذا لذة الحياة صراع ومقاومة. الوظيفة معاشها محدود، لا تطعم ولا تغني من جوع. كان باستطاعتي وأنا شاب أن أتوظف. أنا معي سرتفيكا. كانت الشهادة الابتدائية في ذلك الزمان كالبكالوريا في هذه الأيام.. شوف يا سيدي.. ابني عامر على وشك أن يتخرج في الهندسة المعمارية. عادل ابني طالب بكالوريا، وسعد طالب بروفيه. طيب.. هل كانت الوظيفة تساعد على مصاريفهم المختلفة؟! ثم يدق بيده على صندوق البويا وهو يقول مفتخراً: من هذا الصندوق يللي مش عاجبك.. ثم يُقبّل ظاهر يده وباطنها عدة مرات ويرفعها على رأسه وهو يكرر: الحمد لله.. الحمد لله.. فتسأله: وابنتاك؟ يجيب: تزوجتا.. واحدة تزوجت معلم مدرسة في درعا.. والثانية شرطياً نقلوه إلى الشام.. يعني صرت جد يا أبو عامر؟. يهز رأسه بفرح ويقول مردداً: أي والله.. أي والله. بس يا أخي الأحفاد من الصبي هم

الذين يحملون اسم الأب. وأنا.. إذا مدّ الله بعمري سأحضر زواج ابني عامر وأتنعم بأول حفيد حقيقي يحمل اسمي.. فتقول له: ولكن ألا تظلم البنات يا أبا عامر؟. فيرفع يده معترضاً: لا.. لا.. لا أظلم أحداً، أحفادي من ابنتي سيحملون اسم أبيهم واسم عائلته.. بينما أحفادي من الصبيان سيحملون اسمي.. فتسأله: ولماذا هذه التفرقة بين الأحفاد؟ يقول لك.. بلا تفرقة.. بلا بلوط. هذا هو الواقع. والآن ما هي أخبارك؟ يُجيب: كما ترى أنا بويجي في هذا المقهى منذ أربعين عاماً. لا أكاد أخرج منه. وقد تقدم بي العمر وأصبحت عجوزاً. ولم أعد قادراً على مهنة غير مهنة ماسح الأحذية. مهنة لا بأس بها. يوم نهار.. ويوم ليل.. يعني أحياناً في الربيع والصيف تكون الغلة لا بأس بها. في الشتاء يخفّ العمل فأعود إلى الضيعة وأشتغل بالأرض.. يا عمي ما في أحلى من الشغل في الأرض، في عنّا شجرة ليمون. أيضاً، عنّا شجرة أكي دنيا هي غير شجرة أكي دنيا في العالم، طعمها حلو وبزرها قليل، يعني كل ثمرة منها فيها بزرة واحدة، يمكن بسبب عنايتي وعناية أم الأولاد وحبنا لها، بادلتنا الحب، فصارت تعطي لكل ثمرة منها بزرة واحدة.. تصوّر يا أخي، تشتري كيلو أكي دنيا من عند البياع فلا تأكل إلا ربعه، لأن كل ثمرة بقلبها أربع أو خمس بزرات. شوف يا أخي الشجرة مثل الإنسان، بتدللها بتعطيك. هذا الشيء لا يعرفه إلا القليلون من المزارعين. أنا شخصياً بحاكي الشجر يللي عنا بالحقلة. بحاكيها مثل ما بحاكي أولادي.. والله، بعرف من كل قلبي.. أن الأشجار

تسمع منيح.. صحيح ما بتحكي متل البشر، بس بتحكي بالثمر الطيب.. ومع تباشير الربيع أحمل صندوقي وأسافر إلى بيروت.. ثم يستدرك: يا أخي.. الزعما عقدوها.. كنا كشعب واحد. وأتذكر أنني كنت أجيء إلى بيروت بالهوية. وأشتغل وأرجع إلى بيتي في اليوم نفسه. كانت الليرة واحدة.. ثم يفتح لك جارورا صغيراً أسفل صندوق البويا ويسحب منه ورقتين من فئة الليرة ثم يشير إلى عبارة بنك سوريا ولبنان في رأس العملة الورقية. يا أخي كانت عملتنا واحدة. وكانت الحدود صورية أي نعم.. لا نستغني عن بعضنا. وإلى الآن لا نستطيع الاستغناء عن بعضنا مثل الأم وابنها. صحيح صرنا دولتين، ولكل دولة علم وصار في حدود، يا عيب الشوم!. بس صار صعب جداً نستغني عن بعضنا. يمكن بتعرف يا أستاذ.. أن معظم زعماء لبنان متزوجون من الشام.. يمكن السر إنّو بنت الشام بنت حلال.. بتقدر تحط كل خبزاتك بحضنها.. وما تخاف. يعني متل ما قلت لك.. الزعما نزعوها.. شوف شو عمل خالد العظم يللي كان رئيس وزرائنا بسوريا في الخمسينيات. أعلن القطيعة، وفصل اقتصاد البلدين وفصل العملة، وهذه أكبر جريمة ارتكبها بحق البلدين.. هذا الرجل كانوا يسمونه المليونير الأحمر، ثري كبير، ومن المؤكد أنه كانت له مصلحة بارتكابه هذه الجريمة، لماذا سموه المليونر الأحمر لأنه كان معجباً بستالين مع أنه كان رأسمالياً كبيراً. وكان يعاشر امرأة من دون زواج. وقصره هلأ بحي سوق ساروجة بالشام صار متحفاً للفنون الشعبية. وبعد ذلك صرنا نجيء إلى لبنان ببطاقة

اسمها الكرت الأحمر، حتى يعرفوا من دخل ومن خرج من أهل البلدين. قالوا في ذلك الوقت أن استحداث الكرت الأحمر لأسباب أمنية. بعد ذلك يا أخي جاء سليمان فرنجية وعقّدها أكثر، وصارت بطاقة الدخول لكل الطرفين إقامة ستة أشهر يخرج الواحد منا ويرجع بياخد ستة أشهر جديدة. ضحك عاللحى تسأله: حتى اليوم؟ يجيبك: يا سيدي حتى اليوم. ولكن أنا هلأ بهالوقت بخالف أحياناً. وأبقى في بيروت أكثر من ستة أشهر.. الأمن العام.. صار بيعرفني وبيغض النظر عني.. فأنا في شيخوختي لا أشكل خطراً على أحد.. وإذا سألني شرطي عن الإقامة أقول له: حط صباطك على هالصندوق، أنظفه جيداً ثم أضع عليه البويا المطلوبة.. وأضرب بالفرشاة الخشنة بعدين الناعمة جلد الحذاء ثم أفتح علبة الشمع وبرؤوس أصابعي أعمل.. ثم ألمعه حتى يصير كأنو جاي هلأ من الردشو.. فيتركني الشرطي ضاحكاً. وطبعاً لا يدفع لي.. أما إذا سألته كيف يعود إلى بلده..؟ فيقول لك بسيطة، أسافر للهرمل وأغوص بساقية مي تروي بساتين الحدودين.. وما هي إلا دقائق حتى أصبح داخل سوريا.. وإلى تلكلخ فسرفيس إلى ضيعتي.. يعني ساعتين زمان. ما في صعوبة. وبين الحين والآخر أرسل إلى الست الله يطول عمرها شوية مصاري مع شوفير أمين.. يعني صارت ختيارة أكثر مني فلا أريد لها أن تحتاج أحداً. وتسأله عن ابنه عامر، فيقول لك الله يرضى عليه.. السنة سيتخرج وسوف يعمل مع مهندس محترف لمدة سنتين كفترة تدريب عملية، ثم يمارس عمله كمهندس قدّ الدنيا. فتقول

له: عند ذلك ترتاح يا أبوعامر.. يعترض: لا.. لا.. أنا تعوّدت. وأنا أحب لقمة خبزي بعرق جبيني لا أحتاج إلى أحد. مهنتي ليست متعبة، مهنة ناعمة لا تحتاج جهداً.. الله يوفقو ويؤسس عائلة ويعيش سعيداً.

يقيم أبو عامر في شقة صغيرة. عبارة عن قبو في بناء قديم، خلف السفارة الكويتية، فإذا سألته أو سأله أحد رفاقه من العمال السوريين فيتبجح قائلاً في منطقة بئر حسن، ولكن إن كان السائل لبنانياً فيتعجب قائلاً له: شو.. هي منطقة غالية .. منطقة سفارات. فيتنازل أبو عامر قائلاً: يعني لتحت شوي.. خلف السفارة الكويتية. فيضحك الزبون اللبناني: يخرب بيت قلبك بين المنطقتين مسافة طويلة. قل يعني منطقة الرحاب فيجيب ضاحكاً: يا سيدي مافي فرق. المهم لك أن يكون عندك مكان تنام فيه ولو تحت شجرة.. على كل حال الله سترنا. ويعترف أن إيجار هذه الشقة التي كان يقول عنها بينه وبين نفسه إنها مثل الخان نحو مائتين وخمسين ألف ليرة. وإذا حسبنا الماء والكهرباء يصبح مصروفها أربعمائة ألف ليرة. من أجل ذلك تراه يتقرب من الزبائن الميسوري الحال عارضاً عليهم مسح أحذيتهم، بعضهم يقدم له حذاءه نوعاً من الشفقة. وبالفعل يعرف أبو عامر كيف يستعطف زبائنه.. وإذا وجد زبوناً مرتاحاً إليه.. يبدأ بالحكايا.. فهو موهوب في حكاياته.. سواء أكانت عن حياته.. أم حياة الآخرين. فيقول له آخر: يا أبو عامر تعلّم.. تعلّم، يمكن

تصير تكتب مسلسلات تلفزيونية أحسن لك من هالشغلة المشرشحة. فيجيب: ما بقى أكثر من يللي راح.. الحمد الله الله ساتر. وأما بنعمة ربك فحدث.. ثم يلتفت حواليه متأملاً العمال ويقول للزبون: هل تعرف يا سيدي أن كل هؤلاء العمال سوريون.. فيرد، طبعاً أعرف. مساكين.. لقمتهم مغمسة بالعرق والدم. هذا من جبل الزاوية، وذاك كردي من القامشلي، وهذا حامل صينية الفول من إدلب، كلهم معترين، فيشير أبو عامر إلى شاب وسيم يقف قريباً من الدرج الذي يصعد إلى سطح المقهى.. وهو أحد العمال ثم يقول: بتعرف إنو هالشاب طالب جامعي يدرس في الجامعة العربية حقوق ويعمل هنا نصف دوام. الرواتب هون قليلة.. وبعدين لا تأمينات اجتماعية ولا صحية.. بس العمال بيعتمدوا على البخشيش، يجمعه لهم المعلم شاتيلا. ثم يوزعه عليهم بالتساوي مع انتهاء العمل، كمان في شي منيح، المعلم شاتيلا يوفر لهم الطعام مجاناً. وهل واجهت صعوبة ما؟.. فينظر إليك بعينين دامعتين: أي والله يا أخي.. أشد حادثة مرت بحياتي حتى اليوم جريمة اغتيال الحريري، بكيت عليه مثل كل اللبنانيين. بس صار خطر علينا لما صارت تقول الأخبار أننا نحن السوريين الذين قتلناه. عيب، حدا بيقتل أخوه. ثم يكشف عن صدره: أنظر إلى هذه البقعة الزرقاء، وأشار إليها بأصابعه.. فتلمح ازرقاقاً في منتصف الصدر بانت بالعين المجردة، رغم أن صدر أبي عامر كثيف الشعر الأبيض، ثم يقول: تقدم مني شاب ووضع قدمه على الصندوق، دون أن ينظر إليّ. وعندما شرعت في مسح الحذاء..

بادرني فجأة: منين إنتي. قلت له: من سوريا، فإذا به يضربني بحذائه على صدري. فوقعت أرضاً، كان يصرخ بي: اغرب عن وجهي يا كلب.. قتلتوا الحريري وجايين تعيشوا ببلدنا. والله إذا بشوفك بكرا هون لأقتلك عالخالص..

يقول أبو عامر وقد امتقع لونه وهو يتذكر هذه الحادثة: والله خفت، وكانت الأخبار عم تصلني أول بأول عن الاعتداءات على العمال السوريين في كل أنحاء لبنان.. وكمان قتل عدد كبير منهن وجرح عدد أكبر وما حدا وداهن عالمستشفيات. وكثير من الزعران شلحوا العمال أموالهم وبطاقات الإقامة وتذاكر الهوية.. في الحقيقة أصابني رعب. ماذا لو نفذ الشاب وعيده وأنا في هذا العمر. هذه الشيخوخة يقتلوني مشان شو. مشان أنو السوريين قتلوا الحريري.. أنا بعرف هذا الرجل – الله يرحمه – أبو الفقراء. وقلت بنفسي: والله إذا كانت حكومتنا هي القاتلة سأتبرأ منها إلى يوم القيامة.. معقول.. هادا رفيق الحريري. إنسان طيب صاحب دين، هوي يللي أعطى أوامره لبناء جامع الأمين ببيروت وبناء جامع البهاء بصيدا.. كان يضهر من صلاة الجمعة وإيدو عم تعطي.. يا أللـه.. لماذا قتلوه.

بعد هذا التهديد اختفيت من المقهى أكثر من أسبوع.. وانتبه الحاج شاتيلا إلى غيابي، ظن أنني مريض، سأل عني: شو وينو أبو عامر. حكا واحد من العمال قال: خايف.. حدا هدده بالقتل.. فأرسل لي سامر، هذا الشاب يلي حكيت عنو بيدرس حقوق بالجامعة

العربية، لأنه يعرف أين أقيم. جاء.. وطلب مني العودة إلى المقهى وقال لي: لا تخف أنت منذ اليوم بحماية الحاج شاتيلا. وهيك رجعت للشغل.. لكن ظللت خائفاً، وصرت أتابع الأخبار منيح وبقرأ جرايد. لكن بقيت حذراً وخائفاً من شي واحد أزعر يفش خلقه فيي. صدقني هي حالة الرعب التي عم نعيشها كلنا. أنصح الشباب وأقول لهم: تعاونوا وابقوا مع بعض. حتى لا يستفرد فيكم شي واحد مجنون. ولقمة العيش صعبة، ما قدرتم الحصول عليها في بلدكم.. هادا البلد فتح لكم صدره.

ويسأله أحد زبائنه: طيب لماذا تصرون على البقاء هنا في لبنان؟ يجيبه أبو عامر: أنت لا تعرف أن ربع السكان في بلدنا عاطلون عن العمل بالرغم من المعونات التي تقدمها الحكومة للعائلات المستورة. ولكن مثل ما يقول المثل من الجمل أذنه.

يتحسر أبو عامر وتدمع عيناه، ويحب دائماً أن يوحي لأي زبون يحاوره فهمه في السياسة: كان يحب كميل شمعون.. رجّال قبضاي. إجا رئيس بالانتخابات. بعدين صاروا يجيبوا رئيس بالتوافق مثل فؤاد شهاب، وبعده شارل حلو، رئيس كانوا يقولون عنه أنه رئيس ضعيف. وأنا كنت شوفو رجال آدمي ومتعلم. وبعهدو فاتو الفلسطينيين على لبنان هرباً من الأردن، حيث خاضوا حرباً مع جيش الملك حسين وخسروها، فجاءوا إلى لبنان بأسلحتهم. يا أخي ما بعرف لماذا يستوطون حائط لبنان.. كل شيء بيدفشوه لعنده..

وصار بعهده اتفاق القاهرة يوم كان عبد الناصر على قيد الحياة، وصار وجودهم رسمي.. وانحشروا في الجنوب.. وهم كانوا يظنون أنهم من هناك سيحررون فلسطين.. ويا للعجب، بعد سنوات، وفي خلال الحرب الأهلية طردهم الإسرائيليون من كل لبنان. هيك كانت الأحلام.. كلنا نحن العرب بنحلم.. شي مرة من دون هالحلم خلينا نعمل شي.. لا مين شاف ولا مين سمع.. وكنت بحب رئيس وزراء تاني غير الحريري.. هو رشيد كرامي ابن طرابلس كمان هاد قتلوه.. يا حوينتو.

شوف يا عمي، أنا بحب بيروت أكتر من أهلها. بس هالبلد لا تؤاخذني، ولد ولادة قيصرية. ومنشان هيك بتصير فيه خضة كل عشرين ثلاثين سنة. أنا حضرت أحداث عام ١٩٥٨ يوم قامت الوحدة بين سوريا ومصر وأيام عبد الناصر، بل كان لبنان ينقسم إلى لبنانين بالرغم من الشعار الذي رفعه صائب بك: لبنان واحد لا لبنانان.. وقفت الحرب بدخول الأميركان بطلب من كميل شمعون.

شو.. أبو عامر.. بتعرف التاريخ منيح..؟!

أي والله يا أخي.. حروب وأحداث ورا بعض. هالبلد ما عم يرتاح. حاول القوميون يرجعوه لأمو سوريا لكن ما ظبطت وكان الضحية أنطون سعادة، قتلوه بمحاكمة سريعة. بس دفعوا الثمن غالياً.. اغتال القوميون رياض الصلح.. واغتالوا الملك عبد الله.. هيك كان هادا الحزب، الحلول عنده كلها بالسلاح.. بس بعتقد تربوا.

أحداث تتوالى من دون توقف.. يعني يا ترى، بعدين هل كان أقسى من الحرب الأهلية على لبنان.. تنذكر ما تنعاد. ميت ألف انسان ماتوا.. والحرب أفرزت انقسامات، صار في شي اسمه بيروت الشرقية وبيروت الغربية.. لهلأ.. لهذه الدقيقة ما بيئمنوا لبعضهم.. شو استاذ.. سبع عشرة طائفة.. كل طائفة بتقول لبنان إلها لها وحدها.. أنا شايف يا أخي متل مالي شايفك هلأ ما بيرتاح لبنان إلا بعد إلغاء الطائفية الانتخابية.

شو مثقف سياسياً يا أبو عامر.

أنا قلت لك إنني أقرأ وأسمع، حتى الحوارات السياسية على شاشة تلفزيوني الصغيرة.. أحياناً يضع رجل حذاءه على صندوقي ومعه صاحبه.. وبيتناقشو بالسياسة وأحياناً بيتشاجروا. كل واحد منهم برأي. وكل واحد متحمس لطائفته.. يعني يمكن يجي يوم وكل واحد بيوقف ضد الآخر.. يعني كل واحد مع طائفته.. وبيسحبوا سلاح على بعضهم.

ولا يدري أبو عامر، أنه أحياناً يكرر كلامه، مثله مثل المتقدمين في العمر، يعني خمسة وسبعين عاماً من التجارب وتراكم المعلومات والحكايا والأحاديث بعضها فوق بعض، فتختلط الأمور على أبي عامر وجيله من الختيارية، وتطلب منه المزيد:

أيام زمان يا أخي المسيحيين فئتين الأحرار والكتائب بيتنافسوا

بالانتخابات. وبيحرصوا على جعل لبنان بلداً مسيحياً، ومورانياً بالذات، وبقية الطوائف المسيحية ملحقة بهم. كان حزب الكتائب على زمن الفرنسيين فرقة كشافة.. وبتذكر بيار الجميل وهو يرتدي زي الكشافة بشورت قصير على ساقين نحيفتين، كأن هذا الرجل لم يكن يأكل، نحيف، طويل، وكان خصمه السياسي كميل شمعون الأنيق والوسيم. يا عمي هذا الرجل دافع عن الفلسطينيين بالأمم المتحدة. ويسأل زبونه: بتتذكروا قد يكون الزبون شاباً فلا يتذكر، وهنا يثبت له أبو عامر ثقافته السياسية فيتابع شارحاً له قوة كميل شمعون حتى سموه ثعلب السياسة في لبنان. بس يا أخي أنظف رئيس وزارة كان سليم الحص.. وأنظف – برأيي – رئيس جمهورية كان إلياس سركيس. بالحرب وصل شارون على بابو بقصر بعبدا. الكلب بدو يتحداه. الله يرحم إلياس سركيس مات من القهر.. مات من الذل.. مات رئيس جمهورية بالاسم، ماسمحوا له أن يمارس سلطته. وكانت عواصف الحروب تجتاح لبنان من كل جانب، يعني مات حزين على هذا البلد الجميل. هذا البلد يللي استبد فيه اليهود والعرب على حد سواء.

١٨

هي تلك حكاية هذا السوري المعجون بالذكريات الطيب منها والرديء. الجميع يعرفه في هذا المقهى، الذي هو أقدم مقهى شعبي إن صح التعبير في حديقة كبيرة ملاصقة للبحر وبجوار مسبح الحمّام العسكري الخاص بضباط الجيش اللبناني وعساكره. هذا المقهى أرضه ملك للدولة وهو جزء من الأملاك البحرية. هذه التفاصيل يعرفها أبو عامر جيداً، وكم تناول الحديث مع الحاج شاتيلا عن هذا المقهى، فيرد الحاج أن المقهى ليس ملكي.. عائلتي أباً عن جد استأجرته من الدولة.. يعني أنه استثمار يا أبا عامر. فيسأله: إلى متى؟ يجيبه الحاج شاتيلا: أموت ويبقى المقهى.

اعتبر أبو عامر مقهى وحدائق شاتيلا بيته الحقيقي، لأنه يقضي فيه معظم وقته، ويقول لمن يسأله: أحببت كل زاوية فيه. أحببت كرم صاحبه وزوجته التي تعمل إلى جانبه، أحببت موقعه المتميز

على البحر الأزرق، كما لو أنه جزيرة في وسط البحر.. البساطة.. والناس البسطاء، حيث فنجان القهوة أرخص فنجان على الشاطىء، ومنقوشة الزعتر فيه مع كأس شاي أطيب طعام وأرخصه. وإذا كنت خارجاً من المقهى، ولمحت إلى يسارك المطبخ، وجدته من أنظف مطابخ فنادق الخمس نجوم. تستطيع بعشر ليرات أن تأكل وتشرب الشاي وتشبع.

أحياناً يشتهي أبو عامر أن يأكل سمكاً. فلا يتردد المعلم شاتيلا في دعوته إلى غداء من السمك الطازج.. إذ يعرف أبو عامر أن الحاج شاتيلا متعاقد مع الصيادين الذين يجلبون له السمك من البحر إلى مطبخه. والحاج شاتيلا خبير بالسمك يعرف من السمكة إذا اصطيدت صباحاً أو مساء أمس، خبير بكل أنواع السمك. وإذا أكلت من عنده، أكلت سمكاً طيباً بأقل كلفة. والحاج شاتيلا يطبق قاعدة اقتصادية واضحة: إربح قليلاً تربح كثيراً. ويعتبر أبو عامر أن مقهى الروضة هو أنظف من كل المقاهي المنتشرة على الشاطىء من أول الرملة البيضاء حتى جونيه وما بعد جونيه، لذا تراه مزدحماً على مدى الساعة، خصوصاً في الأعياد والعطل الرسمية وأيام الآحاد.. عائلات بأسرها. الأب والأم والأولاد الذين يمرحون ويلعبون في هذه الحدائق الشاسعة على أجمل بقعة في بيروت تجاورها مدينة الملاهي إذا شاء الأولاد أن يلعبوا بأمان.. وإلى جانبه مسابح الطبقة الأرستقراطية من أهل بيروت. هنا وهناك في هذا المقهى وهذا

المسبح وهذه المدينة للملاهي كل من يعمل فيها هم عمال سوريون.. وهم الأرخص كلفة والأكثر اضطهاداً واحتقاراً، كأنهم سود في عالم الغرب الأبيض. هؤلاء العمال مستشارهم الأول والرئيسي أبو عامر.. يجيئون إليه ويستمعون إلى نصائحه وأين يجب أن يذهبوا.. ومع من يجب أن يتعاملوا، فيحذرهم: نحن السوريين أصبحنا مكروهين في البلد، ليس من فئة معينة، بل من لبنان بأسره، لا من أجل استشهاد الحريري وحده، بل من السمعة السيئة التي تركها الضباط والجنود السوريون وأجهزة مخابراتهم أيضاً، بما فعلوه في هذا البلد.. دخلوا منقذين وخرجوا جيش احتلال، بل فعلوا باللبنانيين ما لم يفعله جيش الاحتلال الإسرائيلي نفسه. وما زالت فضائحهم تزكم الأنوف، من سرقات وتعدّ على الحرمات واغتصاب نساء. يقول أبو عامر هذا الكلام همساً خوفاً من واشٍ فينصح من يسأله من هؤلاء العمال: هس.. اذهب إلى عملك أخرس. ولا تفه بكلمة فالحيطان لها آذان، وإذا استطاع أن يتوسط لأحدهم عند الحاج شاتيلا، نظر الرجل حوله وعدّ عماله. فإذا كان له من مكان فأهلا وسهلاً، يقول له كلمة واحدة: يا الله.. رح شوف شغلك، ولا أحد يدرك إلى أي حد يفرح هذا العامل أو ذاك إذا سمع هذه العبارة.

واحد من هؤلاء العمال السيد نور الدين إذ تقدم من أبي عامر مرحباً.. فاندهش أبو عامر لأنه يعرف هذا الرجل.. شو أستاذ.. شو جابك لهون؟أجاب الأستاذ: والله يا أخي أرشدوني إليك. أنا

من بلدك. ومن ضيعتك. فسأله أبو عامر: ومن أرشدك إلي؟ قال: ابنك.. الله يسلمو.. فوقف أبو عامر مرحباً. وعانقه كأنه يستنشق منه رائحة ابنه.. وسأله عنه، أجاب الأستاذ إنه بخير والحمدلله.. شاب رائع.. كله نخوة ورجولة.. رد أبو عامر: أشكرك.. ثم دق على صدره وهو يقول: هذا الشبل من ذاك الفارس.. لكان يا عمي الرجال ابن رجال.. بس يا أخي ما حدا بيترك وطنه إلا مرغم.. أي صحيح.. بس المعاش صار شحادة لا يكفي ثمن الخبز. ولو مئتي غرام لحمة في الأسبوع.. الفقر يشرش قاسياً في كل بيت. لا نستطيع أن نشتري للأولاد إلا من الملابس المستعملة.. يعني البالة يلي لبسوها أثرياء الدول الغنية وبعدين أرسلوها لنا.. منها ما لمّوه من حاويات الزبالة، قد ما غسلتها ما بتروح ريحتها. في تجار لمثل هذه البضائع.. يشترونها بثمن زهيد ويشحنونها إلى بلادنا.. أصبح لهذه المهنة شركات من كل العالم.. ولا تصلنا إلا زبالتهم.. هكذا الحال يا أبو عامر.. والفقر كافر متل ما بتعرف.. تدمع عيون أبو عامر. فهذا ابن بلده. وهذا معلم ابنه في الثانوية.. ويتأسف بنفسه أن تعير الناس بهذه الحال من الذل والبحث عن وسيلة أخرى لحياة أفضل.. حتى ولو عامل بناء أو غسل صحون في المطاعم. أو حتى في تنظيف المجارير. يتذكّر أبو عامر ذلك من خلال الذين عرفهم من العمال في بيروت وصفة العامل لا تنطبق عليهم، إنهم مثقفون، وخريجو جامعات لم يجدوا وظيفة في بلدهم.. كلهم يأتون إليه كأنه مختار حارة.. ولكن حارة كبيرة بسعة إدلب أو دير الزور أو الرستن.. أو

الحسكة.. هذه البلدان وأريافها تلفظ يومياً شبابها للسفر إلى لبنان، تحديداً للعمل أكثر من أي مكان آخر.

كان الأستاذ نور الدين يتكلم بحسرة وألم. وهو الذي تخرج في دار المعلمين. وتنقل من قرية إلى قرية معلماً للغة العربية التي عشقها وكتب بها شعراً يتغزل بوطنه وحنينه إلى أن يكون معلماً في العاصمة. يتمشى في شوارعها العريضة النظيفة، ويدخن النارجيلة في الروضة القريبة من مبنى البرلمان. أو يسهر في مقهى النوفرة أسفل باب الجامع الأموي. يستمع إلى حكايا أبي خضر عن أبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد.. أو ليالي ألف ليلة وليلة.

عندما كان يتاح لنور الدين زيارة الشام يحلو له السهر في هذا المقهى الشعبي بالذات حتى وقت متأخر. ثم يدخل إلى حمّام أبي أحمد المجاور ويترك جسده للصوبنجي يزيل عنه أوساخ العمر.. حتى كان الأستاذ نور الدين يعتبر أن حمام السوق أفضل من كل حمامات المنازل. حيث يخضع لأكثر من ساعة لرجل محترف يزيل عنه أوساخه بكيس خشن يسمى كيس الحمّام، ويكوّم إلى جانبه فتائل هذه الأوساخ كي يرى بأم عينه وسخاً يعجز حمام البيت أن يزيله عن جسده.. فيخرج من هذا الحمام وقد شعر أنه ولد من جديد نظيفاً نشيطاً، ثم يذهب إلى فندق رخيص في محلة البحصة، ينام ليلة ويستيقظ باكراً ويسرع إلى أول باص مسافر إلى درعا.. هنا، تبدأ رحلة الملل والألم في آن. الصف نفسه.. الكتب نفسها.. المدير

المتعجرف نفسه.. وآباء الأولاد الكسالى أنفسهم الذين يحملونه أسباب كسل أولادهم لعدم خبرته في التعليم.. وعندما ارتكب خطيئة العمر كما يصفها وتزوج، تزوج زميلة له في مدرسة البنات المجاورة، لم يعش يوماً معها بسلام. تضطهده لأنها مثله لها معاش، ولا تريد أن تشاركه في حاجات البيت. لأن هذا الراتب لا يكاد يكفيها، كما أنها تساعد والديها العجوزين اللذين ليس لهما غيرها مصدراً للعيش. شجار يومي وحبل وانتفاخ بطن.. رغبة منها في إجازة الولادة التي تبلغ أربعين يوماً مدفوعة الراتب.. وغير هذا وذاك، وجه عبوس. لا ابتسامة، لا فرح.. وشجارهما عالٍ يبلغ آخر بيت في الضيعة. وهو يقيم في غرفة من غرف البيت الطيني الذي فيه ثلاث غرف للنوم.. وهي غرف غير صحية يدخلها الغبار الخارجي من كل جانب، فسبب له مرض الربو.. الذي يجعله في سعال دائم. هذه الغرفة له ولزوجته ولطفلتيه الصغيرتين بينما الغرفة الثانية لشقيقتيه التوأمين، والثالثة لأبويه.. بيت محشور بساكنيه، وضيق لا تدخله الشمس إلا مواربة وفي الصيف تنز جدرانه رطوبة، أما في الشتاء فهناك دلف مستمر من ثقوب في السقف كلما أصلحها الأب.. عادت تدلف من جديد. فضلاً عن مأساة أخرى يتهرب نور الدين من الحديث عنها، وعندما يتذكرها يصاب باكتئاب شديد. هي أخوه الأصغر الذي يعاني عاهاتٍ تعيق نموه حتى أصبح يبدو عجوزاً في الستين، وهو بعد في العشرين من عمره.. هذا المخلوق الغريب، وحده يسبب مشاكل كثيرة لأهل البيت، انعكست على العلاقة بين الجدّين وكذلك بين

الشقيقتين التوأمين إضافة إلى نور الدين وزوجته، التي راحت تلح عليه في الانتقال إلى سكن آخر. ولكن كلما طلب مساعدتها من أجل ذلك رفضت.

كان نور الدين في الأصل قد ظن أن الزواج سينقله إلى حالة أخرى هرباً من الملل اليومي والتعليم، الذي بات يكرر مواده على تلامذته كالببغاء، من دون تعمق أو تركيز.

ضاق نور الدين ذرعاً بهذا الجو القاتم حتى أصبح الهروب يوم الجمعة إلى دمشق هروباً نحو عالم آخر، هروباً من قرية تعسة وجو زملاء مثله تعساء. وأتعس ما في أسرته وأسرة زوجته، النق على مدى الساعة. شجار عالطالع والنازل، تعالي الزوجة عليه لأنها تقبض راتباً مثله ولا تمد له يد المساعدة.. معللة ذلك على طريقة ثرثرة النساء: أليس الرجل هو رب البيت؟ فلماذا لا يستطيع أن يرتب أموره على هذا الأساس؟ وإذا كان يعجز عن إدارة بيت فلماذا تزوج وأنجب أولاداً؟

ظن نور الدين في بداية الأمر، أنه إذا تزوج معلمة مثله فباستطاعتهما تأسيس مستقبل زاهر لهما وللأولاد.. ولكن هذا الحلم فشل عندما صارت الزوجة تقول له أن لديها مسؤوليات.. وأنت لست أغلى عليَّ من أمي وأبي، كان عليك أن تعرف منذ البداية فلا تتورط ولا تورطني معك، اذهب واعمل في مهنة أخرى إذا كان راتب المعلم لا يكفينا، أنت مسؤول عنا. وباختصار أنت لم تتزوجني

لأنني امرأة جميلة حسبما كنت تسمعني من غزلك المزيف، تقول لي يا أجمل امرأة في الوجود، فلو كنت أجمل امرأة في الوجود، لما كنت عندك في هذه البهدلة. بل في قصر منيف وزوجة لرجل ثري، لا.. لست جميلة كنت أعرف حدودي. ولهذا كان طموحي أن أصل إلى مرحلة لا أحتاج فيها إلى أحد. فتعلمت وتخرجت في دار المعلمات. ولست بحاجة لا إلى زوج ولا إلى أولاد.. نعم. لقد تورطت معك.. والدليل أن كلينا ليس سعيداً مع الآخر.. ربما أقبل العيش معك على مضض بسبب ابنتينا لا أكثر ولا أقل.. فيرد عليها نور الدين بالنبرة الغاضبة نفسها: نعم.. أنت قمة في القبح.. ليس لديك من الجمال ولو إصبع من أصابعك المعوّجة التي كأنها أصابع رجل لا أصابع امرأة، نعم اقترنت بك من أجل معاشك.. من أجل أن يجتمع الراتبان لنؤسس بهما أسرة وبيتاً. جميع رفاقي لاموني لأنني تزوجتك أيتها القبيحة. ولولا راتبك ما كان لأي رجل أن يقترب منك. . ها أنا معك أتعس رجل في العالم. بت أقرف حتى من قبلتك ورائحة فمك.. بت أتحاشى النوم إلى جانبك.. لولا كأس العرق التي تساعدني أن أتخيلك سعاد حسني أو سلاف معمار أو شيريهان.. وعزاء لكل ذلك، أنعم الله علينا بأجمل من في الدنيا.. فكري في أولادك.. قبل أن تفكري في أبويك.. صحيح أنا لست أغلى من أبويك.. ولكن الأولاد أغلى مني ومنك ومن أبويك أيضاً. لا أريد راتبك كله، بل جزءاً منه للمساعدة على تربية الأولاد. لكن الزوجة تتحول إلى ما يشبه الشيطان، تجحظ عيناها ويبرز العرق النابض في

جبينها، بل تصبح نمرة شرسة تكاد تنشب أظفارها في وجهه وتقتلع عينيه. خاف منها فعلاً، وتراجع إلى الوراء مستنداً إلى الحائط وعينه على إبريق الماء، كوسيلة للدفاع. فيلمحان معاً الولدين وقد ارتعبا وراحا يبكيان. فيصبح بكاؤها كسطل ماء يلقى فوق الحريق. أما في غيابهما فيتعالى إذ ذاك صراخها في وجهه: سيأتي يوم وألقي بولديك في وجهك حتى تصبح معهما الزوج والزوجة في وقت واحد، رجلاً في المدرسة وامرأة في البيت.. وهذا ما أراه الآن بأم عيني يا ناكر الجميل.

يهدأ نور الدين وهو دامع العينين. ثم يستغيث بأبي عامر: قل لي بربك ماذا أفعل؟. ها أنا هارب من ذلك الجحيم، وقد تركت الولدين بعهدة أمي وجئت إليك مستغيثاً.. بعرضك يا أبا عامر.. أي عمل في أي بناية ولو كناساً في الشارع. الدخل هنا بالدولار، يعني الدولار يساوي خمسين ليرة. كل راتبي في الضيعة عشرة آلاف ليرة.. مع مساعدة طفيفة للولدين. الدولة تعرف كل شيء عن مواطنيها يا أخي.. وتعرف أنني متزوج معلمة مدرسة لها، مثلي، معاش شهري، فلا نحصل على تعويض كامل عن الأولاد.

نظر أبو عامر ملياً إلى وجه ابن ضيعته مشفقاً عليه، لكن الأستاذ نور الدين يسرع ليقول: ولو بويجي. فيرد أبو عامر: عيب يا أخي.. عيب. أنت أستاذ، معلم الجيل، وتصبح بويجي. ثم إهانات من بعض الزبائن لأنك سوري. أصبحت جنسيتنا لعنة في هذا البلد.. روّق أخي نور.. ارتح.. ستنزل ضيفاً عندي في البيت، فدهش نور

الدين وسأله: عندك بيت.. يا سلام.. فرد عليه أبو عامر ساخراً: أي نعم ليس بيتاً.. إنه قصر.. أجاب نور الدين بالسخرية نفسها: والله كنت أقول في نفسي أن البويجي بيحصل مصاري أكتر من رئيس الوزارة.. مهنة مخفية مين بيعرف أن عند أبي عامر بيت.. وأين.. في بيروت؟.. حاول أبو عامر أن يعيد دفة الحديث إلى موضوعيتها. فقال: يا أخي.. بيت كثير متواضع.. غرفة واحدة ومدخل وبالأجرة. بس لا تخف.. بيت الضيق يتسع لألف صديق.. ستنزل ضيفاً عندي.. أنا بنام عالبساط وإنتي بتنام على التتخيتة. فسأله: شو هي التتخيتة؟ أجابه: يعني شيء مثل السرير.. عالي شوي عن الأرض.. هل يهمك المكان؟. المهم أن ينام الواحد مرتاح.. نعم ستكون مرتاحاً كأنك نائم في الفينيسيا.. وشو هاد الفينيسيا يا أبو عامر؟ هادا أفخم أوتيل ببيروت الليلة الواحدة فيه بألف دولار.

لدقائق.. ران صمت بين الرجلين، ربما كل منهما يتأمل ما آلت إليه أوضاعه.. ثم سأل أبو عامر نور الدين: هل أنت جائع؟ فرد نور الدين: أي والله.. بس خجلت أقول لك.. لا.. لا تخجل أنت ضيفي حتى تجد عملاً. تعال.. اجلس الآن، سأطلب لك منقوشة زعتر وكاسة شاي.. أهلاً وسهلاً.. ثم ضحك بصوت عال: أهلاً أهلاً ونزلت سهلاً.. وأشار بيده إلى السوري طالب الجامعة، فاقترب، فقال له: هذا الرجل من عندنا.. وعلينا أن نساعده ونجد له عملاً.. رح.. وصّي له بمنقوشة زعتر وشاي.. أنا سأدفع.. قال الشاب: عيب. خليها علينا.. والمعلم ما بيبخل.

١٩

عندما بدأ ظلام الليل يغزو المكان اصطحب أبو عامر ضيفه نور الدين إلى قصره المنيف، وقد ساعده على حمل الكرسي الذي يجلس عليه أثناء عمله، فعلّق أبو عامر أن هذه عدة الشغل، وأن المعلم شاتيلا كان يقول له اتركها في المخزن فلا أرضى. يا أخي قد تكون ماشياً إلى المقهى فتعثر على زبون في الطريق يطلب منك مسح حذائه، فأفعل، هذه رزقة غير متوقعة. وكثيراً ما يحدث معي ذلك. وزيادة الخير خير.

تمشيا معاً على مهل. وما أن أصبحا قريباً من الرملة البيضاء حتى بدا على الأستاذ التعب. وكان يلهث بصعوبة.. فيبادره أبو عامر: ولو.. بعدك شاب يا أستاذ.. شوف أنا بعمر جدك لا تعب ولا لهاث.. فيرد عليه نور الدين: أنت تعرف أن المدرسة في الضيعة قريبة من البيت، خمس دقائق، هذا أطول مشوار مشيته في الضيعة..

ثم سأل: هل اقتربنا؟ قال أبو عامر: على وشك.. يعني نصف الطريق. فرد نور الدين: العمى بقلبك أبو عامر.. لماذا قصرك بعيد عن مكان عملك إلى هذا الحد؟. قال أبو عامر له: يا أخي اصبر قليلاً، يخطر ببالي الآن القرآن الكريم.. لا تسألني.. إنك لن تستطيع معي صبراً. فعلق الأستاذ نور الدين: شو بحسب حالك سيدنا الخضر أبو عامر؟ أجابه: لا.. لا لا أبداً.. بس كثرة الأسئلة بتجيب البلا. وقد لا تجد لها جواباً، يا الله.. امشِ.. واتكل على الله.

ومشيا، صندوق البويا معلق بكتف أبي عامر.. والكرسي الواطىء يهتز بيد الأستاذ.. إلى أن وصلا إلى مكان مظلم يقع خلف محطة بنزين الرحاب. فنزل أبو عامر إلى قبو أحد الأبنية القديمة، وأشعل عود ثقاب وفتح باباً أزّ كثيراً لقدمه، ثم التفت نحو الأستاذ قائلاً له: تفضل أستاذ، وما أن خطا نور الدين إلى الداخل حتى شم رائحة عطن كريهة فحاول أن يتراجع.. لكن أبا عامر شده من يده.. ادخل.. لا تخف وكبس زراً جانب الباب فاشتعلت لمبة كهرباء تشبه لضعفها شمعة تنوص. والتفت ثانية نحو نور الدين مرحباً به: أهلاً بك في بيتك.. على الرحب والسعة.. اخلع حذاءك وادخل إلى الزاوية ستجد مغسلة اغسل وجهك وارتد منامتك وارتح ريثما أصنع لك إبريقاً من الشاي. وتلفت الأستاذ حوله يتأمل هذا «القصر» الذي لم ير مثله في حياته..

استلقى على طرف التخت وتنفس الصعداء.. وكأنه كان في

الجحيم لطول هذا اليوم في السفر حتى وصوله إلى بيروت. وإلى محطة أبي عامر في مقهى الروضة، ثم الآن في هذا القصر الذي يشبه قصور ألف ليلة وليلة وافتح يا سمسم.. ثم فتح حقيبة صغيرة كان يحملها وأخرج بضعة كتب وأوراق وضعها جانباً فسأله أبو عامر: ما هذه؟. قال: كتب من شعر نزار قباني.. أحببت هذا الشاعر منذ كنت يافعاً.. وكنا في دار المعلمين نتابع أخباره، خصوصاً بعد استشهاد زوجته وحبيبته بلقيس في حادث تفجير السفارة العراقية في بيروت.. كان حادثاً رهيباً تابعناه بألم وحزنا عليه كثيراً.. بدي أسألك أبو عامر: هل كان نزار قباني زير نساء؟ أجابه: حرام عليك يا رجل. حرام عليك.. لكن لكل شاعر كبير معجبات ومعجبون.. ونزار بالذات معجباته أكثر من معجبيه. حتى لقبوه بشاعر المرأة. فسأله نور الدين: هل تعرفه..؟ قال له: لا.. أبداً.. يا ريت.. بس كنت أتابع أخباره في الصحف والمجلات.. ثم قال له: التفت إلى الخلف، فالتفت، قال أبو عامر: هذه صحف ومجلات قديمة فيها كل شيء أحتفظ بكل ما أثار انتباهي فيها. ثم مد يده وسحب مجلة، فكانت مجلة الأسبوع العربي، وقلّب أوراقها ورقة.. ورقة. إلى أن فتحها على صفحتين في الوسط، ثم قال له: انظر يا أخي، هنا ترى ما كتبته الصحف عن رحيل الشاعر عام ٩٧.. وفي هذا التحقيق، ترى لأول مرة أن نساء شاركن في جنازته في الشام.. وهذا ما لم يحدث سابقاً لا لعظيم ولا لصعلوك. فعلق الأستاذ: أي والله يا أخي.. عندما مات حزنت عليه كثيراً.. وكانت زميلات لنا في دار المعلمات ندبنه أياماً..

وأنا في الأصل متأثر بشعره.. هل تريد أن تسمع؟ قال أبو عامر: أسمع ماذا؟ أجاب نور الدين: قصيدة كتبتها أنا عن الشام.. التفت أبو عامر نحو نور الدين مندهشاً وسأله: وتكتب شعراً أيضاً؟ أجاب: أي والله أبو عامر.. شو.. مش عاجبك.. قال أبو عامر: لا.. أبداً.. ما في حدا أحسن من حدا.. قال الأستاذ: بحلم أن أصبح بشهرة نزار قباني.. مين بيعرف.. فرد أبو عامر: صحيح.. مين بيعرف.. وأسمعه مثلاً شعبياً.. كل واحد مخبّا تحت تيابه.. شوف يا أستاذ.. أنا بحب الشعر.. لا تقول لحالك إني شقفة بويجي.. بعجبك.. قال الأستاذ: أعوذ بالله أبو عامر.. أعوذ بالله.. فقال له أبو عامر: هات لنشوف.

استند نور الدين إلى الجدار كمن يتخذ وضعاً يشبه وقفة شاعر وراء ميكروفون. ثم أخذ يقرأ بصوت هادىء وبطيء:

نبية النهر

الجسد بياض عيني

والشعر حدقتي

حبيبة عمري

قوافل شعري ينظمها شجني

فتجري أمواه من ألقي

نبية النهر الجاري

في السهل المحترق

إليك كم طال انتظاري

وبك كم زاد

وجدي وتعلقي

لو أتيتِ وقت الأسحار

وقت ذوب الفجر في الغسق

لسألت

من تراه الذي

رسم عينيك بالأفق

وطني هذا

وهذا مقري الدمشقي

على إشراقة خديك

علقت أزهاري

وفي بركة عينيك

فاح الياسمين بالعبق

وطن جدول الحنين الجاري

وفي الليوان تذكاري

وموقد ناري

وديباجي

أنت سفيرة شعري

إلى المغرب والمشرق

كل الدنيا أنت

ووطن عيني

أبداً.. لن تفارقي

صمت نور الدين متأملاً أبا عامر، وإلى أي مدى أثّر شعره فيه، كان أبو عامر صامتاً يداعب بأصابعه لحيته الكثيفة البيضاء، لم يعط جواباً.. إلى أن قال: شوف يا أستاذ نور الدين.. أنا ما بفهم بالشعر.. أرجوك عد واقرأ لي من جديد.. وبهدوء أكثر.. وبصوت أعلى.. محسوبك سمعه ضعيف.. فانبرى نور الدين يسأله: يعني.. ما كنت عم تسمع..؟ لا.. لا لا والله.. بس بدي أتمعن أكتر. فعاد نور الدين يقرأ على نحو أبطأ، وعندما انتهى سأل أبو عامر: شو.. عجبتك؟ رد أبو عامر: بدك الحقيقة، حسّيت في شي مخربط.. يعني.. ما تزعل مني.. ما تجاوبت معك.. يمكن لأني جاهل ما بفهم بالشعر.. بس يا أخي في شيء مو مفهوم.. في شي بحاجة لإعادة كتابة.

غضب نور الدين وقال: إنتي شو بيفهمك بالشعر.. الحق عليّ يللي قرأت لك.. لم يرد أبو عامر.. أخذه بطولة البال. ثم قال له: لازم تقرأ شعر كتير.. إذا بدك فعلاً تصير شاعر.. هاد يللي سمعتو منك ما بيكفي. ثم أشار بيده اليسرى إلى رفّ آخر وقال له: شايف هالمجلد الكبير. اسمه.. «المستطرف في كل فن مستظرف» لا أبالغ إذا قلت لك قرأته عشرات المرات، بل مئات ولا أملّ منه. هو فيه كل شيء يخطر في بالك.. وأنا عندما أصبحت شيخاً عجوزاً. وصار شعري أبيض كما ترى.. حفظت معظم ما كتبه الشعراء عن العجز والشيخوخة والشعر الأبيض أردده لأي سائل وبيني وبين نفسي أيضاً، فلا آسف.. الحياة لها بداية ولها نهاية. وأنا الآن، كما ترى.. يا مصبح يا مماسي وأما أنت، ربما، في منتصف الطريق، يعني ما زلت شاباً.. وبنصحك ما تسمّع هالقصيدة لحدا أحسن ما يضحكوا عليك.. بس يا أخي، كانت النصيحة من زمان بجمل.. هلأ، بيزعل منك يللي بتنصحو. شو رأيك؟ قال نور الدين: لأ.. ما بزعل.. قل شو في عندك.. يعني يا أخي. لا تؤاخذني. حسيت فيها شي ضعيف.. لا تقلل من أهميتي.. أنا ماسح أحذية صحيح.. بس بفهم وبحس. الشعر فيه شوية موسيقى.. شوية إيقاع.. وهذا افتقدته بقصيدتك.. خذ هالنصيحة واقرأ.. اقرأ دائماً.. اقرأ بكل شي.. وبعد ذلك أكتب.

صُدم نور الدين، وقال في نفسه: العمى بقلبه.. أنا خريج دار

المعلمين.. وهادا هالأمي تغلّب عليي. وربما أدرك أبو عامر ماذا يدور في خلد ضيفه، فقال له: شوف يا أخي الحجر يللي ما بيعجبك بفجّك: هل تريد أن تسمع ما حفظت من شعر. قال نور الدين متبرماً: هات لنشوف. فاستند أبو عامر إلى الجدار ومدّ ساقيه إلى الأمام. ثم قال له اسمع: قال ملك الموت للنبي نوح: كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان، فأقام في وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني. يعني الحياة يا أخ نور الدين عبور من مكان إلى مكان.. واسمع نصيحتي قالها حكيم عربي: أطع أكبر منك ولو بليلة. فتضايق نور الدين وقال له: كفى.. كفى.. اقرأ لي ما تحفظ من شعر فقط.. فردّ أبو عامر: إي.. إي.. لا تعصب. ثم أنشد:

يـــا عـــامـــر الـــدنـــيـــا عـــلـــى شيـبـه

فـــيـــك أعـــاجـــيـــب لـــمـــن يـــعـــجـــب

مـــا عـــــذر مـــــن عـــــمَّـــــر بـــنـــيـــانـــه

وعـــــمـــــره مـــــنـــــهـــــدم يـــــخـــــرب

فسأله نور الدين: لمن هذا الشعر؟ أجاب: والله لا أعرف.. لكن اسمع لشاعر آخر اسمه ابن المعتز.. أتعرفه؟. لا.. قال نور الدين. ولم أسمع به. فرد أبو عامر متهكماً: إذا هذا الشاعر ما بتعرف عنه شي.. لشو عم تكتب شعر؟ طيب.. طيب.. رد عليه نور الدين، اقرأ يا أخي.

فأنشد أبو عامر:

فظللت أطلب وصلها بتذللِ
والشيب يغمزها بأن لا تفعلي

ثم أنشد للشاعر نفسه:

رأين الغواني الشيب لاح بمفرقي
فأعرضن عني بالخدود النواضر

صمت أبو عامر لحظة ثم أنشد:

سألتها قبلة يوماً وقد نظرت
شيبي وقد كنت ذا مال وذا نعمِ
فأعرضت وتولّت وهي قائلةٌ
لا.. والذي أوجد الأشياء من عدم
ما كان لي في بياض الشيب من أربٍ
أفي الحياة يكون القطن حشو فمي؟

ثم أنشد:

عريتُ من الشباب وكنت غضّاً
كما يعرى من الورق القضيبُ
ونحتُ على الشباب بدمع عيني
فما نفع البكاء ولا النحيبُ

فـيـالـيـت الـشـبـاب يـعـود يـومـاً

فـأخـبـره بـمـا فـعـل الـمـشـيـبُ

تثاءب نور الدين مللاً، فردّ عليه أبو عامر: نم.. نم.. والصباح رباح. وإن شاء الله نجد لمشكلتك حلاً.

٢٠

لم تنسَ الرواية خالداً. فهو لم يشف من حزنه على أخيه وأبيه، حدسه شكك في مرويات أمه عن أبيه، وخصوصاً هربه بالمال إلى حلب ليتزوج شابة صغيرة. فقد كان خالد يعرف أخلاق أبيه، صحيح أنه لم يكن سعيداً مع أمه الثرثارة، لكنه كان أباً حنوناً على أولاده وأهله وعشيرته، فهو إما أنه تعرض لحادث، وإما قتله بعض الزعران واستولوا على ما معه من مال، فلن يصدق أمه من خلال شكوكها في أبيه. لكنه اعتبر اختفاء أبيه مثل اختفاء عدد كبير من السوريين انتقاماً لاغتيال الحريري، فالمفقودون والمختفون من العمال السوريين كانوا بالمئات، اختفوا إما على الطرقات، وإما في أماكن عملهم، وإما قتلوا ودفنوا في مقابر مجهولة، وإما تُوجر بأعضائهم. فقد كان لهذا الموضوع أيضاً تجار خفيون يتاجرون بأعضاء الإنسان ليس في لبنان وحسب، بل عبر العالم. إنها المافيات التي تتواصل في كل مكان.

لكن ما كان يخفف من هذا الحزن المشرش في أعماق خالد حتى

لتبدو دمعته المتحجّرة في قلب عينيه، كأنها جوهرة تأبى السقوط، هي، سلمى. إنها ابتسامة فرح في كل هذا الحزن فكلما رآها ذاهبة إلى الجامعة، أو عائدة إلى بيتها يغص قلبه كما هي دمعته، العصية، أيضاً، على السقوط. إذ ظلت شغله الشاغل، بل لم يعد قادراً على فراقها. يقول فراقها في أعماق نفسه، لكنه يعرف أنه لا يعني لها شيئاً، يحدّث نفسه أن بقاءه ناطوراً في هذا المبنى أصبح كل حياته ومصيره، فحرص أشدّ الحرص على أن يحبه ساكنوه، بل وكرمى لعين سلمى، أصبح خادماً – ليس لها ولأهلها، بل لكل السكان صغيرهم وكبيرهم، داخل المبنى وخارج نطاق عمله، كإصلاح نافذة مكسورة ورفع طاولة من هذه الزاوية إلى تلك، ودفع خزانة ملابس من هذا الجدار إلى الجدار المقابل.. لقد استغله سكان البناية أقصى الاستغلال. فهو شاب سوري بحاجة إلى العمل، وبحاجة لأن يعيش. وهم يعرفون هذه العقدة. فما عليهم إلا أن يأمروه فيمتثل لأوامرهم، ولم يكن ذلك كله يهمه بقدر ما يهمه أن يبقى في عمله، حارساً لهذا المبنى العملاق، وحارساً لعواطفه التي تتأجج يوماً بعد يوم إلى حد الاختناق. حارساً لهذه العواطف لئلا تثور عليه، فيفقد كل شيء دفعة واحدة. كان يسأل نفسه ماذا لو اعترف لها أنه يحبها، يحبها فقط، يحبها من دون أي أمل، يحب أن تبتسم له، أن تصافحه ولو مرة واحدة، أن تقول له مرحبا.. كيفك خالد، ولو لمرة في العمر أيضاً، لا يريد أكثر من ذلك. هو يعرف أنه تحت وهي فوق، ولكن ما ضرّها

لو عرفت أنه يعبدها، لا يريد أكثر من ذلك، عليها أن تعرف أنه لا ينام وهو يفكر فيها، وأن وجهها المضيء، يضيء ظلام غرفته كأنها شمس تدخل بكل إشعاعها فوق روحه.. فعلاً.. ما ضرّ أن تعرف؟ هل تتقدم منه وتصفعه؟ هل ستقول له غاضبة: مين إنتي.. شو.. مين جابك لهون؟ وتذهب إلى أبيها غاضبة تشكو إليه كيف اجترأ هذا الناطور السوري أن يقول لها أحبك.. يا للحب! كم باسمه يُهان رجال وتنتحر نساء.. هكذا كان يخيل إلى خالد.. تخيل أن تقف أمام أبيها باكية: بابا.. هذا خالد.. واحد مجنون.. قال لي عند مدخل المصعد إنه يحبني.. تصوّر يا بابا هذا السوري يحبني.! ماذا ستكون ردة فعل الأب؟.. من المؤكد أنه سيطرده. ويفقد نعمة رؤيتها كل يوم.. نعمة عطرها. نعمة شعرها المنسدل على كتفيها بنعومة سرب من الفراشات.. نعمة فساتينها الجميلة التي تتبدل كل يوم، نعمة سروالها الجينز المشدود على ساقيها.. بل، سيفقد رنة كلمة «ميرسي» بعد غسل سيارتها وتنشيفها براحتيه.. وكم قبّل خفية، مسكة باب السيارة حيث تُمسك بها عندما تفتح هذا الباب، تدخل إلى وراء المقود، تجلس كشجرة ياسمين، وتنحني قليلاً كي تضع المفتاح وتدير محرك السيارة، الذي يصل صوته إلى أذنيه ناعماً، وبخلاف بقية السيارات العابرة، التي تحدث ضجيجاً هائلاً يفسد عليه صمت المكان.

تفاصيل كثيرة صار يراها خالد بوضوح. وهي، هي التي اسمها سلمى.. اسم عذب كالأغنية العذبة، هي غير منتبهة له بالمرة، بل لا

تكاد تنظر إليه ولو لمحاً. ولو برمشة عين.. كل مرة يحاول أن يلفت نظرها ولكنه لا يعرف كيف؟

بدأ يعتني بنفسه، فيرتدي ملابس نظيفة، وصار كل شيء من حوله نظيفاً، ومرة اشترى شتلتي فلّ فوضع واحدة إلى يمين المصعد وواحدة إلى يساره.. ولكن ذلك كله لم يلفت انتباهها هذا الرجل المسكين، الذي يذوب عشقاً ذوبان الشمعة المشتعلة.

بدأ خالد يضيق بهذا الحب، أصبح يعذبه عذاباً مريراً.. ينغز قلبه كالدبابيس.. فهو الآن، في هذا الضجيج الداخلي الذي يتفوّق على ضجيج الشارع أمام خيارات مرة: إما أن يترك الشغل.. وإما أن يُشوى بجمر هذا الحب الذي يأكله بشراهة. وإما أن يجرؤ ويعترف.. وتلك هي ثالثة الأثافي فماذا ستكون ردة فعلها؟ تخيل أنها ستضحك.. أو ربما تظن أنه يريد المزاح.. أو في أحسن الحالات ستقول له لماذا لم تعترف من زمان يا خالد؟.. يا مجنون.. وأنا أحبك..

تصوّر أن هذا يمكن أن يكون حقيقة، فراح يدور على نفسه نشوان.. تماماً كما يدور المتصوف المولوي بثوبه الفضفاض وطربوشه الأحمر.. لن تسعه الفرحة من هذا الحلم لو تحقق.. لكن عندما هدأ وعاد إلى وعيه.. استبعد ذلك كله، بل شعر أنه إنسان عجوز، فهي في الخامسة والعشرين وهو في التسعين، مع أنه في تذكرة الهوية في الثلاثين.. انتبه في لحظة من اللحظات.. أنه كلما تذكر سلمى ارتجف وارتفعت درجة حرارته، كأنه مريض.. بل هو

يرتجف من دون توقف. لا.. لا بد أنه مريض.. هل الحب مرض؟ بل مرض لا شفاء منه إلا بالجنون أو الموت. خاف.. هل يموت من الحب؟ سمع كثيراً من القصص أن هناك من يموت من الحب.. ألم يسمع ذلك من حكواتي مقهى الضيعة: أن في قديم الزمان.. كان هناك رجال يموتون عشقاً.. أو يسيحون مجانين.. أليس مجنون ليلى واحداً من هؤلاء؟. ليعلم القاصي والداني أنا خالد، هذا الفارس السوري أجن عشقاً بسلمى.. بل أموت عشقاً بسلمى.. يا سلمى.. يا سلمى.. انتبه إلى أنه يصرخ مردداً اسمها، استحى: يا أيها المسكين أإلى هذا الحد؟!

لا.. لا.. أنا مريض فعلاً.. ربما تعب في القلب، ربما دماغه.. يحس بأن دماغه يشتعل، وبأن صداعاً ينتابه من دون توقف فيمسك رأسه براحتيه.. لعل هذا الصراخ يتوقف في دماغه.. لعله يهدأ ولو قليلاً. قليلاً عند النوم. ولكن هل هو يستطيع أن ينام؟! لا ينام. أصبح هذا الحب جحيمه ومقتله، إما أن يعترف وإما أن يترك هذا العمل إلى غير رجعة.

هه! ها هي.. إنه كعب اسكربينتها يقرع فوق رخام المدخل، إنه يشم عطرها المميز، ها هي بوجهها الأجمل من الجمال، بعينيها البراقتين.. بفمها القرمزي الساحر.. ها هي تدخل وبضعة كتبٍ تحت إبطها ويدها الأخرى تعبث بالموبايل، سبقها إلى طلب المصعد، لم تأبه له، لم تلتفت نحوه، كان في كل مرة يعرف موعد عودتها من الجامعة.. يكبس زر المصعد خاصة الطبقة الثالثة عشرة كي يطول

وقوفه إلى جانبه والمصعد يهبط، دوراً بعد دور. المصعد يهبط بهدوء وقلب خالد يدق كالطبل، سيقول لها، وليكن ما يكون لتصفعه على وجهه، لتدفعه بقسوة بعيداً عنها.. سيظل يردد من دون توقف: أحبك.. أحبك.. أحبك.

وفي لحظة خاطفة رنّ هاتفها، فالتفتت نحو خالد وطلبت إليه الإمساك بكتبها، فأمسك بها. ابتعدت عنه وهي تتكلم.. التقط بضع كلمات «بشوفك بالجامعة بكرا الصبح.. بالنادي.. بنشرب قهوة معاً.. اسمعني.. مابدي حدا يكون معنا. أنا وأنت بس» ثم أغلقت الهاتف.

سمع خالد كل هذه الكلمات وترددت في رأسه كالصدى عدة مرات: «يا مجنون.. مين إنتي؟».. اقتربت سلمى منه بخطوٍ ثقيل كأنها تدوس قلبه، مدت يدها لتأخذ كتبها، ولأول مرة تلتقي عيناها عينيه، وعوض أن تدخل إلى المصعد.. سألته إن كان مريضاً.. لم يستطع الإجابة. خَرس. كأن لسانه قد انقطع. عادت وتأملته من جديد: شو خالد.. قل لي هل أنت مريض؟.. ظل صامتاً. قالت: عيناك كالدم. فظل صامتاً مرتبكاً «لو تعرفين ما هو مرضي. لو تعرفين أن حياتي كلها لك». والمفاجأة أن وضعت يدها على جبينه.. أنت ساخن يا خالد. لم يصدق.. وقع في حيرة.. كانت تنظر إليه بقلق من يخاف عليه.. بلع سعادته كالشوكولا.. بلع سعادته إلى عمق قلبه. وشعر بأن النار بدأت تسلخ جلده عن عظمه.. قالت له مستغربة:

شو بك.. حاكيني.. حخلّي بابا يبعتك عالحكيم.. ثم دخلت إلى المصعد..

ظل واقفاً أمام المصعد كالصنم، مرتبكاً، ومنزعجاً من تصرفه الأحمق: «أيها الجبان.. كانت تلك فرصتك.. ماذا لو أجبتها أنك تحبها؟..».

شعر خالد في هذه اللحظة بدوار شديد وكاد يتهاوى. كانت سلمى متعاطفة معه، بل أبدت اهتمامها به. وربما كانت مستعدة لأن تسمع القول الفصل، وأن تعرف أن هذه النار التي تتّقد في جبينه ووجهه وقلبه ما هي إلا نار الحب.. نار الأشواق.. نار أن يضم رجل امرأة يحبها إلى صدره. نار أن يجد الإنسان صنوه في هذه اللحظة المربكة بالذات: «إي سلمى.. أنا مريض.. مريض جداً.. وسأشفى إذا اعترفت.. إذا اعترفت أنني أحبك»..

وضع يده على جبينه حيث وضعتها، فتحسس موقع أناملها الرقيقة التي كانت برداً وسلاماً.. أناملها على جبينه التي أوقفت هذا الاحتراق من أن يقتله. من أن يلسع قلبه بسياطه.. هذه اللمسة الخاطفة أعطته إحساساً آخر يشبه الاستيقاظ من كوما. من كوما امتدت سنوات. فشعر بأن عينيه انفتحتا على شيء جديد في حياته، شيء لا يمكن وصفه.. شيء من الدعة.. والاطمئنان.. والشعور بأن ثمة جمالاً قد لا ننتبه له لا يحوطنا إلا في اللحظة الأخيرة.

قال خالد لنفسه: كل هذا يكفي.. احذر أن تخطىء. احذر أن تفقد السيطرة على نفسك وتبوح. لأنك لا تعرف كيف ستكون ردة فعلها.. ألم تسمع مواعدتها لهذا الشاب المجهول في الجامعة؟ هذا الشاب الذي تريد أن تراه وحده من دون أحد آخر؟! لا شك أن بينهما علاقة ما.. ربما هي تحبه..؟! ربما هو من طبقتها، ابن ثري من الأثرياء. جميع طلاب الجامعة الأميركية حسب ما كان يسمع من أبناء الأثرياء. ولا بد أن هذا الذي سيراها غداً في نادي الجامعة سيبوح لها بحبه.. ربما هي أيضاً تحبه.. قد ينتظران التخرج ليتزوجا. إذا تزوجت فهل ستترك بيت أبيها؟ لا.. لا.. بيت أبيها يشبه القصر.. لقد ضم الأب كما هو يعرف الشقق الثلاث في الطبقة الأخيرة وجعل منها بيتاً واحداً.. لا.. بل قصراً بكل مقاييس القصور.. ولن يتركها الأب تخرج من بيته.. إنها وحيدته وهي التي سترثه.. سترث هذا المال كله.. والله تستحق.. تستحق كل مال الدنيا.. تليق بها الكنوز والجواهر.. تليق بها القصور والحقول والجبال وكل ما هو جميل ورائع.. أما أنت يا خالد.. فليس لك إلا هذه الغرفة في هذا القبو تعلك فيه أحزانك.. وقد لا تستطيع بعد زواجها أن تراها، كما تعودت أن تراها، هنا، كل يوم. كيف صارت تنزل من سيارتها وتعطيك مفتاحها كي تنظفها من الداخل والخارج.. كيف تعودت شم رائحة عطرها حتى أعماق رئتيك.. كيف تعودت سماع طرطقة كعب حذائها الرفيع كأنها ترقص.. فعلاً كانت تدخل المبنى كأنها

راقصة. تتمايل كما تتمايل شجرة الليمون الصغيرة في الهواء العابر يأخذها يميناً وشمالاً.

ثقفته أحاسيسه. رفعت مستواه، صار، بوجودها، كل شيء جميل.. هل حقاً الحب يثقف إلى هذا المستوى؟ صار يشتري كتب الشعر خلسة ويقرأها، ويحفظ بعض الشعر لعله يجيء يوم، يوم من أيام الحلم، ويقرأ لها ما حفظ من الشعر.

صحيح أنه ناطور بناية، لكنه يمتلك أحاسيس ليست لدى أي رجل آخر.. صار يترنم في غرفته أسفل البناية مردداً الأغاني العاطفية.. أغاني عبد الحليم حافظ وعاصي الحلاني وجورج وسوف. بل حفظ نغم هذه الأغاني وصار يرددها مترنماً لعله ذات يوم سيغنيها لها في ليلة عرسها.

أحس خالد لأول مرة أنه ذو صوت جميل لا ينقصه إلا التدريب. ماذا لو أصبح مطرباً؟! المطربون هذه الأيام أصبحوا أثرياء.. المال يهبط عليهم كالمطر.. فلو عرض صوته على متخصص، أو اشترك في برامج الهواة وأصبح مطرباً وغنياً وصاحب عمارة كبناية أبيها، وسيارة كسيارة أبيها المرسيدس هل تتذكره.. وتندم لأنها تجاهلته كل هذا العمر؟..

لكن خالداً سأل نفسه: هل تحلم؟.. أحلام.. أحلام أحلام من دون توقف.. وما نفع الحياة إذا لم تكن ملأى بالأحلام؟ إنها أقله

تخفف من غلواء الواقع وقسوته.. الواقع الذي يأكل العمر رويداً رويداً ولا نشعر بذلك. حياة تتأكل كما تتأكل ثمرة بدودها.. الحياة دود يا خالد. لا تترك لنا ما نتمتع به. لكن الأحلام تعوّض.. وتترك لمخيلتنا أن نحب وننال من نحبها، أن نبني عمارة.. أن نطير من بلد إلى آخر.. أن ندخل مطعماً فاخراً ونأكل ما كنا محرومين منه. بالأحلام يا خالد نبني قصوراً.. وننام على أسرّة من ذهب.. ونضاجع أجمل النساء. مرحباً يا أيتها الأحلام.. بالأحلام أيها التعس نبني في خيالنا مدناً وأوطاناً ونبحر إلى آخر الدنيا بمراكب أشرعتها بيضاء.. ليتك لا تفتح عينيك على هذا الواقع اليابس. وراء أجفانك المغلقة دموع تكاد تتمرد عليك وتهطل مدرارة وأنت بكل قوتك تحاول منعها، الدموع للنساء. لكن إذا بكى الرجال فلا يبكون إلا دماً.. كأنها نزف من العيون وليس من الخاصرة.

٢١

اعتذر المعلم شاتيلا عن تشغيل نور الدين عاملاً في المقهى. لقد كان الرجل ابن حلال، اعتذر لأن مقهاه مزدحم بالعمال السوريين، بما لم يعد يتسع لأكثر من هؤلاء.

هذا الرجل الذي يكنّ للسوريين كل حب منذ زمن طويل، يقول لك: دعك من السياسة، السياسة أفسدت الجميع، وصارت المصالح هي الأساس حتى بات كل واحد يسأل عن نفسه ولا يسأل عن الناس والفساد الذي يضرب في كل مكان. قد يكون هذا الكلام صحيحاً.. لكن الصحيح أيضاً، أن العامل السوري أرخص من العامل اللبناني ومشاكله مع الضمان والتعويضات والتأمين الصحي وما أشبه. العامل السوري ليس له ذلك، إنه يطلب السترة لا أكثر ولا أقل. عشرة دولارات في اليوم الواحد تكفيه، ويمكنه – أيضاً – أن يدّخر نصفها على الأقل، فالطعام على حساب المقهى، وأحياناً يتكارم

الحاج فيطعمه مما يأكل أهل بيته، لا يريدك الحاج أن تتدخل في التفاصيل، وهو يعرف أن الواحد من هؤلاء العمال، ما أن يدخر ثلاثمائة دولار على أبعد تقدير، حتى تراه يوضبّ حاجاته في حقيبة صغيرة يحملها على كتفه ويعود إلى بلده، ليأتي غيره ويحل محله. لا يريد الحاج وجع رأس إذا استخدم عمالاً لبنانيين، ولا يريد محاكم ومحامين.. هؤلاء السوريون المساكين، كما يصفهم، لا يوقعونه في مشاكل من تلك الأنواع، إنهم راضون.. يأمرهم فيطيعون. لا أحد يرفع صوته، خنوع كامل. في أيام الآحاد والعطل الرسمية، يكثر الزبائن، ويكثر البخشيش، وهو أفضل حتى من الأجرة اليومية. الإكراميات كلها تذهب إلى صندوق مخصص لذلك. ثم آخر الليل يفتح المعلم شاتيلا الصندوق ويعد المبلغ الذي تراكم فيه، ثم يوزعه على الجميع بالعدل والقسطاس.. وأحياناً ينال الواحد منهم عشرة دولارات أخرى غير أجرته.

تراهم ناشطين، ومتعاونين، يجيئون من الأرياف السورية، من جبل الزاوية وأطراف إدلب وريف حلب وأكراد القامشلي والحسكة. جميعهم صاروا يعرفون أن العمل في لبنان، أفضل لهم من العمل في الشام أو حلب، حيث كانوا أيضاً يفترشون ساحات هاتين المدينتين الكبيرتين طويلاً. ويصادف أن يمر بهم صاحب عمل فيصطحبهم في مقابل خمسين ليرة في اليوم. وهذا المبلغ يساوي دولاراً واحداً، وغالباً ما يتلكأ عن دفع المبلغ الكامل لهم.. فيحاول أن يتشاطر

عليهم ويقتطع قرشاً من هذا وخمسة قروش من ذاك. من دون تحسس تعبهم وعرقهم. ومنهم من يتأذى بحجر يسقط فوق رأسه، أو مسمار يكاد يدخل إصبعه. العمل في لبنان مشابه لذلك، كما يروي بعضهم لبعض، إلا أن الدخل اليومي يعوّض من الأذى، ليس من صاحب العمل، ولا من مشاكل العمل اليومية هنا وهناك. لا يمكن المقارنة بين وضعهم في حلب أو الشام وبين وضعهم في بيروت.. فالذين يأتون إلى لبنان، بشكل عام، هم ناس بسطاء لا يريدون شيئاً من هذه الحياة سوى لقمة خبزهم بعرق جبينهم.

تنشر الصحف اللبنانية أحياناً، بعض الجرائم التي يرتكبها بعض هؤلاء. تبرزها بنية سيئة كأن تقول: انظروا إليهم.. إنهم مجرمون.. لصوص.. معتدون.. ويبدو ذلك مبالغاً فيه. فبين خمسين ألف عامل، وأحياناً، مائة ألف، يجيئون كل يوم إلى بيروت والضواحي للعمل بأجر يومي، لا بد من حالات فردية شاذة. لكن ثمة تركيزاً على ما يرتكبه هذا أو ذاك، من سرقة، أو تعدّ، أو حتى الاقتراب من فتاة لبنانية أو لمس يدها، أو مغازلتها وأحياناً اغتصابها، بحيث يحسب اللبناني البسيط أن هؤلاء السوريين جميعاً هم مجرمون علماً أن الناس ليسوا كلهم ملائكة. فمثل هذه التصرفات الشائنة نجدها بين اللبنانيين أنفسهم. فهناك أيضاً لصوص ومجرمون وقتلة وتجار مخدرات. وهناك تجار سلاح وقوادون كذلك، لكن يبقى السوري المرتكب جريمة من هذا النوع وحده مثاراً للاستنكار والتعجب:

سوري يسرق سيارة.. سوري يعتدي على فتاة.. سوري تاجر مخدّرات.. هكذا تبرز تلك الصحف هذه الأخبار المسيئة بعناوين كبيرة، كأن هؤلاء من طينة غير طينة اللبنانيين، أو من فصيلة دم غير دمهم، أو من طبقة دنيا لا تعرف الوصول إلى اللقمة إلا بالعنف.. بالسرقة.. والتعدي.. ومعظمهم تلقي الشرطة القبض عليهم فيودعون السجون ولا من يدافع عنهم أو محام يتدخل للإفراج عنهم. وعندما يخرجون من السجن يطردون من البلد. حتى دولتهم لا تسأل عنهم ولا يخطر ببال مسؤول فيها أن هذا المواطن قد دخل لبنان واختفى في ظروف من هذا النوع.. أين هو.. وماذا ارتكب من مخالفات حتى دخل السجن؟!

الحاج شاتيلا يعرف ذلك كله. والدولة اللبنانية تعرف أن هؤلاء العاملين عنده مجرد طارئين لا يعملون بإجازة عمل.. يدخل الواحد منهم لأسبوع أو أسبوعين، أو على أبعد تقدير لشهر أو ستة أشهر كما تسمح له بطاقة الإقامة الموقتة ثم يعود إلى بلده.

في أيام التوافق بين البلدين، وقيام مجلس التعاون المشترك، حاول الجانب السوري إيجاد صيغة للعمال السوريين في لبنان حتى لا تضيع حقوقهم. وفي كل مرة يدرجون هذا الموضوع على بساط البحث ثم يؤجلونه إلى وقت آخر. فلا يتم الاتفاق على شيء.. والدولة اللبنانية تعرف هذا الواقع وتغض النظر عن هؤلاء، لأنها

تعرفهم فقراء مساكين يجيئون من أجل لقمة العيش وليس من أجل أمر آخر. بل يتركون من باب الشفقة. وهم تالياً لا يمثلون خطراً على أحد. وبالطبع ليسوا هم قاتلي الحريري.

هم هؤلاء. بائعو صحف عند زوايا الشوارع وعلى خط الكورنيش، هم بائعو الأجهزة الكهربائية في شارع بشارة الخوري يقفون عند تقاطع إشارات السير، ويتمسكون بأبواب السيارات الواقفة، لعل أحداً يشتري مما يحملون.. وهم أيضاً بائعو العطور المزيفة والدخان المهرّب.. فضلاً عن نساء فقيرات يحملن أطفالهن المعصوبة جباههم للإيحاء أنهم مرضى مساكين وأمهاتهم بحاجة إلى شراء دواء أو زجاجة حليب.. أو ملابس قديمة تصلح لهم.. كلهم سوريون. كلهم على هذه الصورة الفاجعة وأكثر بكثير. لذلك لم يستخدم الحاج شاتيلا نور الدين في مقهاه، بل سعى له لدى صاحب مدرسة خاصة، وهو أستاذ جامعي متقاعد من أقربائه أسس مدرسته في مدينة صور، ليعين نور الدين عنده مدرساً، فتم الاتفاق معه على تعليم الصفوف الابتدائية مع توفير غرفة لنومه في المدرسة نفسها. وكأن باب الجنة فتح لنور الدين من حيث لم يكن يتوقع قط.. ربما أحس أنه عثر على كنز، فراتبه الشهري خمسمائة دولار عداً ونقداً مقارنة براتبه في درعا. ثروة بكل معنى الكلمة. وقد أمهل صاحب المدرسة نور الدين أسبوعاً للالتحاق بعمله كي يرتب أموره، فسافر إلى درعا وقدّم استقالته وخيّر زوجته بين الطلاق أو الإشراف على

تربية ولديه أو السفر معه إلى صور.. وربما، سيتّفق معها صاحب المدرسة على العمل إلى جانبه أيضاً. لكنها رفضت، وآثرت الطلاق، وأعطته أولاده فتركهم أمانة لدى أمه العجوز لتشرف على تربيتهم ريثما تستقر الأمور له في لبنان.

هكذا بدأ نور الدين حياته الجديدة، ولم ينس أبا عامر الذي كان بين الحين والآخر يسأل عن أخباره، وإذا ما جاء إلى بيروت في عطلة الأسبوع ينام عنده في «قصره» خلف محطة الرحاب، ويتباريان بمحفوظاتهما الشعرية.. وأبو عامر عاشق الشعر القديم ونور الدين يكتب قصائد ضعيفة. وأحياناً يلطش من شعراء آخرين بعض الأبيات وينسبها إلى نفسه. ويفضحه أبو عامر. ولك هادا الشعر للأخطل الصغير.. وهذه الأبيات لنزار قباني، فيخجل ويعتذر، ثم ينسى ويلطش من جديد.. وهو يقول لأبي عامر: مجرد مقارنات، فلا يعرف أبو عامر ماذا يقصد.. وتمضي سهرتهما على هذا المنوال حتى يدهمهما النعاس.

٢٢

سأل أبو عامر الأستاذ نور الدين: هل تعرف آخر رئيس جمهورية عندنا في الشام جاء انتخاباً؟

حاول نور الدين أن يتذكر، ثم قال له إنه ضعيف في التاريخ. لكنه يعرف من كتب القراءة أن التاريخ بدأ عندنا عام ١٩٧٠ فقط.. قبله لا أعرف شيئاً. أجابه أبو عامر: أنا أقول لك. آخر رئيس منتخب هو المغفور له شكري القوتلي، بل هو أحد أبطال الاستقلال عن فرنسا. كان هذا يا نور الدين قبل الوحدة مع مصر، وقامت الوحدة وصار جمال عبد الناصر رئيس دولة الوحدة.. أما هذا الرجل النبيل فقد اكتفى بعد ذلك بلقب «المواطن العربي الأول» أي مجرد مواطن مثل بقية الناس، وهو الذي بذل شبابه وشيخوخته من أجل الاستقلال. وجاء بعده ناظم القدسي رئيساً لدولة الانفصال، ثم انقلب البعثيون والناصريون عليه تحت شعار استعادة الوحدة مع

مصر.. لا الوحدة عادت ولا الديمقراطية عادت. بقية رؤسائنا يا نور الدين يأتي الواحد بانقلاب ويذهب بانقلاب، إما سجيناً وإما هروباً وإما اغتيالاً، والذين خرجوا من الوطن ماتوا غرباء. أما في هذا البلد الصغير المتنوع، ففيه نشأت الديمقراطية بأحلى صورها. كل رئيس فيه يأتي بالانتخاب أو بالتوافق عليه سلفاً بين القوى السياسية والطوائف أيضاً.. وليس بانقلاب وليس باغتيال – يعني أريد أن أقول لك، عدا عن ظروف الحرب الأهلية التي تنذكِر وما تِنعاد اغتيل فيها رئيسان بشير الجميل ورينيه معوض ورئيس وزراء وهو على كرسي الحكم رشيد كرامي.. واغتيالات أخرى ليس الآن مجال ذكرها – فيعود الرئيس الذي انتهت ولايته إلى بيته معززاً مكرماً، لا سجناً ولا نفياً وإذا انتقل إلى رحمة الله ودعه الشعب، بكل طوائفه، من قصره إلى قبره.. أنا أتذكر أول رئيس جمهورية للبنان، في مطلع أيام الاستقلال بشارة الخوري، وآخر رئيس هو، العماد ميشال سليمان الذي كان قائداً للجيش مثل سلفه إميل لحود. كلاهما تم التوافق عليه بين الزعماء كافة. والله يا نور الدين أتذكر هؤلاء الرؤساء رئيساً رئيساً.. عدّ معي.. بعد بشارة الخوري، كميل شمعون أقوى رئيس جمهورية حتى الآن، انتخب مرتين، اللواء فؤاد شهاب أول قائد جيش يصل إلى رئاسة لبنان، شارل حلو، سليمان فرنجية، بشير الجميل، أمين الجميل، رينيه معوض، إلياس سركيس، إلياس الهراوي، إميل لحود.. والآن هذا الرجل الطيب ميشال سليمان.

فسأله نور الدين.. ولم تمت كل هذا الزمان؟

فأجاب: والله يا رجل الله حماني.. الله حماني في الحرب الأهلية، والله حماني وأنا أرى الإسرائيليين في البلد.. لكنهم خرجوا بالقوة عام ٢٠٠٠ بعد حرب طويلة مع رجال المقاومة، فحققوا الذي كان عبد الناصر يقوله: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.. وأهم شيء يا نور الدين أنني أعيش في أصغر بلد عربي انتصر على أقوى دولة ليس في الشرق الأوسط، بل في العالم أجمع.. هي إسرائيل لعنة الله عليها وعلى الذين زرعوها في بلادنا.. أنا أعيش مجداً آخر يا نور الدين مجد انتصار تموز ٢٠٠٦، حيث كل الجيش الإسرائيلي بعدده وعديده لم يستطع أن يحتل شبراً من هذه الأرض، وذلك كله بسبب صمود المقاومة العظيمة بقيادة نصرالله الذي جاء ليعزينا بعبد الناصر.

أتريد الحقيقة يا نور الدين؟ هذا الشعب اللبناني شعب عجيب. على الرغم من هذه الظروف التي مرت به يعرف كيف يعيش.. بين زعيق الصواريخ ولعلعة الرصاص. كنت ترى اللبنانيين في ساعات الهدوء يخرجون إلى الشواطىء أو يصعدون إلى الجبال، يواصلون حياتهم بشكل عادي. أي والله يا نور الدين.. استشهد الكثير من شبابهم وأهلهم في الحرب الأهلية، حوالى سبعين ألفاً من جميع الفئات والطوائف. فليس ثمة من بيت إلا منه شهيد. ولما انتهت هذه الحرب، رجعوا كلهم أصحاباً عون على طاولة جعجع وبري على

طاولة الحسيني. يعني بالمختصر ما حدا انتصر على حدا، لو اتفقوا قبل أن يتحاربوا لكانوا وفروا هؤلاء الشهداء.. حزنت كثيراً على خراب ساحة البرج التي كنت في شبابي أحبها كثيراً. وأجول فيها ولا أملّ. بس الحقيقة يانور الدين. هناك شيء بهذا العالم اسمه لعبة الشطرنج، الدول الكبيرة تلعبها صح.. يرفعونك من هنا.. وينزلونك من هناك. ولا تعرف كيف تسير هذه اللعبة، هذه الدول الكبرى يا نور الدين لديها مخططات، توضع إلى مئة سنة. أما نحن فلا نخطط حتى إلى الغد. إن تفكر جيداً، تجد أن القصة كلها قصة اقتصاد. شراء وبيع. سلاح وبترول. يشترون منك بترولاً ويبيعونك سلاحاً. من يد إلى يد. وليتنا نستعمل هذا السلاح.. إذا ذهبت إلى الصحراء فسترى هذا السلاح متروكاً يغطيه الصدأ، ولم يعد صالحاً للاستعمال. لعبة خبيثة كما ترى يا نور الدين، ونحن يا أخي، أغبياء كلمة تأخذنا وكلمة تأتي بنا.

نظر نور الدين إلى أبي عامر طويلاً ومندهشاً، من هذا الرجل ماسح الأحذية الذي لديه مثل هذا النظر الثاقب فيقول له معتزاً به: «حظي كبير أتعرف عليك منيح يا أبو عامر. والله أستاذ جامعة لا يعرف ما تعرفه». أجابه أبو عامر: أنا أرى وأسمع وأقرأ، وأتابع نشرات الأخبار كلها. هذا كل اهتماماتي، ليس عندي عمل آخر.. أرى المسلسلات السورية والمصرية، وأعرف أنها كلها تمثيل في تمثيل.. هنا الأخبار والصحف والمناقشات السياسية على الشاشة،

هذا هو الواقع، وإذا تابعت مثلي فإنك ستعرف كل شيء.. ثم يشير إلى رأسه: «هادا مخ مو تبن». يسكت لحظة ثم يقول: «لكان منين هالراس شاب.. شاب راسي والدهر ما شاب»..

يلتقط أبو عامر أنفاسه قليلاً ثم يشعل سيكارة ويمج منها نفساً عميقاً ثم يقول له: يجب أن تعرف كل شيء بهذه الدنيا يا نور الدين.. وإلا بتروح عليك والآن أصبحت في بلد غير بلدك، ناس غير ناس، وثقافة غير ثقافة.. هذا بلد العز والكرامة. البلد الذي انتصر على إسرائيل، مجرد حزب لديه رجال أشداء مؤمنون في وجه دولة لديها طائرات وبوارج ودبابات ميركافا الشهيرة. ارفع رأسك يا أخي.. ارفع رأسك.. انظر وراءك.. إلى الشام يا أستاذ.. حتى الآن الجولان محتل. كل مرة يتفاصحون ويقولون: نحن من يحدد زمان المعركة ومكانها. وحتى الآن لم يحددوا لا هذا المكان ولا هذا الزمان. وقد نموت أنا وأنت ولا نحلم بتحرير الجولان الذي يسرح فيه اليهود ويمرحون.

ازدادت دهشة نور الدين. فقال: والله أنا متعجب. واحد أمي مثلك ويعرف هذه الأخبار كلها. أجابه: لا تتعجب. هل تعتقد أن الحياة نتعلمها في المدارس. الحياة هي المدرسة الواقعية.. لكن عليك أن تعيش التجربة بكل أبعادها. تتعاطى الحياة من جوانبها العديدة، الحياة يا أخي ليست أكلاً ومرعى وقلة صنعة فحسب.. إنها معرفة أيضاً. تقرأ من دون توقف، أصبحت الثقافة متوافرة الآن في

كل شيء.. عليك أن تتعلم.. إبدأ بالأبجدية يا نور الدين. ألف. ب. ت. عندئذ تنفتح أمامك الأبواب.

انحنى نور الدين وهو يقول: لو كنت أعتمر طربوشاً لرفعته احتراماً لك.. فأجاب أبو عامر ساخراً: بلا طربوش بلا بطيخ. إبدأ الآن حياة جديدة وكل شيء متوافر لك.. شوف واسمع واقرأ كتب وجرايد بتصير بعالم آخر.

فقال نور الدين: أنت تكلمت عن الرؤساء.. بس البقية شو؟

قال أبو عامر: البقية عجايب وغرايب. بس حتى تحفظ حياتك احفظ رأسك.. ولا تتدخل بشي ما بيعنيك. أنت بالأصل سوري مسكين. جئت إلى هذا البلد لتحسّن معيشتك. والفرص كثيرة ومتوافرة.. إذا ما مشي حالك هون.. بتروح لمكان ثاني بيمشي حالك، أنت معلم مدرسة. المدارس بلبنان بعدد شعرك، وإذا نجحت كمعلم، تفتح لك آفاق أخرى في مدارس مشابهة، هنا في لبنان الجيد هو الذي يفتح الطريق.

ضحك نور الدين: والله يا أبو عامر أنت تتكلم جواهر. أرجوك اعتبرني مثل ابنك وساعدني.. قال أبو عامر: لا تخف.. واتكل على الله، وإذا احتجت أي شيء أنا بخدمتك دائماً.

انحنى الأستاذ نور الدين وكاد يقبّل يد أبي عامر فصاح به: معاذ الله معاذ الله.. نحن لبعض.

وهنا، كأن نور الدين تذكر ما كان يشغل باله، فقال: أريد أن أسألك أبا عامر.. من قتل الحريري؟ أجابه: والله يا أخي لا أعرف. لعبة مخابرات، اتهموا سوريا. لكنني أتساءل ما هي مصلحة سوريا من قتل الحريري؟ انظر هم الذين دفعوا الثمن وخرجوا من لبنان. لكن أنا عندي عقل أفكر فيه. لا سوريا قتلته ولا حزب الله. فكّر معي.. ما هي الوسيلة لإخراج السوريين من لبنان؟ جريمة خطرة من هذا النوع. وانسحابهم من لبنان ما كان ليتم إلا بحدث كبير هو استشهاد الحريري. فسأله نور الدين: يعني شو تحليلك؟ قال: إسرائيل لها مصلحة في ذلك. وإذا مت أنا ولم نكتشف الحقيقة فستعرفها أنت وتصدق وتبصم على قولي. إسرائيل لها مكاسب عديدة باستشهاده. ومن هذه المكاسب الاستفراد بحزب الله.. لكن خسئوا والله. ها هم جاءوا عام ٢٠٠٦ وخرجوا مرة ثانية مهزومين والله كان لهم بالمرصاد. والآن، أي محاولة من إسرائيل لاستعادة ماء وجهها ستبوء بالفشل.. ذكرني.

ظل نور الدين ينظر إلى وجه أبي عامر غير مصدق.. فقال له: والله يا نور الدين، تمنيت أن أموت أنا.. ولا أشهد تلك الجريمة التي لا أنساها أبداً. لعنة الله على السياسة.. هل هناك أحسن من البويجي..! مهنة حرة، أعمل كما أريد وفي أي وقت أريد. قد تكون مهنة قاسية، مهنة ذليلة في نظر الناس، لكن أحلى ما فيها أنها مهنة حرة، أشتغل كما أريد وأعطل كما أريد. أحياناً يكون الجيب

ممتلئاً، فألبس أنظف ما عندي وأتمشى نحو الحمرا. ثمة عيون كثيرة تنظر نحوي. قد يفكرون أنني لورد لا أحد يعرف أن هاتين اليدين المختبئتين في جيوبي، يدا واحد بويجي.. الله يرحم أبا حسين.

من هو أبو حسين يا أبو عامر؟

نسيت أحكيلك قصته، هو سوري، كان محتكر البويجية بشارع الحمراء.. مات من فترة الله يرحمو.. يعني كان يستعير كرسي من قهوة الستراند وأجلس إلى جانبه وينادي على السوري بياع القهوة وأكون بضيافته ساعات وأنا أتفرج على هالناس الذين جاءوا من كل مكان.

وتبصبص على النسوان؟

عيب.. بها العمر. بتفرج بحياد. شفت كتير بالماضي.. والآن أنا أنتظر. أريد أن أذهب وكتابي بيميني. أحياناً تلفت نظري فتاة جميلة فأنظر إليها خلسة وأخجل.. وأردد سبحان الله. سبحان الله على هالجمال الله يحميها..

يعني أبو عامر ما عاد فيك قوة؟

صرخ أبو عامر:

استح يا ولد.. هذه أمور خاصة بيني وبين نفسي، لكن لم أعد أفكر في هذه الأمور. سجادة صلاة وأرجو من الله أن أذهب إلى الحج.

ثم تذكر أبو عامر شيئاً فقال: في زيارتك المقبلة سأعرفك إلى القاضي الأستاذ عبد الحميد.. قصته قصة.

وتواعدا على اللقاء.

٢٣

ركن عصام ورفيقه سيارته إلى رصيف في شارع بشارة الخوري.. وكانا يتلفتان يمنة ويسره. كأنهما صيادان يبحثان عن فريسة.. كانا قد تناولا معاً سيكارتي حشيش والنشوة تملأ مخيهما.. بل لعلهما في هذه اللحظات من ذلك الصباح لم يناما بعد سهرة طويلة..

قال عصام فجأة: انظر.

قال رفيقه: أين؟

قال عصام: هذا الأعمى.. أكيد كذاب.. هؤلاء السوريون يأتون إلى بيروت بصور مختلفة.. هل تراهن أنه ليس أعمى؟

قال رفيقه: من خطواته المتلكئة يبدو أنه أعمى حقيقي. وهذه البنت الممسكة بيده.. كم تقدر عمرها؟

قال عصام: عشر سنين.. ربما إحدى عشرة.

قال رفيقه: كأنها في السادسة عشرة.. انظر إلى صدرها إنه ناضج كحبة رمان.

قال عصام: ما أخبثك! لك عين تكشف ما وراء الملابس.

قال رفيقه: وجميلة أيضاً.. ولولا هذه الملابس البالية لبان جمالها بشكل أوضح..

قال عصام: ليست بحاجة إلا إلى دوش.. فيزول الغبار عن الذهب.. إنها ثمرة شهية يا صاحبي.

كان الأعمى في الستين من عمره تقريباً، تقوده فتاة صغيرة من رصيف إلى رصيف. وبعض المارة يضعون في يده ورقة الألف أو الخمسمائة المعدنية، فتأخذها الفتاة وتضعها في كيس قماش مربوط إلى خاصرتيها. وكلاهما الأعمى وابنته يدعوان للمتبرع بطول العمر وأن يحفظ الله أولاده.

اقترب الأعمى وابنته من سيارة عصام، فترجل من السيارة ولحق به صديقه.

قال عصام للأعمى: من أين أنت؟

لم يجب الأعمى، شعر بالخوف فشد قبضته على يد ابنته.

سألتك.. من أين أنت؟

والله يا سيدي من سوريا.

من سوريا.. من أين يعني؟

ارتجف صوت الأعمى، فقال له: من إدلب.

وأمسك عصام بيده. وقال له: نحن أمن عام.. امش معي إلى المخفر.

فسأله الأعمى: لماذا يا سيدي؟. أنا دخلت بالقسيمة.

قال له جميل صديق عصام: قلت لك امشِ معنا إلى المخفر، هناك سنرى. في الوقت ذاته أمسك عصام بيد الفتاة. ارتعبت، حاولت أن تلوذ بأبيها. لكن عصاماً انتزعها من يد الأعمى بالقوة.

قال جميل: يبدو أنه أعمى فعلاً.

قال عصام للأعمى: لا تخف.. مجرد سؤال.. ثم نتركك.

تردد الأعمى السوري.. حاول أن يستغيث.

قال له جميل: قلنا لك لا تخف.. نسألك.. ونطلع على أوراقك.. ثم نتركك.

اقتاد عصام ورفيقه الأعمى وابنته إلى سيارة رباعية الدفع.. وانطلقوا.

دبّ رعب شديد بالأعمى، فيما الفتاة راحت تبكي بصوت عال. وضع جميل يده على فمها. بينما جس بيده الأخرى صدرها فعلا صوتها.. وظل الأعمى يصرخ، لكن أحداً من المارة لم يسمع صراخه.

تنقلت السيارة بين الأحياء والشوارع، ولم يلفت زجاجها المعتم أحداً. ظل الأعمى يصرخ والبنت تبكي بصوت عال، إلى أن توقفت السيارة في مكان ما. فاقتيد الأعمى إلى قبو بناية ربما قديمة، لأن رائحة الرطوبة كانت مزعجة.

شعر الأعمى بأن باباً أغلق خلفه. بينما ابنته حاولت أن تتملص من يد خاطفها. لكن قبضته كانت أشد.. فانهارت مقاومتها.

أدرك الأعمى أنه خطف مع ابنته، وأنه في بيت وليس في مخفر للشرطة، وأدرك أنه وقع في فخ هذين الرجلين، فأخذ يتلمس جدران الغرفة التي بدت له عادية ليس فيها ما يلفت الانتباه إلى شيء واضح.. فراح يصرخ، لكن صراخه كان مخنوقاً.

واقتاد الرجلان الفتاة إلى غرفة أخرى وعرياها بالقوة، واغتصباها تباعاً. وظلت بين أيديهما كسمكة خارج الماء تلعبط وتقاوم وتصرخ وتبكي.. لكن الرجلين لم يأبها.. ولم يرحما طفولتها.

مرّ وقت طويل، قبل أن يكمّ الرجلان فم الأعمى بلاصق قوي وكذلك فعلا بالفتاة، ودفعاهما إلى سيارتهما وأخذا ينهبان الشوارع بسرعة مذهلة.. إلى أن وصلا إلى شارع بشارة الخوري.. وكان الليل قد غمر المكان.. وتركاهما في المكان نفسه الذي خطفاهما منه.

كانت البنت تبكي.. وكان الأعمى أيضاً يبكي صارخاً: يا

ناس.. أرجوكم ساعدوني.. فتقدم منه شيخ مسن وسأله.. وعندما عرف الحقيقة قادهما إلى مخفر الشرطة.. ليرويا كل شيء.

وسجلت الحادثة في التحقيق ضد مجهولين.

ونشرت الصحف في اليوم التالي.. هذه الجريمة النكراء.. بخطوط عريضة، وكما رواها الأعمى والفتاة التي حاولت إعطاء صورة عن ملامح الرجلين من دون تحديد واضح. فهي لم تكن تعرف ماذا يجري سوى أنها تغتصب بالقوة.

ولم يكن هذان الرجلان إلا هما أنفسهما، اللذين بال أحدهما على أبي خالد الميت تحت جسر الكولا. وحتى هذه اللحظة لم يقبض عليهما.

يقولون إن القدر، دائماً، بالمرصاد. فلم يعرف أحد، عندما اجتاحت شاحنة كبيرة سيارتهما وهما في أعلى نشوة من الحشيش.. فامتزجا لحماً وعظماً بحديد سيارتهما وكان صعباً على المسؤولين سحبهما من السيارة.. إلا نتفاً من عظم ولحم..

٢٤

صادف ماهر ذلك الصباح، حادثة مؤلمة، خلعت قلبه من مكانه كما قال. روى أنه كان ماشياً في شارع خلفي للحمراء، عندما انتبه لرجل يحاول أن يخرج شيئاً من حاوية القمامة. كان يفتح الأكياس السوداء وينبش فيها ثم يتركها، إلى أن عثر على نصف سندويشة فلافل.. حاول مسح ما علق بها من قذارة بكم يده قبل أن يحاول أكلها.. لكن شرطياً دهمه من خلفه وسأله: شو.. ولا..شو عم تعمل بالزبالة؟ أجاب المسنّ: والله يا سيدي لا شيء.. لقد عثرت على سندويشة فلافل.. أنا جائع يا سيدي. أريد أن آكل أي شيء. سأله الشرطي بغضب: من وين إنتي؟ قال الرجل المسن مرتعباً: من سوريا. فصرخ به الشرطي: وسوري كمان يا كلب! ثم صفعه صفعة قوية أخلت بتوازنه فسقط أرضاً.. عاود الشرطي ضربه بقدمه: شو.. ولا.. ما بتعرف أن العبث بالزبالة ممنوع.. هيك بلدك.. دائماً يرسل إلينا الشحاذين والحرامية. ثم شد الشرطي الرجل المسن عن الرصيف

حتى أوقفه على قدميه ثم سأله تكراراً: شو إنتي.. وُلّا.. مخابرات.. استغرب الستيني وسأله: شو.. يعني مخابرات؟ فراح يضربه من دون توقف حتى أدماه.. والمسكين يقول له: حرام عليك شو عملت حتى عم تضربني.. شو يهودي أنا.. فقال الشرطي الغاضب: ولا.. اليهود أحسن منك.. شفناهم.. ما بينبشّوا بالزبالة.

قال ماهر: اقتربت من الشرطي وقلت له ألا تراه إنساناً مسكيناً يبحث عن لقمة خبز ليسدّ جوعه.. حرام عليك.. فرد علي الشرطي والزبد يخرج من شفتيه: شو خصك.. إنتي؟. رح اهتم بحالك.. فقلت له: أنا سأذهب معك إلى المخفر حتى أشهد ضدك بالاعتداء على هذا المسكين. وقال ماهر متابعاً: أصررت أن أذهب مع الشرطي الذي لم يأبه لذلك. وظل يسحب العجوز السوري من قميصه إلى مخفر حبيش. دخلت مع الشرطي وطلبت مقابلة رئيسه فاستقبلني الرجل بالترحاب، فشرحت له كيف اعتدى هذا الشرطي على الشيخ المسن. تفهّم رئيس المخفر ما جرى، فطلب إحضار الشرطي وأنبّه بشدة. وطلب إلى أحد معاونيه تحرير محضر بالحادثة، ثم همس في أذني: أنت تعرف يا أخ أن العبث بحاويات القمامة ممنوع في القانون.. فلو أن الشرطي لم يعتدِ على الرجل.. لكان في الإمكان محاسبة هذا الشيخ قانونياً. ثم ابتسم عندما عرف من لهجتي أنني سوري وأن من حقي أن أدافع عن ابن بلدي.. بعد لحظات طلب حضور الشيخ المسن وأمر مساعداً له أن يأخذه إلى الحمّام ليغسل

وجهه ويستعيد هدوءه، ثم أجلسه قربه، وطلب عبر الهاتف من أحد المطاعم القريبة صحناً من اللحم وعلبة سفن أب وأبقاني حتى أشرب فنجان قهوة.. وجاء الطعام فقال للرجل: كل يا أخي.. وأنا أعتذر نيابة عن الشرطي.. وأرجوك أن تسامحه.. لم يأبه المسكين لكلام الضابط، إذ اهتم بالأكل سعيداً.. وعندما انتهى قال له: لا تمد يدك إلى حاويات القمامة.. كل ما فيها فاسد وقد تأكل شيئاً يسبب لك الموت.. أو تذهب إلى المستشفى.. والأفضل لك أن تعود إلى بلدك..

واسترسل رئيس المخفر مع ماهر فسأله عن أحواله فقال له: أنا أدرس القانون في الجامعة.. وعلى وشك التخرج. فتمنى له النجاح. ثم اصطحب ماهر السوري المسكين وسأله إن كان يريد العودة إلى بلده.. فقال له: لا.. أنا عندي شغل هنا، ثم تركه بعد أن أخرج من جيبه كل ما يملك من مال ووضعه في يده.

قال ماهر: رأيت في رئيس المخفر وجهاً حضارياً لطالما كان اللبنانيون يفخرون به.. وتمنيت لو كان رجال الأمن جميعاً من هذا النوع.

٢٥

التقى الرفاق السوريون، في مقهى الروضة، حول طاولة واحدة، تخللها تدخين النارجيلة، وشرب الشاي الداكن، واستعراض الذكريات الجميلة والذكريات التي تطعن القلب كالخنجر، وكان زعيمهم أبو عامر، ومنظر الثقافة فيهم الأستاذ ماهر، وهو أستاذ بحق لأنه كان المثقف الوحيد الذي يلم بالقراءة والكتابة والشعر، فيما كان أبو عامر مثقفاً سياسياً، وثقافته هي نتاج تجاربه في الحياة.

اصطحب خالد معه طباخ العائلة أبا ربيع، مع شعوره بأن هذا الرجل انتهازي يعرف من أين يؤكل لحم الكتف، إذ كان يدعي أنه شيوعي ملتزم وذو مسؤولية حزبية، لكن الحقيقة أن خالداً كان يحسد أبا ربيع لأنه يتاح له أن يعد طعام سلمى بيديه، ولأنه يراها باستمرار، حيث تقضي سلمى معظم وقتها مع والدها، الذي تحبه وتحترمه ومع ذلك، يتحدث عنها أبو ربيع بحسد ناشئ عن كرهه الأثرياء ورجال

الأعمال والبنوك والسلطة السياسية لأنها سلطة رأسمالية طائفية يجب محاربتها وإسقاطها ليحل محلها الحزب الشيوعي، حزب الطبقة العاملة وصغار الكسبة. كشف أبو عامر زيفه، فهمس في أذن خالد يحذره، كيف هو شيوعي في حين أنه يخدم في بيت رأسمالي كدّس ثروته على أكتاف العمال.. وكلما احتدم النقاش ووجهت إلى أبي ربيع أصابع الاتهام بأنه يعمل طباخاً في بيت رجل أعمال من أثرياء البلد، وبأنه في مسلكه هذا إنما يناقض أخلاقه اليسارية، اختصر أبو ربيع الموضوع كله، بأنه يقبّل يد البيك علناً ويدعو عليها بالكسر سراً. فهذه فلسفة شيوعية بامتياز. على أن أبا عامر يؤكد أن الشيوعية سقطت في الاتحاد السوفياتي نفسه الذي تمزقت بلدانه لتصبح دولاً أخرى. وأن روسيا التي كانت تحتضن هذا الحزب، ها هي، مثلها مثل أميركا أصبحت دولة رأسمالية تتاجر بالسلاح مع الدول الفقيرة.

ومع انتقال النقاش من مكان إلى مكان، يسأل ماهر خالداً عن آخر أخباره، فيتلوى المسكين، فالحب الذي يعانيه يمتص من قلبه نسغ الحياة. فلا ينام ولا يصحو.. حياته فوضى تعتصره كالإسفنجة.. وتمتصه الإسفنجة هي ذاتها بما فيه من وسخ الحياة ونظافة الصحون، على ما يعلق أبو ربيع. ويسأل أبو عامر خالداً لماذا ألقى بنفسه في هذه البئر؟ وهل يحق له أن يعشق ويتمعشق وما هو إلا عامل ناطور في بناية صاحبها والد البنت التي يحبها؟ فينبري ماهر للدفاع عن خالد قائلاً: الحب لا يعرف صغيراً ولا كبيراً. لا غنياً ولا فقيراً..

فيتدخل أبو ربيع هامساً: أنا أعرف أن خالداً في واد وحبيبته في واد. ويؤكد أبو ربيع من خلال ما يسمعه من أفراد العائلة.. أن الأم الأنانية تلح على ابنتها أن توقع بشاب غني من المستوى الاجتماعي نفسه، حتى لا تضيع الثروة مع عاشق فقير. فيسارع خالد إلى وقف هذا الجدل رافضاً أن تأتي سيرة حبه على لسان أحد.. فهو يعتبرها من خصوصياته، ويرجوهم أن يكفوا عن هذا الحديث.

كان ماهر المرجع الأعلى للعمال السوريين، فيما كان أبو عامر مستشارهم في أمور الدين والدنيا.. واستطاع ماهر على سنوات متتابعة عمل فيها في أقسى الأعمال ومارس فيها عذابه اليومي.. يوماً يشتغل ويوماً لا يشتغل، لكنه في الوقت ذاته كان يتابع الدراسة على نفسه، إلى أن تخرج في الجامعة وصار ينظم شعراً ويؤلف كتباً بثها تجاربه العميقة التي جاءت من التعب والعذاب والإرهاق، فإذا بها ذروة في الإبداع. ولكن هذه السنوات كلها التي قضاها في بيروت كانت غير قانونية. إلا أنه كان جريئاً في كل ما كتب في نقد سلطة بلاده ومعاناة مواطنيه اليومية جراء سلطة مستبدة سيفها مسلط فوق رقاب العباد.. كتب ماهر كثيراً في هذا الموضوع، وكان أبو عامر ينصحه قائلاً له: احفظ خط الرجعة يا ماهر.. لا تعرف متى تذهب ضحية دسيسة فتجد نفسك في بلدك في زنزانة تحت الأرض.. اكسب عيشك وخذ المثل من غيرك الذي ظن نفسه شجاعاً فمات في السجن وأخرجوه نصف جثة..

هل كان هذا الكلام نبوءة لماهر، إذ انتبه زميله في الجريدة التي يعمل فيها أن إقامته غير قانونية في البلد، وكان هذا الزميل يخشى على مكانته في الجريدة لأن ماهراً بموهبته قد يحتل مكانه.. وبكل صفاقة الرجل الرديء، حمل أخبار ماهر إلى جهاز الأمن العام في بيروت، فألقي القبض عليه فوراً. وعندما اكتشف المسؤول الأمني أن ماهراً مقيم في بيروت منذ سبع سنوات إقامة غير قانونية، زجه في السجن وأحاله على المحكمة، ثم أخبره أن سجنه سيطول ثم يلقى على حدود بلاده بعد خروجه من السجن، وهو الهارب منها، وشاتم السلطة بكل شجاعة نادرة لأن هذه السلطة ظالمة لشعبها..

وكما يجري في لبنان عادة، جاءه الإنقاذ من السماء من رجل صاحب نفوذ وذي سطوة في البلد، فعمل على إطلاقه، شرط دفع ما عليه من طوابع الإقامات لثماني سنوات، فإذا به يجد نفسه بحاجة إلى آلاف الدولارات وإلا رموه على الحدود. وهكذا أيضاً، استطاع ماهر أن يجمع هذا المبلغ فدفعه إلى السلطات المختصة في مقابل الحصول على الإقامة. لكن زميله القذر، لم يكتف بذلك وهو على معرفة برجال مخابرات من كل نوع، فأبلغ أخباره إلى سلطة بلاده. غير أن الإنسان الشريف يجد دائماً من يقف إلى جانبه، فنصحه صديق باللجوء إلى الأمم المتحدة وطلب اللجوء السياسي، وإلا فإنه معرض للقتل والاغتيال. ومن حسن حظه، بعد أن تحقق المسؤولون في مكتب الأمم المتحدة في بيروت أن ماهراً معرض للخطف أو

الاغتيال أو السجن، منحوه بطاقة لاجيء وخيروه إلى أي بلد يريد اللجوء.. فطلب اللجوء إلى الولايات المتحدة.. وهكذا كان.. وكان ذلك اليوم، في مقهى الروضة، هو يوم الوداع.. وفي الليل، تعانق الجميع بدموع وحب، متمنين لماهر النجاح في حياته الجديدة، بل تمنى الجميع أن يتاح لهم ظرف مثل ظروفه ليرحلوا بعيداً عن هذا البلد.

وهناك أسس ماهر داراً للنشر أصبحت من أشهر دور النشر. مشجعاً نشر الشعر خصوصاً لشعراء شبان لم يتألقوا بعد.. ثم توسع النشر عنده ليشمل كل نوع.. حتى جريدته الشعرية التي سبق أن أسسها في بيروت، وجد من يمده بالمساعدة لاستمرار صدورها واستمرار نشر الكتب.

اعتبرت مجموعة من العمال السوريين أن ماهراً شق طريقه بعزيمة لم تفتر واتخذوه مثلاً يحتذى.. فلم تتوقف اتصالاتهم بعضهم ببعض، وكان ماهر عوناً لرفاقه في الغربة كما كان عوناً لهم في بيروت.

وكان أكثر من تألم لوداعه خالد. فقد كان ماهر مستشاره العاطفي، يخفف عنه غلواء العشق وغرام الفقراء للأسياد. وفي الحقيقة، أنه في تلك الليلة، ليلة الوداع وجد ماهر في خالد كأنه قد أصبح إنساناً آخر. لجملته طراوة، ولصوته خفوت من يهمس لنفسه. لقد هذبه حبه لسلمى وارتفع به من عالم العذابات إلى عالم أكبر، عالم من الرحابة

والأحلام. وكأن الحياة فتحت له أبوابها.. قد تكون هذه الأبواب ممراً لحلم بعد حلم.. أحلام جميلة وراقية.. لقد ملكت عليه سلمى فؤاده ومصيره، وبات في اليوم الذي لا يراها كأنه ليس محسوباً من عمره.. إلا أن ماهراً بعقلانيته وثقافته نصحه، دائماً، ألا ينظر إلى أعلى.. «فما أنت سوى ناطور بناية وحمّال نفايات سكانها، وشاطف درجها من الطبقة الثالثة عشرة حتى الطبقة الأرضية، ومعتنٍ بحديقتها، وخادم تؤمر فتطيع، ليس لك غير ذلك؛ فهل تظن أن مثل سلمى تهتم بك؟ لا هي ولا غيرها. لست أنت يا بني سوى سوري تعيش في بلد غريب، ولست محبوباً في الأصل من الناس، فكيف تحبك فتاة منهم؟» ثم كان ماهر يضاحكه ساخراً: «ابحث عن سيرلنكية تخدم مثلك.. في إحدى شقق هذه البناية..أو اطلب من أمك في الضيعة أن تطلب لك يد عيشة جارتكم.. من المستوى نفسه.. إياك أن تنظر إلى أعلى يا خالد.. أنت يجب أن تخفض نظرك إلى الأرض.. ها هنا، في الأسفل الأسفل، هنا مسرح أحلامك يا صبي.. أما فوق فسوف تصطدم وتنقهر وتفقد كل شيء».

لم يكن خالد يستمع إلى نصائح ماهر ولا إلى غيره.. ولا، حتى إلى أبي ربيع الشيوعي الكذاب، الذي كان في كل مرة يحضر له ما تبقى من أطعمة المائدة. يكذب، ويبعد عنه حتى الأحلام، هذه فتاة لها عشاق كثيرون، كلهم من مستوى أهلها، هذه امرأة لا تفكر إلا في نفسها.. ولا تفكر إلا على طريقة أبيها كيف يُجمع المال من دون

تعب.. كان أبو ربيع يشوه صورتها عند خالد.. لكن خالداً كان يزداد إصراراً على حبها. كل هذه النصائح في مكان وهو في مكان آخر.. في واد من الياسمين وفي سهوب خضراء على امتداد النظر. وفوق تلك القمم العالية. وكان يؤمن أن الحب يفعل المعجزات. ولا بد أن يرى ليلة القدر. لطالما طلبها من الله، ومتى كان الله يخيّب أمل عباده؟!

سافر ماهر، ولم يعد لخالد من صديق مثله، جميعهم لا يعرفون شيئاً عن مشكلته. فآثر العودة إلى كتمان أمره فناره في الضلوع لن يستطيع أحد من أصدقائه أن يطفئها.. بل في لحظة يأس، استمع إلى ماهر وهو يطيب خاطره بأنه سيسعى إلى دعوته إلى أميركا ويوفر له كل وسائل الدراسة حتى يصبح في مقام سلمى. كان ماهر يدرك أنه يمنح خالداً أحلاماً كاذبة، وأماني لا تتحقق، فما أن يعبر العمر سريعاً حتى يكتشف خالد أنه أصبح عجوزاً.. وأن تلك الفتاة ذهبت بصباها إلى شاب من عمرها، لعله ذلك الشاب الذي سمع ذات يوم نتفاً من حديثهما وهي عائدة إلى بيتها.. إذ كانت تتحدث إلى ذلك المجهول وهي تقطر سعادة وفرحاً.. ولكن لا أحد يعرف إلى أين وصلت به الحالة التي يعيشها، والتي تكاد تقترب من الجنون.. إنها مشاعر لا يعرف كيف يوقفها.. نهر يندفع بقوة في صدره ولا يقدر على ردّه.

لكن لم يكن خالد يعرف أن سلمى لم يخنها ذكاؤها. كانت

تدرك بحدسها أن هذا الرجل السوري يحبها. بل يعشقها، وليست لديه القدرة على البوح، لكنها في منعطف آخر. في حب تعيشه لذلك الذي تتصل به باستمرار كما كان يترامى إلى خالد... : «أنا كمان بحبك..» و«لا تفكر الآن في الأولاد» و«دعنا نعش شهر عسل طويلاً...» و«لا .. لا.. يا ماجد».

إذاً غريمه اسمه ماجد..

٢٦

لا ننسى خالداً أبداً، فقد أدرك أن حلمه يتهاوى، فها هي أيام العرس قد أقبلت، وأكثر ما أسعده وأحزنه في آن واحد، أن قدمت له سلمى بطاقة دعوة وهي ترجوه أن يحضر. تردد بسبب الشغل. قالت: لا تخف أنا مسؤولة، أريدك فعلاً أن تحضر.. بل أريدك أنت بالذات أن تحملني في العرس على كتفيك. لم يفهم خالد هذه العبارة.. كيف سيحملها على كتفيه؟ومن هو حتى يجرؤ ويلمس هذا الجسد المشدود على طراوة.. وهل في الأعراس أن تُحمل العروس؟. ففي ضيعته بساطة العرس تحت الخيمة ورقصة الدبكة والأوف والميجنا.. وتذكر خالد أنه شاهد في السينما العروس سعاد حسني، آتية إلى قاعة العرس وهي تركب على الجمل؟ فهل هو الآن الجمل، فيسأل خالد نفسه: هل أنت في الضيعة.. أنت في بيروت يا صبي. أنت في مدينة عصرية.. كل شيء فيها جائز.. على الجمل.. على الحمار على كتفيك أنت. بيروت باريس يا ولد.. وفي الضيعة

ترتدي البنت ثوباً حتى رؤوس قدميها.. بل ترتدي تحته سروالاً مزركشاً طويلاً يلامس أصابع قدميها. لكنها هنا تنورة فوق الركبة تكاد تلامس كيلوتها.. في بيروت، كل شيء جائز. لا حرج. تحب الفتاة البيروتية، خصوصاً في الطبقات العليا، أن تبرز مفاتنها.. فهذه الفتنة شيء من الديكور. شيء من لفت النظر، خصوصاً عندما تكون الفتاة جميلة وأنيقة في آن.

كان خالد يخجل من بنات البناية، فيسترق النظر إليهن وهن خارجات أو داخلات. يتبارين في إظهار مفاتنهن وارتداء ملابس آخر صرعات الموضة الباريسية، وكان يراهن كلهن جميلات وطالبات جامعة. خصوصاً الجامعة الأميركية، جامعة رجال السياسة والأعمال والأثرياء وأقساطها الغالية. لكن.. آه يكرر كلمة آه مراراً.. آه.. سلمى أجملهن جميعاً..

تأمل البطاقة، بطاقة جميلة جداً، داخل مغلف زهري اللون، وبوسطه حرف نافر (سلمى وماجد) بأحرف متداخلة، وعلى طرف المغلف أيضاً الاسمان أنفسهما بالطريقة عينها.

يفتح البطاقة ويتأملها دامع العينين. في قسمها الأول قرأ: «ولدتما معاً، وتظلان معاً حتى في سكون تذكارات الله: جبران خليل جبران». سأل خالد نفسه: من هو جبران..؟

هل هو جدها أم جد العريس؟ لم يهتم، المهم أنها بطاقة عرسها،

وسيحضر عرسها وهو سيحمل العروس على كتفيه. ثم قرأ القسم الثاني من البطاقة: عصام الصفدي ولمياء الحاج. ثم سطراً آخر: يتشرفان بدعوتكم إلى حضور حفلة زفاف ولديهما ماجد وسلمى. وذلك في تمام الساعة الثامنة مساء، يوم السبت الواقع فيه ١٤ شباط/ فبراير في فندق لو رويال – ضبيه.

أعاد قراءة البطاقة مراراً. وتساءل هل ماجد من طائفة أخرى؟! لكن الحب يتجاوز الطوائف. والحب أقوى من هذه الطقوس التقليدية. سبق أن لمح ماجداً يصطحب سلمى مراراً. إنه شاب وسيم، ذو أناقة ورجولة في آن، ملابسه تبدو من شكلها أنها غالية الثمن. لم يشعر بالغيرة، فهو يعرف مكانه منذ أول لحظة رأى فيها هذه الفتاة، الفتاة الحلم. ولكن ماجداً من الطبقة نفسها وليس ينقصه شيء. وتمنى في أعماق قلبه أن يكون ماجد قادراً على إسعادها. وأن تعيش سلمى أيامها أحسن ما تكون لا يعكرها معكّر. ليس فيها ما يزيد أو ينقص، خلقها الله كما هي أرادت أن تكون. وتذكر الرابع عشر من شباط.. أليس اختيار هذا اليوم بالذات للعرس إلا تعبيراً عن الحب. هل قصدا فعلاً أن يتزوجا في عيد الحب أم هي مصادفة محض.. ما أذكاهما!

في اليوم السابق، فتّش في ملابسه عما يليق بهذه المناسبة. وجد بنطالاً نظيفاً وقميصاً أبيض وجاكيت ما زالت عليها آثار النعمة، أهداها إليه أبو أحمد التاجر المعروف. فبذل جهداً في تنظيفها

ومسح عنها بعض آثار العفونة وكيّها من جديد.. ثم سحب من أسفل السرير حذاءه الذي ما زال جيداً بعض الشيء. ولمّعه بخرقة نظيفة.. ثم دقق النظر في كل هذه الأشياء وقال: لا بأس ليس فيها ما يخجل.

في ظهر ذلك اليوم، بدأ الناس بالتوافد على البناية، ما اضطره أن يقف إزاء المصعد يفتحه للضيوف ومنهم شابات وشبان، بل لعلهم الأكثر من بقية الضيوف، كان عددهم كبيراً، لكن منزل البيك يتسع للجميع. فهو كما يعرف خالد، أشبه بالقصر. لأنه ثلاث شقق مفتوحة بعضها على بعض.

كان يصغي إلى هذا الضجيج المحبب، هرج ومرج وقرع طبول، وغناء وكان في كل دقيقة يتسلم عدة باقات من الورود التي كانت تصل تباعاً، فيحملها بنفسه إلى الطبقة الأخيرة. بطاقات من علية القوم، من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وقائد الجيش بأسمائهم المذهبة على أغلى أنواع الزهور. كان خالد نازلاً صاعداً ولم يتعب. إنه عرس حبيبته وسيدة حياته. هي فرحانة فلماذا لا يفرح لأجلها؟ ثم جاء المصورون. مصورو الصحافة والمجلات، مصورو محطات التلفزيون قريبة وبعيدة. ولمَ لا، فهذا عرس العصر، ثم جاءت فرقة فولكلورية بأزيائها الشعبية، وطبولها ودفوفها لم يصعد أفرادها بالمصعد، بل راحوا يتقافزون على الدرج وهم يهزجون.

كان جيران البنايات المجاورة كلهم على الشرفات. وخالد وهو واقف في المدخل لمح ما لم يخطر له على بال: سيارة ليموزين طويلة بيضاء تشبه الباص. استغرب، فهو في حياته لم ير سيارة من هذا النوع.. وقدّر أنها تتسع لثلاثين راكباً. توقفت إزاء الرصيف. كانت مزدانة بمئات من أزرار الورد الأبيض تحوطها من كل جانب. كان السائق يرتدي ثياباً مزركشة وعلى رأسه قبعة حمراء. وعندما فتح باباً من أبوابها وجدها واسعة ومريحة، وفي وسطها شاهد مقعدين متقابلين وإلى جانبهما آله ستيريو تصدح بالموسيقى. وكان خالد في مشهد لن ينساه في حياته.. غرابة أدهشته وارتسمت في ذاكرته تشبه الحلم.

ومع غياب الشمس بدأ الضيوف ينزلون، وقد سبقتهم فرقة الأهازيج الشعبية بطبولها ومزمارها تستقبلهم عند المدخل الخارجي. وكانت قافلة من سيارات المرسيدس موديل السنة، وذات لون أسود واحد، إلى جانب سيارات دبليو رباعية الدفع قد اصطفت وراء سيارة الليموزين الكبيرة. سأل خالد. فقالوا له هذه سيارات البدغرد. الحرس الشخصي بملابسهم ونظاراتهم السوداء، هكذا العز زيادة في المباهاة والتفاخر.. ونزل شبان إلى عرض الطريق وبدأوا يفجرون ألعاباً نارية كانت تفرقع بأصوات مختلفة.. وخالد يتفرج محاولاً إخفاء دموعه. كان ما يراه عرساً، بينما هو في الداخل، داخل أعماقه كان يشهد جنازة، هو ميّتها، يا للمفارقة هو يموت وسلمى تعيش!

كان قد نسل من كل باقة ورد وردة أو وردتين حتى تشكلت بين يديه باقة ورد جميلة من خمس أو سبع وردات، أمسك غصونها بقبضته، وهو يظن، أنه سيجرؤ ويقدمها لها عندما يراها.

أخيراً بدأ يسمع زغردات النساء. ليس في هذه البناية فحسب بل من البنايات المجاورة كلها.. يا له من احتفال.. كأنه حلم.. كأنه في عالم آخر.

ثم، أخيراً، فُتح باب المصعد لتتدفق منه سلمى بأحلى ما فيها. كانت نهراً من الجمال بثوب عرسها الأبيض الذي يلامس الأرض، وفي يديها باقة كبيرة من القرنفل الأبيض.

في البداية لم تنتبه له. كانت قلقة ومتعبة. وإن كانت تحاول أن تخفي ذلك بابتسامة مصطنعة. انتظرت قليلاً حتى جاءت مجموعة أطفال. يرتدي الصبيان منها السموكن. بينما الفتيات بثيابهن البيضاء الطويلة. وأمسكوا بفستان سلمى من الخلف ورفعوه قليلاً عن الأرض، فمشت سلمى على مهل. وبلحظة ما تشبه نيزكاً انتبهت لخالد، كان يقف ذليلاً منحنياً مكسور الخاطر. لكن تلك النظرة العجلى أيقظته. نهضت به نهوض طائر الرعد الذي كان غافياً، ثم أفرد، فجأة، جناحيه. ومدت يدها نحوه.. لم يصدق، هل تمد يدها إلى شخص آخر يقف خلفه؟ نظر خلفه فلم يجد أحداً ويدها ظلت ممدودة نحوه. فأسرع غير مصدق. أخذت منه الوردة. ثم همست..

لا تنس تعال بسيارة أبي ربيع.. من هو.. أبو.. ربيع، تذكره، إنه طباخ العائلة.. ثم كررت، خالد تعال معه.

بدأت الصبايا يدخلن مع العروس إلى سيارة الليموزين الطويلة.. أما خالد فظل يبحث عن أبي ربيع إلى أن عثر عليه فقال له: سأذهب معك.. نظر إليه باستعلاء.. ثم قال له: شو أخدك معي؟. شد خالد ظهره ورفع رأسه وقال: بأمر من العروس. سكت أبو ربيع، ربما خجل من نفسه، أما خالد فقد شعر بانتشاء لأن أبا ربيع أسرع ليقول: أي.. أي.. صحيح.. هي أيضاً قالت لي أن أصطحبك معي.. فازداد خالد زهواً، وسأل نفسه كما يسأل الفرحان: كيف خطرتُ على بالها في اللحظات الأخيرة.. وهو يظن أنه منسيٌّ من ذاكرتها.. لا تتذكره إلا إذا شاهدته أو سلّمت عليه أو طلبت منه شيئاً.

مشى الركب انطلاقاً من فردان ووصولاً إلى الأوتستراد فشق طريقه بصعوبة في زحمة السير الخانقة. كانت سيارات الناس تتباطأ لتتفرج على عرس الأعراس. نساء في ملابسهن الطويلة ورجال في بدلاتهم الأنيقة. وكان خالد إلى جانب أبي ربيع يخفق قلبه بشدة مضطرباً لا يعرف ماذا يفعل.

مرت ساعة أو أكثر إلى أن وصلت القافلة إلى أوتيل لو رويال، الذي يتربع على هضبة من هضاب منطقة الضبيّه، مطلاً بكل أناقته الدائرية على البحر.

قال خالد: أبا ربيع أرجوك لا تضع عني.

قال أبو ربيع: ابق إلى جانبي.. لا تخف.

امتلأ صالون الأوتيل بالضيوف وعلى رأسهم العروس. أخذ يتابعها بعينيه، إذ بها تدخل دهليزاً وخلفها أمها وبقية رفيقاتها. ثم اختفين.

ظل خالد إلى جانب أبي ربيع، يتحرك فيتحرك معه. تقدم أبو ربيع خطوات إلى الشرفة. ثم قال لخالد: تعال.. انظر إلى الأسفل. فإذا به أمام مسبح كبير. وقد اصطفت حوله موائد العشاء. فدهش. وراح يعدّ من الأعلى الطاولات، فإذا هي نحو مائة طاولة. كل طاولة تتسع لعشرة من الضيوف. سأل خالد: ما هذا؟ قال أبو ربيع: هذه موائد الضيوف الذين سيحضرون تباعاً. فقدّر خالد عدد المدعوين بألف شخص. فراح يحدث نفسه بصمت: هذا عرس ملوكي، كم يا ترى ستبلغ تكاليفه؟ سأل أبا ربيع. فردّ عليه ساخراً: لا تحسب.. إنها ألوف من الدولارات.. وهذا اليوم، هو يوم سلمى. فليكلف ما يكلف. إذا كان المال وسيلة للسعادة فلا بأس. فتذكر خالد رفاقه السوريين، تذكرهم كلهم بأحلامهم المكسورة، بشظف عيشهم، ينامون على معدات خاوية، بضع مئات من الدولارات لكل واحد تكفيه شهوراً. وتذكر رفاقه الذين ماتوا غيلة وهم يبحثون عن لقمة الخبز. تذكر حسن ورفاقه.. لمجرد أن يكون الواحد منهم سورياً، فهو هدف للاعتداء وتكسير رأسه، وكم اعتدت الغوغاء، منذ استشهاد

الحريري إلى اليوم، على هؤلاء القادمين من أطراف المدن السورية وأريافها، فقراء وشحاذين.. تذكر كيف كانوا يوقفونهم في طريقهم ويستولون على كل ما معهم، وهي مجرد قروش للسترة. تذكر ذلك كله وهو يرى هذا العالم الغريب عنه. تذكر، من أجل عشرة دولارات: هاتها ولا.. يا كلب.. يا سوري..

كان خالد أمام المشهد يتألم لأنه أصبح لعنة هو ورفاقه مكروهين من فئات كثيرة من اللبنانيين: «يا كلاب.. قتلتوا الحريري..» ولكن خالداً يتذكر ما رواه ماهر قبل سفره أنه التقى رفيق الحريري.. فأحبه لدماثته ورقيه ولطفه، أحبه لتواضعه ومساعدته للفقراء، وبناء المساجد، وتبني آلاف الطلاب الذين يسعون إلى التعليم والتخصص في الخارج.. وقال ماهر: إن عدد هؤلاء تجاوز الثلاثين ألفاً. هذا ليس رئيس وزراء فقط. إنه رئيس للمتعبين والمحتاجين والمعوزين.. لماذا إذاً قتلوه؟ سأل خالد نفسه: ثم هجس: إذا كنا من القتلة فبئس لنا وبئس سوريتنا وبئس لنا سوء المصير!

ظل خالد لصق أبي ربيع. يمشي إذا مشى، ويتوقف إذا توقف، عينه عليه مئة بالمئة لئلا يختفي ويضيع عنه:

تقدم الضيوف إلى ساحة أخرى تتصدرها صورة كبيرة للعروسين. وانتبه أن كثيراً من الفتيات رحن يكتبن على أطراف الصورة، في تلك الزوايا المخصصة لهذه الكتابات. يهنئن العروسين ويتمنين لهما السعادة وطول العمر وإنجاب الأولاد. قرأ أكثر ما كُتب بخطوط

مختلفة، فهمس لنفسه: يا لسعادتها!. وفي زاوية المكان المطل على حدائق الفندق، قدّم خدم بملابس زاهية المشروبات المختلفة، منها عصائر ومنها مشروبات روحية على أنواعها. فأخذ أبو ربيع كأساً من الويسكي وقدمها إلى خالد قائلاً له: اشرب.. اشرب يا خالد. هذه فرصة لن تراها مرة ثانية.. اشرب حتى تنجلي روحك من الصدأ. ضحك خالد وقال له: يا أبا ربيع، أنا متعوّد كأس عرق.. لماذا لا يقدمون العرق هنا؟ أجابه أبو ربيع: العرق لمثلك من الدراويش.. خذ، تمتّع.

أخذ خالد الكأس على مضض. فتلمس ما فيها بشفتيه.. خاف أن يشرب، فيضيع ويفقد رشده. فإذا كان هذا اليوم يوم سلمى، فهو يومه أيضاً. يومه عندما يحمل على كتفيه هذا الجسد المشعّ ويتلمسه من كل جوانبه. فيما كان في السابق يحلم لو يتلمّس يد صاحبته.

مزمز الكأس رشفة بعد رشفة، وقرر ألاّ يشرب سواها. بينما كان صاحبه يشرب الويسكي كما يشرب الماء.

كانت تقف في مدخل الطريق إلى المسبح فتاة من موظفات الفندق، لا تسمح لأحد بالدخول إلا لمن كان اسمه مسجلاً لديها، فلكل مدعو اسمه ورقم الطاولة التي ينبغي الجلوس إليها. والأطرف بالنسبة إلى خالد أن رقمه كان مختلفاً عن رقم أبي ربيع.

بدأ المدعوون يتخذون أماكنهم إلى الطاولات المصطفة حول

المسبح كحدوة حصان. فسأل خالد أبا ربيع: ألا ننزل؟ قال: لا.. سننزل عندما تحمل العروس. لم يستطع خالد أن يتحكّم في مشاعره، وهي خليط بين السعادة والأسى. كان قلبه يدق كما كان عازف الطبل يقرع طبله بإيقاع منتظم، فظن خالد أن قلبه سيخرج من صدره.

امتلأت الساحة بالمدعوين من كل حدب وصوب. وخالد ممسك بيد أبي ربيع لئلا يفلت منه.. وراح المكان يصدح بالأغاني الشعبية من ميكروفونات موزعة على الأطراف الأربعة إلى أن اكتمل العقد، ودهش خالد لهذا التنظيم الدقيق.. وانتبه في لحظة للسيدة أم سلمى تتقدم منه: خالد.. تعال. فمشى خلفها حذراً خائفاً فإذا به في غرفة واسعة وسلمى ورفيقاتها يساعدنها، ويمسحن جبينها المتعرق. كانت سعيدة، يفتر فمها عن ابتسامة عذبة. ولمحت فجأة خالداً، فقالت له ضاحكة: لست ثقيلة عليك.. إنني كالريشة. ابتسم بصعوبة، وهمس لنفسه: لو كنت جبلاً سأحملك. كانت رفيقاتها يتلمسن وجهها خوفاً على مكياجها.. ثم قالت الأم لخالد: اقترب. فاقترب وهو يرتجف. وليس مصدقاً أنه سيحمل حبيبته المستحيلة، هكذا بكل بساطة على كتفيه. بل في هذه اللحظة أحس كأنهم يقودونه إلى منصة الإعدام.. ما الفرق؟. صعدت العروس إلى كرسي، بينما انحنى خالد قليلاً فركبته، كما تركب مصرية جملاً ذا سنامين.. إنه الجمل. إنه الصحراء الممتدة حتى الأفق، وإن هذا اليوم هو يوم سعده ويوم موته في آن. قالت ضاحكة: إياك أن تفلتني فوعدها أن يوصلها إلى

عريسها سالمة. صعدت، إلى أن استقرت على كتفيه تماماً، ها هو رأسه بين ساقيها تضغط عليه لئلا تقع.. لحظات.. لم يصدق خالد، هل هو حلم.. تنشق عطرها.. بل تنشق جسدها كله.. تنشق عرقها الذي راح ينقط على رأسه ووجهه وعنقه. تلمّس طراوتها العجينية.. لم يفكر في شيء إلا أن يوصلها إلى عرشها بسلام. لم يخطر في باله شيء من الدنس. مع أنها ها هي بكل جسدها فوق رأسه. وبالفعل، شعر أنه يحمل خيالاً، يحمل طيراً أبيض ذا جناحين أبيضين، يحمل غصن ياسمين أو قارورة عطر. كانت لخفتها كأنها تطير فوقه. بل هي تعمدت أن لا تثقل عليه. فاستعانت بالهواء كي يخفف عنه ما استطاع.

نزل بطيئاً على الدرج وخلفه حسناوات لم يعدّهن، بينما لحق بالعروس الأطفال إياهم الذين سيحملون أطراف ثوبها الأبيض لدى ترجلها إلى الطريق الضيق بين المدعوين.. لم يتعب، مع أنه عدد الدرجات التي ينزل عليها درجة درجة، فإذا بعددها أربع وأربعون درجة. ودخل إلى الساحة. فوقف الجميع يصفقون بينما انطلقت الألعاب النارية، تصعد إلى أعلى مفرقعة في عنان السماء. بدت العروس على كتفي خالد، كأنها عملاقة تطل على الجميع من علٍ. تلك كانت الفكرة بالأساس. أن تكون عالية على هذا الحشد من البشر المدهوشين بجمالها وبفكرة حملها على كتفي رجل غريب. بل كل هؤلاء تحت حذائها وهي تهز بقدميها يا للفرق الطبقي!

كانت الأهازيج تزداد عنفاً ودبكاً وصراخاً. إلى أن وصل خالد بالعروس إلى المائدة الرئيسية، فانحنى إلى تحت حتى ركبتيه، كما يفعل الجمل. فنزلت عن كتفيه. وفيما هو يرفع رأسه مثقلاً بعرقه وإجهاده حدثت المفاجأة التي لم تخطر له على بال، إذ أمسكت سلمى يده وقبلته من وجنتيه وهي تكرر: ميرسي خالد ميرسي. ظل واقفاً مشدوها لا يعرف ماذا يفعل.. ثم تراجع إلى الوراء خطوات وراح يتلمس برؤوس أصابعه خديه حيث طبعت سلمى قبلتيها. وهي، ربما، لم تكن تعرف، بل ما فكرت أنها، بقبلتها هذه، أحدثت به دبيباً كدبيب النار في الفحم. ارتكن إلى الزاوية مرتجفاً، غير منتبه لهؤلاء الناس من حوله، كأن الجنون أصابهم جميعاً بين رقص وغناء واختلاط الحابل بالنابل وغبطة وفرح، أين منها أحزان خالد، وإحساسه بأنه يسقط في بئر لا قاع لها.

وحده ارتبك، ولم يعد يعرف ماذا يفعل. هل ينسحب؟ كيف ينسحب ولا يعرف أين هو؟ كيف؟ هل يعود إلى بيروت وكيف؟ وقع في حيرة، ظل واقفاً بعيداً، وهو ينظر خفية إلى تلك الفتاة، التي قد لا يراها ثانية، كانت تضحك، وتلاعب عريسها الشاب الوسيم، وترتشف أقداح الشمبانيا من دون توقف.. لأول مرة يشعر أنه غريب، ازداد ارتباكه، ولم يعد يعرف ماذا يفعل. أخذ يبحث بعينيه عن أبي ربيع، فلم يعثر له على أثر في هذا الازدحام. ولم يعرف إلى أي طاولة يجلس، كان يشعر بالخوف والانسحاق. فمشى بين الموائد

إلى أقصى المكان، والدهشة لا تفارقه من كثرة المصورين مصوري كاميرات، مصوري فيديو، بل سحرته تلك الكاميرا العالية التي كانت تدور فوق الرؤوس كالأفعى، تنقل المشهد بكل اتساعه، كما لو أنها عين سماوية كبيرة تستطيع أن ترى وتصوّر كل هذا المشهد امرأة امرأة ورجلاً رجلاً، ظل مسحوراً ومرتبكاً في آن. مشهد ما كان يخطر في باله أنه سيراه يوماً في حياته، إلى أن عثر على أبي ربيع.. فعاتبه لأنه تخلى عنه. فطيب خاطره وأجلسه بجانبه إلى الطاولة التي جلس حولها خدم البيك وسائقو سياراته. إذ يراهم لأول مرة بملابسهم الزاهية، فشعر أمامهم بالخجل على ما يرتدي من أسمال ليس عليها نعمة الأناقة، ولكنها، على أي حال، نظيفة، وهي الآن معطّرة بعرق جسد أجمل امرأة في الكون، وإن كان له أن يتباهى أمام هؤلاء، فإنه وحده حمل سيدتهم على كتفيه. وفيما كان يسترجع المشهد، تذكر الآن، وليس قبل، طراوتها وساقيها اللتين عانقتا رقبته.. أخذ يستعيد المشهد، غير آبه لما يتحدث عنه الآخرون حول الطاولة عن بذخ هذا العرس بما لا يصدق. وإن كان يتذكر الآن وليس قبل كيف تلمّس بفمه أطراف قدميها وهو يشدهما إليه خشية أن تفلت من فوق كتفيه وتقع. تذكر الآن، وليس قبل، نعومة ساقيها وملامسة ملابسها الداخلية لوجهه، فيشعر الآن، وليس قبل ذلك بهذا الحرير الذي يتهادى فوقه مع كل نسمة عابرة. يتذكر الآن وليس قبل أن فستان عرسها كان يظلله من رأسه إلى أخمص قدميه، فلا يكاد يعرف طريقه إلى المائدة الرئيسية، التي ستجلس إليها العروس إلى جانب

ماجد. كان خالد في واد وأبو ربيع في واد، وقد تعتعه السكر حتى التوت كلماته على طرافة وظرافة، وانصبت تعليقاته الساخرة على هذه الطبقة وهذا المجتمع المخملي المزيّف حسب تعبيره، ناقماً على ظروفه لأنه مجرد طباخ في منزل أحد كبار القوم، وليس واحداً منهم.

كان خالد يريد أن يقول لأبي ربيع إن نقمتنا ستكون في الجنة على ما رأينا في هذه الدنيا الزائلة. هي الجنة التي وعد بها الله فقراءه. فغمز أبو ربيع كل الرفاق: اسمعوا ماذا يقول خالد؟ إنه يتحدث عن الجنة، هذه الخرافة التي لا نعترف بها نحن الشيوعيين.. جهنم والجنة على الأرض، وليس في مكان آخر. والتفت نحو خالد مؤكداً له بإصرار وحسم: هنا الجنة وهنا النار. هنا الخلود والفناء في آن. وعندما يشرفنا الموت بعباءته السوداء الفضفاضة نكتشف أن حياتنا لم تكن سوى ومضة. لمحة من الأحلام المتتابعة فنسقط آخر لحظة من حياتنا، حياة لم ننعم بها كما ينعم بها هؤلاء – مشيراً بيده إلى الحشد – لأننا كنا على الدوام أبناء الجارية وهم أبناء الست.

كانت عينا خالد تلاحقان من هذا المكان، ساحرته العروس وهي ترقص مع عريسها على المسرح الدائري، على إيقاع الطبل والمزمار والمغني يعلو صوته على صوت الآلات الموسيقية من خلفه. كانت سلمى ترقص من دون تعب ومن دون ملل. إنها ليلتها، بل كانت تنزل إلى الناس وتشدّ الصبايا من أيديهن والشباب ليرقصوا معها.. لم يكن

أحد ليمتنع. لكن خالداً كان بعيداً إلى جانب هذا الثرثار الشيوعي الذي يشتم الجميع: شوف يا خالد.. كلهم حرامية.. وحتى تعرف من أين لهم هذا المال، فتش عن تاريخهم. إنهم يبيعون كل شيء من أجل المال. نساءهم، كراماتهم، ودينهم أيضاً. كان خالد يتذكر أبا الربيع الذي يحاول أن يقنعه أن يكون شيوعياً، وأن الشيوعية ستنتصر ذات يوم وتعم المساواة الجميع. سقوط الاتحاد السوفياتي يا خالد مؤامرة. حتى لا يقف في وجه أميركا التي تريد أن تنفرد بالسيطرة على العالم.. فيرد عليه خالد: يا أبا ربيع أنا مجرد ناطور في بناية. سوري مسكين لا أتدخل في السياسة، لقمة خبزي وكرامتي فقط، لا تحاول إقناعي بما لا أفهمه ولا أقتنع به. لكن أبا ربيع مع كأسه العاشرة صب جام غضبه على جميع هؤلاء الذين نساؤهم لرجال آخرين، ورجالهم لنساء أخريات. خيانة. مجتمع كاذب، منافق، لا يحلل ولا يحرّم.

ضاق صدر خالد بثرثرات أبي ربيع، فتركه متنقلاً من طاولة إلى طاولة، معتذراً أنه ذاهب إلى الحمّام.. فصاح به: شخ على هؤلاء جميعهم.. عليهم جميعهم يا خالد. فتجاهله خالد فيما هو ارتفع صوته مجاهراً بنقمته على هذه الطبقة التي تعيش على حساب الفقراء وراح يتأمل هذه الوجوه، نساء متبرجات، ورجال أنيقون، يصفقون للراقصين. منهم من يكرع من زجاجات الويسكي المصفوفة بسخاء على الطاولات، ومنهم من ينتظرون الخدم ليفرقعوا فوق رؤوسهم

زجاجات الشامبانيا على أنواعها. لم يخطر في بال خالد أن يرى يوماً ما يراه الآن، يتمشى وعيناه تنتقلان بين هؤلاء هنا وبين الراقصين والراقصات هناك، وحبيبة القلب كالنخلة تتمايل مع الإيقاع فيتمايل الجميع معها. كانت تقودهم قيادةَ القبطان سفينةً في بحر هائج. تقف فيقفون. ترقص فيرقصون. وكان قلبه هو – أيضاً – يرقص معها كيفما رقصت أو مالت وعريسها نشوان كأنه شرب كل زجاجات الشمبانيا في العالم. كان ماجد فخوراً بأنه حظي بعروس من كنز. جمال ومال وصبا.

بلغت الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل، فزحف جميع المدعوين إلى الموائد العامرة بكل لون وصنف من الأطعمة الغالية الثمن.. أسماك.. قريدس. كافيار أحمر وأسود. حمل خالد طبقه واتجه نحو الطعام، كان جائعاً جداً. تصوّر أنه سيلتهم هذا الطعام كله.. كان الهجوم على الطعام في البداية هادئاً ثم تعجلت الأقدام حتى لا يفوت أصحابها شيء من المآكل الفاخرة.. فقد تعب الجميع وآن أوان الأكل وعليهم ملء معدهم الخاوية بكل ما لذ وطاب.

لم يكن خالد بعيداً عن ذلك، فاصطف مع أبي ربيع الذي استند إلى كتفه بين هؤلاء كأنهما فردان منهم. مساواة، تلك المساواة التي كان يحلم بها هذا الشيوعي المخضرم، ها هو يطبقها هنا ولو من باب السخرية، فهذا الطعام لم يفرق بين غني وفقير ولا بين عظيم وحقير. طعام مهمته ملء هذه المِعَد الخاوية حتى الشبع. وخالد، هذا هو

اليوم الوحيد الذي يأكل فيه حتى التخمة.. فكم كان ينام من دون عشاء ولو كسرة خبز. أكل بشراهة حتى ظن أنه يأكل عن عشرة أيام. بل تمنى لو يتاح له أن يملأ جيوبه من هذا الطعام من دون أن يشعر به أحد.. لكن أبا الربيع فعل، أحضر رغيف خبز عربياً وشقه نصفين وملأه بأنواع الكافيار، علناً، أمام الناس وأشار إلى خالد أن يحذو حذوه، لكنه لم يفعل. استحى من عيون الناس التي كانت ترمق أبا الربيع بتأفف، ومع ذلك لم يهتم أبو الربيع بأحد من هؤلاء، وفعل ما أراد أن يفعل.. ومن أراد أن يعترض فطز عليه. إنما خالد، شبع كما لم يشبع في حياته من قبل، وأنهى عشاءه الفخم بقطعة من الحلوى.. التهمها على مهل وتمنى لو يستمر هذا المشهد غير المألوف حتى الصباح الباكر.

اقترب خالد من الفرقة الموسيقية، حيث كان مطرب معروف يغني أغاني شعبية تناسب الرقص الشرقي المختلف الألوان والدبكة التي شارك فيها عشرات المدعوين ليس على المسرح الدائري فحسب، بل حول الطاولات وفي غير مكان. أحس خالد بأن هذا الحشد المخملي قد خرج على السيطرة في ليلة خارجة على السيطرة أيضاً.. اقترب من المغني المعروف يستأذنه بالغناء هو أيضاً.. فسأله هل صوتك جميل؟. قال لا يهم إنما أريد أن أغني. ابتعد المطرب عن الميكروفون وطلب إلى عازف العود أن يرافق خالداً باللحن الملائم. فبدأ بنداء الليل.. لم ينتبه له أحد، مرت دقائق.. ثم بدأ

الجمع يصمت تدريجاً فقد كان صوت خالد كأنه من السماء. ظن الجمع أن هذا الغناء الشجي هو جزء من الاحتفال وليس مقحماً عليه. صوت جميل فيه صدق وأسى وعذاب.

الليل الليل

يبقى أطول

من ساعاته

أعاد خالد هذا المقطع بصوت مجروح، حتى أن سلمى نفسها التفتت إليه غير مصدقة، كان خالد يمسك بالميكروفون كأنه يمسك بحبيبته، وكان عازف العود منسجماً معه إلى آخر الحدود.

وابتدا الليل

يبقى أطول من ساعاته

يا ليل يا ليل

ثم بدأ يغني لمحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ.. إلى أن بدأ بأغنية يا جارة الوادي التي غناها محمد عبد الوهاب لزحلة. لكن خالداً شعر الآن بأنه يغنيها لسلمى.. سلمى بالذات:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عينيَّ في لغة الهوى عيناكِ

لا أمـس مـن عـمـر الـزمـان ولا غـدهُ

جُـمَـع الـزمـان فـكـان يـوم لـقـاكِ

أعاد هذا المقطع مرات، ثم راح يغني من الأطلال لأم كلثوم، وهي أغنية صعبة جداً، لكن خالداً أعطاها من روحه وشجنه كأنه هو كاتبها وملحنها ومغنيها:

يـا فـؤادي لا تـسـل أيـن الـهـوى

كـان صـرحـاً مـن خـيـالٍ فـهـوى

كـيـف ذاك الـحـب أمـسـى خـبـراً

وحـديـثـاً مـن أحـاديـث الـجـوى

توقف خالد عن الغناء وانسحب بسرعة واختفى بين الحشد، لم يعرف أحد من هو صاحب هذا الصوت، وظن الناس أنه أحد أفراد الفرقة.. التي عادت تهزج وتضرب على الطبول.. إنما سلمى وحدها أحست بأن هذا الصوت كان يغني لها، ولم يخطر في بالها أنه خالد.. خالد بالذات.

عاد خالد إلى طاولة أبي ربيع.. فسأله أين كنت؟. قال: في التواليت.. قال له: فاتك أن تسمع شخصاً من الحضور غنى فأطرب.. وليس كهؤلاء الذين لا يعرفون إلا الصراخ الذي يسمونه طرباً.

٢٧

استيقظ خالد بعد ليلتين من التعب، والصداع الشديد، والضجيج. ضجيج الطبول والمزامير في رأسه وصدره. فاستعرض بعد ذلك تلك الليلة المذهلة التي عاشها. وظن أن ذلك كله كان حلماً من الأحلام، وأن كل ما رآه لم يكن حقيقياً قط، وأن ما توارد في ذاكرته من تلك الصور ليس سوى حالة من الهلوسة، فلا هو حضر العرس، ولا هو حمل العروس على كتفيه.

وعندما روى ذلك لرفاقه السوريين ولماهر أيضاً عندما اتصل به للاطمئنان إليه، لم يصدقه أحد منهم. كذّبوه. وقال له ماهر عبر هاتفه الخليوي: خيالك واسع يا خالد.. يا عمي تعلم واقرأ، هل تروي لنا حلماً من أحلامك، أو كابوساً إن صح القول. كيف استطعت أن تحمل امرأة بقضها وقضيضها على كتفيك؟ ألم تفلت منك؟ لو كنت في مكانك لأوقعتها على الدرج حتى تنكسر عنقها.. عليّ وعلى أعدائي يارب..

.. بعد كل هذه المداخلات من رفاق العذاب، بدأ يشكك في نفسه، ويظن أنه كان يحلم.. حتى صار يسأل نفسه كأنه يسأل غريباً: هل صحيح أنه حمل حبيبته على كتفيه في تلك الليلة النادرة؟

كان أبو ربيع يسأله بسخرية: كيف كانت مشاعرك وعلى كتفيك أجمل امرأة في العالم؟ لماذا لم تسقطها عن كتفيك فتخلص منها ومن واحدة من هذه الطبقة، وتدعي أنها سقطت غصباً عنك.. وأنك حاولت حمايتها.. فيرد عليه خالد: عيب يا أبا ربيع هذه بنت ولي نعمتك الذي يأتمنك على بيته وأهله.. يا ناكر الجميل.. فيعلو صوت أبي ربيع: هؤلاء طبقة حرامية اكتسبت المال من عرقي وعرقك.. سنثور يوماً عليهم، وستكون إلى جانبي.. ليس في لبنان فحسب، بل أيضاً في سوريا وفي كل العالم العربي، ونؤسس دولتنا دولة الاشتراكية والمساواة بين البشر.. فسأله خالد في أي يوم سيحدث هذا؟ قال أبو ربيع: قريباً قريباً.. بين عشية وضحاها. فلا تجد نفسك ناطور هذه البناية بل مالكاً لإحدى شققها. رد خالد: كفى أحلاماً كفى أبا ربيع.. أنا إنسان وفيّ لوليّ نعمتي.. وصاحب هذا المبنى.. ليس معلمي فقط بل تاج رأسي أيضاً. فيعارضه أبو ربيع يريد أن يتابع كلامه، غير أن خالداً تركه ونزل إلى غرفته في القبو.. نعم، يبدو أني كنت أروي حلماً.. كنت نائماً وكنت أحلم، فمن أنا لأحمل على كتفي امرأة تمنيت أن أحملها على كتفي في كل مشاويرها كأحسن من أي سيارة فخمة.

ويسحب من جيبه هاتفه المحمول الذي التقط به خلسة عدة صور لسلمى.. وكبس زر الهاتف ليتأمل تلك الصور.. فيتذكر ذلك الدفء الذي أحس به لحظة حملها كأنه لا يزال يشعر به حتى الآن.. رائحة ملابسها الداخلية. رائحة جسدها. بل رائحتها كلها. هل لبقية النساء مثل هذه الرائحة؟ لم يلمس في حياته امرأة، ولو مجرد لمس، فكيف يميز الآن إذاً رائحة هذه من تلك. قال له، مرة، أبو ربيع هذا النسونجي بامتياز: المرأة أكل.. طعام. نحن الرجال بحاجة إليه على الدوام.. فيضحك خالد ويتصور أن أبا ربيع لا تتجاوز أحلامه موائد الطعام، وأن كل تشابيهه مرتبطة بالطعام، فخدا سلمى كأنهما قطعتا بندورة حمراء.. شفتاها مثل حبتي فجل. هذا هو خيال أبي ربيع وبئس هذا الخيال!. فبينما يرى خالد أن جسد سلمى المشدود شجرة نخيل يراه أبو ربيع عصا يابسة تكاد تنكسر.. هذا هو الفرق بين عاشق الروح وعاشق الجسد.. بين البراءة والدنس. ويهمس أبو ربيع وهو سكران أنه لمح جسد سلمى عارياً وهي تخرج من الحمّام قبل أن تتلفع بمناشفها البيضاء. منع خالد أبا ربيع أن يحدثه بمثل ذلك. واتهمه أنه كذاب، وأنه يريد أن يشوّه هذه العائلة التي يأكل من خيرها. وباختصار، إن شعار أبي ربيع أن المرأة عبارة عن مائدة طعام كل ما عليها من أطباق شهي ولذيذ.

كان خالد يحسد أبا الربيع، ويتمنى أن يسميه أبا الخريف، فهو في الستين من عمره. يحسده لأنه كان دائماً على تماس مع تلك

العائلة. يطبخ لها ما لذ وطاب. ويرى سلمى كل يوم بل كل ساعة، يسمعها وهو يسكب أنواع الطعام في صحون العائلة، كيف تتحدث عن ماجد أيام الخطبة. وكيف يتحادثان عبر الهاتف الأرضي. ويظن خالد أن الحزب الشيوعي هو الذي دس أبا ربيع في حياة هذه العائلة الغنية ليعرف عنها كل شيء.. مع من يتحدث رب العائلة.. من هم رفاقه من الرأسماليين ومن ذوي النفوذ في الدولة وفي أجهزة المخابرات. لأن ساعة الصفر مقبلة لا محالة. وبالفعل، كان أبو ربيع يسترق السمع حتى إلى غرفة النوم، وإلى أحاديث الهاتف، بل إلى كل شاردة وواردة. أصبح خالد يخاف أن يورطه أبو ربيع في ما لا يرضاه ضميره. هذه العائلة التي أحبها خالد واعتبرها أهله، ولم ينس كيف اهتم صاحب البناية باستشهاد أخيه حسن، فلم يدخله في تعقيدات المعاملات الإدارية كي يأخذ جثة أخيه إلى ضيعته ويدفنه هناك.. هذا التعاطف من أبي سلمى لن ينساه.. وإذا لاحظ في أي يوم أن أبا ربيع يضمر الشر لهذه الأسرة فسوف يقتله بيده. كان خالد يتّهم أبا ربيع أنه أكّال نكّار، ومثل ما يردد المثل وما يردده أبو ربيع نفسه أنه يبوس يد ولي نعمته ويدعو عليها بالقطع.

لم يكن خالد يحبه، عدا أنه كان يتحاشاه دائماً. ولم يرد أن يتأثر بأفكاره وحلمه المستحيل أن يقود هو نفسه الثورة الشيوعية، ليصبح له تذكاراً ونصباً في ساحات المدينة كما كان يحلم. لكن أبا ربيع لم يفقد أمله في إقناع خالد بالشيوعية فكان يشبهه بخالد بكداش

لتشابه اسميهما. ويتحرش به كلما سنحت له فرصة، فيتحدث عن ماركس ولينين والثورة البلشفية الأولى التي جعلت، لاحقاً، من الاتحاد السوفياتي نداً لأميركا والغرب. ومع ذلك لم يتجاوب خالد مع هذه الأطروحات، ففقد أبو ربيع الأمل من إصلاح خالد! فتحول عدواً له.. صار هو آمره، فيطلب إليه الذهاب إلى السوق، ليشتري للعائلة كذا وكذا. وصار يعامله معاملة السيد للعبد. فاكتشف خالد أن كل ادعاءات أبي ربيع بشأن المساواة بين البشر كذب، وأن ما يعاب على العائلة التي يخدمها يعاب عليه أيضاً كمستبد حقير. وما يتلقاه فوق من أوامر يمارسه تحت على خالد، والذي أدرك بحسه النقي أن أبا ربيع شخص انتهازي بالدرجة الأولى، وأنه حقود ولئيم، وقد يكون ادعاؤه الشيوعية غير صحيح. إلا أنه يحاول الظهور أمام خالد بمظهر الحمل، لكنه في الواقع ليس إلا ذئباً ينتظر اللحظة المناسبة التي تسمح له بنهش فريسته.

تخرج أبو ربيع في المدرسة الفندقية. فهو عالم بفنون الطبخ والغذاء، وهذه العائلة التي هي فوق خاضعة لمزاجيته. يكذب عليها زاعماً أن هذا الطعام مضر لكثرة الدهون، وهذا اللحم ليس طازجاً وهذه السمكة من البراد وليست من البحر.. فمن خلال مهنته هذه، يمارس على هذه العائلة عنجهيته، والغريب أنهم يصدقونه خصوصاً فيما يتعلق بأمور الطعام، على أنه يتحين الفرصة ليدس لهم السم في الدسم مطبقاً عليهم ثورته الشيوعية. وفي بانتظار ذلك، فهذا صالح

لهم وهذا غير صالح. هذا مضر وهذا أقل ضرراً. وما لا يصلح لهم يصلح له. فيأكل ما حذرهم من أكله حتى صار كرشه كرش امرأة حامل بأربعة توائم. يأكل وحده أكثر منهم مجتمعين هم وضيوفهم. وما يصنع من طعام طيب له هو وليس لهم.

كان خالد يتخيل كل شيء عن هذا الرجل العجيب ذي العينين الخرزيتين الصغيرتين اللتين تشيان بخبثه، وشاربيه الرفيعين اللذين يشيان بكذبه، وشكله القصير المفلطح الذي يشي بنفاقه والادعاء بما ليس فيه.

يشعر خالد، ربما بأنه الرجل الوحيد في هذه البناية، الذي يعرف هذا الرجل على حقيقته. كان يدعوه في إجازته الأسبوعية كي يرافقه ليتسلى معه ويتفرج على ما لا يعرف من ليل بيروت، فأخطأ خالد بمرافقته مرة واحدة ولن يكررها بعد اليوم أبداً. فأبو ربيع رجل نسونجي يشهق كلما رأى طرف ساق امرأة عابرة في الطريق. يدعي أن في حياته عشرات النساء هجرهن جميعاً. وأن اللواتي عشقنه هن على عدد شعر رأسه مع أنه أصلع حتى رقبته رأس كالبطيخة القرعاء. اصطحب خالداً إلى بارات الجميزة والحمرا، فانتبه خالد إلى أنه كان يسرق ما يشرب من دون أن يدفع ثمنه. يقول لخالد: اسبقني. ثم يوهم موظف البار أنه ذاهب إلى الحمّام، ثم يهرب متسللاً إلى الخارج، وهو يهمهم: هذه البارات أصحابها رأسماليون، وعلينا توريطهم في الخسائر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. كان أبو

ربيع يتفاخر أمام خالد بذلك، فيقول له: سرقة هؤلاء حلال، لأنهم يحصلون على رزقهم بالحرام.

لم يحب خالد أبا ربيع قط. لكنه، تلك الليلة، غير المحسوبة من الزمن، ربما وجد أنه على حق، قال أبو ربيع: تكلفة هذه الحفلة لا تقل عن مائة ألف دولار. كان يكفي خمسون ألفاً، والخمسون الأخرى توزع على المحتاجين من الفقراء، الذين يمثلون ثلثي سكان هذا البلد. هذا رقم كبير لحفلة عرس. فقال خالد: عندنا ناس مثلكم فقراء هم الأكثرية وأثرياء هم أبناء السلطة وأبناء الذوات. فأضاف أبو الربيع متسائلاً: يا ترى خالد.. هذه الخمسون ألفاً كم تسد من جوع ألوف الجائعين في الأوزاعي والمخيمات الفلسطينية وأطراف طرابلس والجنوب وعكار؟ الفقر كافر يا خالد، فقد يرتكب الفقير من أجل أولاده جريمة. وراح خالد يستعيد مشهد أبي ربيع وهو يجيل نظره في وجوه المدعوين في عرس سلمى مردداً: هذا ظلم، وتهتك. قال ملتفتاً إلى خالد، هل تظن أن هذه البقايا من الطعام سيجمعونها في أكياس ويوزعونها على الفقراء المنتظرين في الأسفل؟! لا يصل إلى هؤلاء من الجمل حتى ولو كانت أذنه، فكل هذه الفضلات تلقى في حاويات الزبالة. ألم أقل لك مرة إن الحياة ظلمها كثير وعدلها قليل. نحن، وأشار إلى الخدم المتوزعين حول طاولته، والواقفين إزاء معلميهم.. وسائقي سياراتهم، نحن الأكثرية، وعلينا خطف لقمة العيش من أفواه هؤلاء المتغطرسين والمتكبرين

على البشر. هؤلاء ليأخذوا نصف اللقمة ويعطونا نصفها الآخر، هنا تتحدد معالم الإنسانية، والمساواة في كل شيء، ومن أكثر عطاء يأخذ نصيبه.

يتذكر خالد انطباعاته عن هذا الرجل، فيتذكر في الوقت نفسه فيلم الدكتور جيكل ومستر هايد، الذي شاهده مع عامر في إحدى صالات بيروت. لأبي ربيع شخصيتان. فهو المقامر على موائد الميسر، وهو السكير والعربيد ولص محترف. ولكنه في المقابل يصلي ويتلو آيات وسوراً من القرآن الكريم لا يخطىء فيها. فيبدو لخالد كأنه الشيطان والملاك في وقت واحد. أحياناً يحترمه وأحياناً يحتقره، ثم يتذكر أن الناس ليسوا كلهم ملائكة.. أحياناً يضطر المرء أن يفعل ما ليس من طبيعته. فللظروف أحكام.. لكنه قرر أن ينأى بنفسه عنه، وأن لا يتأثر به، ويحافظ على مبادئه، فإذا كان صاحب هذا المبنى، كما يراه هذا الطباخ الماهر، من النوع الذي «يبوس يده ويدعو عليها بالكسر»، فأنا لا أرى فيه إلا رجل خير وإنساناً نبيلاً آواني وأعطاني ما لا كنت أحلم به، وساعدني يوم استشهاد أخي حسن بكل إنسانية متحررة من العقد. فمن دونه ماذا كنت أستطيع أن أفعل بعد موت حسن. ساعدني على إنجاز معاملات الوفاة، وساعدني على دفن حسن في ضيعته، وتحت تراب وطنه، بل إنني أدعو له بالخير وبطول العمر. والله يديم ابنته سلمى التي ملكت عليّ الفؤاد والروح.

٢٨

عتب أبو عامر على الحاج أبي علي أن يلقي بابنه علي ذي الاثني عشر عاماً ليعمل لدى الخضرجي زعيم رأس بيروت أبي العبد، المعجب بجمال عبد الناصر إلى حد أنه سمّى ابنه على اسم عبد الناصر الذي يساعده في المحل. وأحياناً وحده. علي صبي الخضرجي أبي العبد، كان يبدو لأهل المنطقة أنه في همة شاب في العشرين. فلا يتوقف عن إيصال الأغراض من فاكهة وخضر في محيط خمسة عشر كيلومتراً مربعاً. أهل رأس بيروت لا يشترون حاجات مطبخهم إلا من محل أبي العبد، الذي يحرص أشد الحرص على أن تكون بضاعته أفضل من أي محل قريب آخر وأفضلها سعراً. فلا يتوقف عن البيع، أما علي فلا يتوقف عن إيصال الأغراض إلى أصحابها.. لقد حفظ جغرافية المنطقة بيتاً بيتاً واسماً اسماً فيقول له: خذ هذه الأكياس إلى بيت فلان.. ولا يكرر أبو العبد الاسم.. فيسرع، كما يشبّهه أبو العبد، مثل الطير الطائر، يحمل أكياس

الخضر والفاكهة بيديه، ويلاحظ أبو العبد أن علياً يكاد ينوء بحمله، فيشجعه.. يالله علي.. البخشيش كبير. أحياناً يذهب إلى عائلة بيتها في الروشة، ويعود خائباً، لأن أحداً من هذه العائلة لم يعطه بخشيشاً. وأحياناً أخرى يعود مسروراً فقد أعطاه الزبون ألف ليرة.

قال أبو علي: أتى هذا الولد معجزة من الله تعالى... أنجبته أم علي وهي في الأربعين.. وليس لنا سواه، أمه مريضة بالسكر، وأنا أعاني الربو منذ كنت أعمل في الكسارات قرب جونيه، عشش الرمل في صدري وحتى عيني، حتى بتُّ غير صالح للعمل.. هذا الصبي هو ثروتنا ونموت إن شاء الله بين يديه.

كان أبو عامر ونور الدين يصغيان إلى أبي علي. وهما ضمناً يبرران له أن يعمل علي، مثله مثل بقية الأطفال السوريين في أي مهنة تعطي أجراً. وعليّ نفسه – كما يروي – تنقل في عدة مهن كلها عذاب وألم، إلى أن وفقه الله ليعمل عند أبي العبد الذي بات يعامله كأنه ابنه ويحن عليه ويطعمه من مأكولات بيته.

لم يخصص أبو العبد لعلي راتباً محدداً، كان يعطيه من جيبه ما تيسّر، ولكن علياً، في النهاية، كان يعتمد على البخشيش، فيزاحم العامل السوري الآخر أحمد، وهو قريب لعائلته، حتى يفوز بإيصال البضاعة. وفي آخر الليل يكون علي قد جمع حوالى عشرين ألف ليرة.. وهذا مبلغ كبير بالنسبة إلى أبيه الذي يأخذ منه إيجار الغرفة في الأوزاعي وبقية ضروريات العيش بأقل ما يمكن.

ترك علي المدرسة في الصف الثالث الابتدائي وقوّى لغته بقراءة جريدة المستقبل التي يقرأها معلمه كل يوم.. كان أبو العبد حين يرى الجريدة بيد علي يقول له: يا صبي بلا وجع راس.. سيبك من الجريدة. ويالله روح ودّي هذه الأكياس إلى بيت أبو وليد شاتيلا. فيسرع علي ويخطف الأكياس. ربما يربو وزنها على عشرة كيلوغرامات ثم ينطلق مستعجلاً بخطوات تشبه خطوات العسكر في أثناء التدريب. وهناك يكلفه أبو وليد الذهاب إلى اللحام السوري أبي حاتم ليجلب له نصف كيلو من اللحم بعظمه، وكم يكون فرح علي كبيراً عندما يدفع له أبو وليد بخشيشاً خمسة آلاف ليرة، وهو دائماً يحصل على هذا البخشيش من أبي وليد فقط.. أما بقية الزبائن فمنهم من لا يعطي ومنهم ألف ليرة تكفي و: الله يعطيك العافية. ائتمن أهل المنطقة علياً.. حتى صاروا ينادونه علي الأمين.

هذا الولد الذي بات رجلاً ولما يبلغ بعد الثانية عشرة، صار لديه إحساس بالمسؤولية تجاه أبويه، وكان يشعر بسعادة تفيض على وجهه كلما سمع من أمه أو أبيه: الله يرضى عليك يا ابني.. وبشوفك عريس.

يقول أبو العبد إن علياً يصلي إلى جانبه كل صلاة جمعة، يقف إلى جانبه بخشوع وإيمان، ويضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، تماماً كما يفعل المصلون الآخرون وبات يحفظ سوراً قصيرة من القرآن، حتى أن أبا العبد صار يمازحه وينادیه: شيخ علي.

يقول نور الدين إنه قرأ تحقيقاً عن العمال السوريين في لبنان ومن بينهم الأطفال، الذين يربو عددهم على ثلاثة آلاف ولد يعملون في المهن القاسية الصعبة. مثل نقل البضائع أو حمل صندوق تفاح إلى أصحابه. وأكثر هؤلاء الأطفال يعملون في محال تصليح السيارات فترى منظرهم مضحكاً بما لوثوا أنفسهم بالزيت والمازوت والشحم كأنهم عمال كبار. وغيرهم يعملون في محطات البنزين، وحتى في حقول الليمون والبرتقال وجني الفريز تحت أشعة شمس حارقة. ومنهم في قطف أكواز الصبار الملأى بالشوك الذي يصعب انتزاعه من لحم هؤلاء.. وتوضيبها في صناديقها لحملها إلى السوق أو البلاد المجاورة.. ومن هؤلاء الأطفال بائعو العلكة على أطراف الشوارع وقريباً من إشارات السير، عندما يضطر سائق السيارة إلى التوقف حتى ظهور الضوء الأحمر.. يتعلقون به ذكوراً وإناثاً: الله يخليك.. خذ علبة واحدة.. وأحياناً يقنعون الزبون وأحياناً ينهرهم ويسبّ البلد الذي جاءوا منه.

لو أرادت الرواية أن تتوسع في هذا المجال لما اكتفت بعشرات الصفحات، فمنها المأسوي ومنها المهين، ومنها التعدي وضرب الطفل على وجهه إذا ألحّ على أحد من السائقين في شراء شيء من بضاعته. ومع أن القانون اللبناني يمنع العمل لمن لم يبلغ الثامنة عشرة.. لكن السلطة قد تطبق القانون على أبنائها، وتترك للأطفال

السوريين أن يعملوا في أقذر المهن لا هي تسأل ولا دولتهم بالذات تسأل عنهم.

كثير من هؤلاء العمال السوريين الصغار يموتون من دون أن يكترث لهم أحد.. المهم أن يجلبوا إلى أهليهم المال. وهذه حال علي وغيره من العمال الذين في مثل سنّه فهو يبدو للعين المجردة كأنه رجل قصير القامة، بل كأنه قزم لكنه رجل شجاع. لقد كبر قبل أوانه. ويذكر أبو العبد أنه مازح علياً: أيمتى بدنا نزوجك يا علي؟ فيقول مزهواً: بعدني صغير.. لمّا إكبر بفكر. بس هلأ عندي مسؤوليات.. وعندي أمي وأبي.. ولازم اهتم فيهم، فيقول له أبو العبد: يا عيني عليك يا علي.. الله يقويك ويساعدك.

هذا العلي، كان يجمع كل شهر من البخشيش مبلغاً محرزاً، فيستعمل أبوه منه ما تحتاج إليه العائلة، ثم يرصد لعلي في صندوق خاص، ما تبقى من هذا المبلغ كقرش الأبيض لليوم الأسود.. على ما يذكر أبو علي أن الأيام السوداء المقبلة قد تمحو كل ما يتعلق بالقرش الأبيض. ويتأمل أبو علي أن يطيل الله بعمره ليرى علياً عريساً. ويخطب له أحلى بنت في الضيعة.

يتأفف علي عندما يذكر أبوه أمامه فكرة الزواج ويتهرب من الحديث عن هذا الموضوع.. ويردد أمام أبيه وأمه: خلينا نعيش الحاضر، بعدين الله بيفرجها.

يقول أبو العبد الخضرجي إنه لم ير ولداً في عمره أذكى منه. يحسب فاتورة الطلبات على الطاير. وعندما يسجل أبو العبد الأسعار على الفاتورة يجد أن حساب علي يطابق تماماً حساب الفاتورة.. كما أنه أمين جداً. وهو يعرف أن من العيب التلصص على النساء. خصوصاً نساء البيت الذي يدخل إليه وتكون المرأة متحررة من الملابس ومكتفية بثوب قطني يرى الناظر أو المتلصص كل شيء وراء هذا الثوب. لقد تعلم علي أن النظر إلى المرأة خفية من العيوب والحرام. كان ينصت جيداً إلى خطيب الجمعة، ويطبّق تعاليمه بحذافيرها. يجمع الغلة من البيوت ويقدمها إلى أبي العبد من دون نقصان، ويسأله أبو العبد من باب الحشرية: شو.. علي. شو كان البخشيش؟ فيرد عليه خليها على الله.. ماشي الحال يا معلمي، فيسأله مازحاً: شفت شي مرا حلوة بطريقك.. فيخجل ويحمر وجهه ويتعرق ويطرق ولا يجيب.

وقبل إغلاق المحل، يمدّ أبو العبد يده إلى جيبه، ويسحب شيئاً من المال لا يعرف كم هو ويضعه في جيب علي وهو يقول له: سلّم على بيّك وبكّر الصبح.. فيضع علي أصابعه على عينيه وهو يردد: الله يعوض عليك وحتشوفني بكرا الصبح على باب المحل.

هم هؤلاء، الأطفال السوريون في كل مكان، في كل شارع، وحي، أمام المساجد والكنائس، بوقفتهم الذليلة من أجل لقمة العيش، يستيقظون قبل أن يستيقظ أمثالهم من الأطفال اللبنانيين

استعداداً للذهاب إلى المدرسة. هؤلاء السوريون على عكس اللبنانيين، يذهبون إلى أعمالهم وفي قلوبهم غصة عندما يشاهدون أمثالهم من الأطفال اللبنانيين يصعدون إلى «الأوتوكار» الذي ينقلهم إلى مدارسهم وهم يلوّحون لأمهاتهم سعداء.. بينما الطفل السوري عليه أن يعمل طول النهار وأطراف الليل كي يساعد أهله في أكثر من مجال.

يتعرض هؤلاء الأطفال للإهانة والضرب والاحتقار من معلميهم. وقبل أيام ضجت الصحافة عندما حاول معلم تصليح السيارات في الأوزاعي، اغتصاب موفق الطفل السوري القادم مع عائلته من أطراف إدلب سعياً وراء الرزق الحلال. إذ حشره معلمه في الزاوية محاولاً فك بنطاله، فقاوم موفق وهو لا يعرف ماذا يريد معلمه أن يفعل. ضغط معلمه عليه فصار يبكي بصوت عالٍ إلى أن أحسّ أن شيئاً صلباً ساخناً يحاول صاحبه إدخاله في مؤخرته. كان معلمه قاسياً وهو يدفعه إلى الحائط الخلفي لمحله، ولكن عندما بدأ موفق يصرخ ويبكي، تجمّع الناس أمام المحل، حاول المعلم أن يقول للناس إنه يربيه لأنه مقصّر في عمله، إلا أن شيخاً جليلاً صرخ فيه: حرام عليك.. بعدو ولد، لكن أستاذ مدرسة كان بين الحضور اتصل بالشرطة، فجاءت الشرطة واصطحبت المعلم والصبي إلى المخفر. أنكر المعلم في البدء أنه كان يريد اغتصاب موفق. لكن الصبي خضع للطبيب الشرعي فأكد أن الصبي تعرض للاغتصاب من خلال

الجروح الخلفية التي أصيب بها. اتصلت الشرطة بأبي موفق وحذرته أنه يخالف القانون بالسماح لابنه وهو في الثانية عشرة من عمره، أن يعمل عاملاً في محل مكنسيان عند هذا الرجل.. وأشار شرطي بيده إلى صاحب المحل الموقوف. فراح أبو موفق يردد بما يشبه الهمس المثل الشعبي: يللي بيعرف بيعرف ويللي ما بيعرف بيقول كف عدس.

زج المكنسيان في السجن. فتصور جيرانه أن المحكمة ستحكمه أقله ثلاث سنوات، فالاغتصاب جريمة موصوفة، خصوصاً إذا كان المُغْتَصَب صبياً دون السن القانونية.

لكن بعد مضي أسبوع عاد المعلم أبو خلدون إلى محله كأنه لم يفعل شيئاً. هكذا هو هذا البلد، صدق أو لا تصدق.. يتدخل أحد السياسيين من أعلى القمة بكلمة واحدة: اتركوه.. ربما كان يداعبه. لا تظلموه، وطبعاً لأن الولد مجرد صبي سوري، ولأنه يعمل فوق القانون والأجدر أن يسجن بدلاً من معلمه.

في ملفات التحقيق في مخافر الشرطة الكثير من هذه الجرائم.. فثمة أطفالٌ سوريون كثيرون اغتُصبوا ولا من أحد يلاحق حقوقهم. وأما المجرمون المغتصبون فيسرحون ويمرحون استعداداً لجريمة اغتصاب أخرى لصبي سوري مسكين جاء مع أهله من جبل الزاوية لعلّهم يجدون في هذا البلد، خبزاً ولحماً، وما هم محرومون منه في بلدهم.

٢٩

من كان يخطر في باله أن إنسانا بسيطاً في تونس، في لحظة مسروقة من الزمن، أشعل العالم العربي كله من أقصاه إلى أقصاه؟

كان ذلك في السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، إذ أقدم التونسي محمد بو عزيزي على إحراق نفسه احتجاجاً على وضعه المعيشي وذله في بلد كان يدعي الحفاظ على مواطنيه. كان بوعزيزي بائعاً جوّالاً فقيراً صادرت الشرطة عربته الملأى بالمنتوجات المتنوعة، ثم ضربه الشرطي بوحشية أمام الناس، ولما فشل هذا الشاب في الحصول على العدالة، ولم يحظَ بمقابلة مسؤول ما لاستعادة عربته، يئس، فأشعل النار بنفسه حتى مات محترقاً.

أراد بوعزيزي أن يدين السلطة المستبدة بطريقته الخاصة، وأن يعبّر عن رفضه للاستبداد، والظلم وحكم الفرد.

كانت هذه الطريقة في القضاء على حياته أشد أنواع الاحتجاج.

ولم يكن يخطر في باله أن هذا الاحتجاج الفردي والشخصي سيشعل العالم العربي كله، فأسقط رؤساء وزعماء، كانوا مطمئنين أن ليس هناك قوة في العالم تستطيع إزاحتهم عن كراسيهم وعروشهم.

شاب بائع جوال فقير جداً يريد لقمة خبزه لا غير، ولما لم يعثر عليها بكرامة، فعل بهذا الإنذار ما لم تفعله جيوش جرارة. إذ لم يُسقط الرئيس التونسي زين العابدين بن علي الذي هرب في ليلة ليس فيها ضوء قمر حسب التعبير الشعبي فحسب، بل أسقط تباعاً أشد الحكام الديكتاتوريين بطشاً بشعوبهم. حسني مبارك في مصر، تنحى بأمر من الرئيس الأميركي أوباما، وبما يشبه الاستسلام المذل. أما معمر القذافي في ليبيا فعاند وقاتل فكانت النتيجة مقتله بيد شعبه، وهو الذي حكم ليبيا زهاء نصف قرن، وكذلك هرب الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، وربما كان أذكى هؤلاء الزعماء عندما ترك الحكم باتفاق على عدم مساءلته ومحاكمته.

لم تنطفىء هذه الثورة. فقد امتدت كالنار في الهشيم إلى كل البلاد العربية، ومن لم يسقط الآن فسيسقط عاجلاً أم آجلاً.

نهضت أمة بأسرها، فقد هز بوعزيزي عروشاً ما كانت لتسقط، ونهضت أمة بشعوبها إذ انتبهت أنها لا تقل عذاباً عن بوعزيزي في كل مراحل الحياة.

وامتدت هذه النار حتى وصلت إلى ذقن النظام السوري، الذي

قيل أنه كالصخرة في سيطرة أجهزته على الحياة العامة للشعب، ولكنه بدأ يهتز وبدأ أقرب الناس إلى الرئيس يخيفهم بضعة أطفال في درعا، ربما لا يعرفون ماذا يفعلون. راحوا يكتبون على جدران هذه المدينة الفقيرة «الشعب يريد إسقاط النظام» فإذا بالنار تلتهم المدن السورية من أقصاها إلى أقصاها، كانت الشعارات في البداية «حرية – ديمقراطية – كرامة» ثم كبرت وأصبحت تريد إسقاط النظام برمته.

لكن في هذا الحراك الرهيب، وهذا القتل المتبادل بين السلطة وفئات من الشعب، اكتوت بالفقر والتهميش، وعدم التفات السلطة إلى مشكلاتها اليومية ما وسّع دائرة الاحتجاجات إلى حمل السلاح.

وإذا كان القتال بين النظام ومعارضيه على أشده، فأول من مسّ مسَّ العمال السوريين، فبدأوا يهربون إلى لبنان بالذات لإيجاد عمل وطعام لأسرهم ومدارس لأولادهم، فزاد الطين بله، حتى أن أحد الرؤساء السابقين اللبنانيين وعبر تلفزيون المنار الحليف الأكبر للنظام في سوريا، دق ناقوس الخطر معلناً أن هذه الألوف من العمال الهاربين إلى لبنان، ستنعكس مشاكلهم وخلافاتهم على البلد المنقسم بين مؤيد لهذا النظام ومعارض له، حتى أن إحدى الصحف روت، فيما روت من عذابات هؤلاء العمال، أنه بعد خطاب لنائب من آل الجميل وصف فيه العمال السوريين بالحشرات، نزل عدد من شبان الكتائب إلى إحدى الساحات التي يوجد فيها عدد من هؤلاء العمال السوريين فأوسعوهم ضرباً، وربما كان بينهم معارضون للنظام

وآخرون مؤيدون.. وهم كانوا ينتظرون رجل أعمال ليأخذهم إلى العمل في الكسارات والمرامل والحفر.. إلى حد نقل معظمهم إلى المستشفيات للعلاج، وهم لا يدرون ما هو ذنبهم ولماذا استحقوا هذا الغضب. بل لدهشتهم لم يستطيعوا مقاومة المعتدين، الذين طبعاً من دين يتصف بالرحمة ويا لهم من متدينين!

لم تنس الصحافة اللبنانية مآسي هؤلاء، بل إن أخبارهم تصدرت الصفحات الأولى بمانشيتات جذابة. نعم جذابة، لأنهم الخبر الطازج في كل الأحوال، فقد نشرت جريدة «الأخبار» اللبنانية في عددها الصادر في ١٧ آب/ أغسطس ٢٠١٢ تحقيقاً لبسام القنطار، تقتطف الرواية منه ما يأتي: «على مقربة من تقاطع الصنائع – فردان يقلّب أمين (١١ عاماً) القمامة بعجلة علّه يجد فيها بقايا التنك والزجاج والبلاستيك.. يبتسم ابن محافظة الرقة (سوريا) عند سؤاله عن جنسيته. يستمهل الإجابة قبل التأكد من شخصية السائل وهدف السؤال، يقيم أمين في منطقة البسطة، وهو قرر أن يبدأ عمله كالعادة عند السادسة صباحاً. لكنه قد يعود باكراً إذا استطاع ملء كيس الخيش الكبير الذي يجره جراً. سمع أمين من أصدقائه عن حالات الخطف التي طالت العشرات من الشباب السوريين فلم يبد خوفاً أو هلعاً. ربما تسعفه ملامح الطفولة التي لم تستطع محوها حاويات القمامة التي تشكل مصدر قوته اليومي..

كذلك محمد (١٧ عاماً) الذي يعمل في مقهى في شارع الحمراء، ويسكن هناك مع عدد من زملائه، من دونهم لا يمكن لرواد المقاهي أن ينفثوا دخان نراجيلهم.

«من البيت إلى الشغل ولا أتنقل في خلال الليل». يقول ابن دير الزور إنه لم يسمع بمضايقات تعرض لها زملاؤه: «الحمراء أمان مش زي الضاحية».

ويوافق محمد الأحمد الذي يعمل ناطوراً في بلدة بشامون على ما قاله محمد. لذلك استدعى شقيقه أحمد الذي يعمل ناطوراً في منطقة الشويفات إلى منزله في بشامون: «نريد أن يمر رمضان بخير وأن نعيّد معاً». يقول إنها ليست المرة الأولى التي يتعرض فيها السوري للضرب والخطف والقتل، في السابق كان الواحد منا بس يتضايق يهج على بلدو بس هلق وين نروح».

«وين نروح».. هو لسان حال آلاف السوريين العاملين في لبنان، ومنهم من يعيش هنا منذ سنوات ومنهم من نزح بسبب الأحداث التي تحولت إلى حرب حقيقية في العديد من المناطق.

ويتابع بسام القنطار مقاله فينتقل إلى البقاع: في البقاع قسّم السوريون السهل إلى مربعات، مناطق صديقة ومناطق معادية وثالثة رمادية. أصبح التجوال في هذه المربعات دقيقاً وحذراً في المناطق الصديقة الداعمة للثورة السورية، يتابع السوريون يومياتهم بشكل اعتيادي في البقاع الغربي وراشيا وبعض نواحي البقاع الأوسط الذي صُنف جزء منه «منطقة رمادية»، أما المناطق التي صنفوها معادية، فيمتنعون عن التجوال فيها كحال العامل الزراعي أحمد. م (من ريف إدلب) الذي ترك العمل في أرض زراعية قرب مدينة بعلبك بناء على نصيحة «المعلم اللي قال لي فلّ حتى تروق الأوضاع».

«أنت سوري» سؤال طرحه ملثمون قرب شتورة على م. ح. ع الذي كان متوجهاً إلى مكان عمله في ورشة بناء: «نعم. قلت لهم. ولكنهم أصروا أن يعرفوا ما إذا كنتُ مع النظام أو ضده». يتابع «أسمعتهم رنين هاتفي الذي يمجد الرئيس بشار الأسد» فأطلقوا سراحي بعد ضربي على الخفيف. «المضايقة الصغيرة التي تعرض لها م. لم تكن من نصيب السوري – اللبناني (يحمل الجنسيتين) حسام خشروم الذي خُطف قرب مستشفى شتورة من قبل مجهولين إلى جهة مجهولة. خطف حسام قيل الكثير عنه في البقاع الأوسط. «الخبرية» الأولى عن حسام أنه خطف لأسباب مالية. والأخرى تقول إنه خُطف لأنه يوالي الجيش الحر. والثالثة أن فتاة استدرجته فخطف من دون معرفة السبب الحقيقي، لكن الثابت وفق الأجهزة الأمنية اللبنانية في البقاع أن خشروم خطف إلى جهة مجهولة. أنباء خطف السوريين في البقاع كانت في معظمها «إشاعات» إعلامية أدخلت المنطقة في كر وفر. الأمن الاجتماعي اهتز على وقع طبول حرب الشائعات. اختطاف ٥ سوريين هنا، مقتل سوري هناك. مناصرون للمعارضة يختطفون موالين للنظام السوري، معارضون سوريون في سهل البقاع يختطفون «مقداديين»، آل جعفر تسللوا إلى منطقة حمص وخطفوا مجموعة كبيرة من الجيش الحر وهم في طريق العودة، آل زعيتر خطفوا أربعة جرحى سوريين من مستشفيات البقاع» الخ.

وأخبار كثيرة ومقلقة عن أوضاع العمال السوريين، فنشرت «الأخبار» في عددها (٢٠١٢/٧/١٥) أن معارضاً سورياً ذُبَح موالياً للنظام في شارع الحمراء في بيروت. وقع الخبر كان صادماً. الضحية اسمه ثائر فاضل. قضى طعناً بحربة في رقبته على مرأى من المارة أمام كافيه يونس وأمام

عدسة كاميرا المراقبة التابعة للمقهى المذكور. فاجأه ثلاثة شبان سوريين من دون سابق إنذار، وجوههم لم تكن ملثمة. عاجله أحدهم ويدعى خضر ش. بطعنتين في رقبته قبل أن يلوذ الجميع بالفرار. هربوا سيراً على الأقدام فيما سقط ثائر أرضاً غارقاً في دمائه. نُقل بعدها إلى مستشفى الجامعة الأميركية حيث توفي متأثراً بجروحه. وكشفت المعلومات الأمنية وجود خلافات شخصية سابقة بين المشتبه فيهم المعروفي الهوية والضحية على خلفيات سياسية أدت إلى وقوع الجريمة. فقد سبق أن تعرض القتيل وأشقاؤه للمشتبه فيه خضر ش. (سوري الجنسية) بالضرب قبل يومين. عندما كان الأخير يكيل الشتائم للنظام السوري ورئيسه وللسيد حسن نصرالله. عقب ذلك، قام المشتبه فيه برفقة آخرين بتحطيم كل ما وصلت إليه أيديهم في الشارع. وبحسب الجيران، فقد وقف خضر ش. أمام المبنى الذي يقيم فيه الضحية وصار يهدد ويتوعد. كانوا جميعهم في حال سكر ظاهر، وحال الفوضى هذه استدعت تدخل القوى الأمنية التي أوقفت اثنين منهم وأودعتهما النظارة مدة يوم كامل، في اليوم التالي لم يدع أي منهما على أحد.

وتحدث عدد من الأهالي لـ«الأخبار» عن تعرض الضحية لتهديدات مباشرة بالقتل. كذلك ذكر مصدر أمني أن المشتبه فيهم كانوا يخططون للثأر من دون أن يفصحوا عن ذلك. وترددت معلومات أن هناك محاولة كانت تجري، لكن المشتبه فيهم كمنوا للضحية وباغتوه ليقتلوه من دون إتمام المصالحة المفترضة. في هذا السياق، علمت «الأخبار» أن القوى الأمنية تستجوب شخصين سوريين في فصيلة حبيش، بصفتهما شهدا وقوع الجريمة، فقد بينت التحقيقات أن أحدهما دخل إلى المتجر المجاور

للمقهى وأخبر البائع فيه أن هناك خلافاً سيحصل، طالباً إليه عدم التدخل مهما حصل. ويذكر أن أحد القتلة ليس من مقاتلي المعارضة السورية الذين قدموا أخيراً إلى بيروت. علماً بأنهم مقيمون في بيروت منذ مدة طويلة حالهم حال الضحية الذي يقيم في الحمراء أيضاً».

هذا الخبر الذي نشرته «الأخبار» على هذا النحو نشرته بقية الصحف مختصراً أو موسعاً، ولكن على هواها.. والمهم في الأمر، أن الأمن اللبناني لم يعثر على القتلة الذين قيل أنهم التحقوا بالمسلحين الذين يقاتلون النظام ولم يعثر عليهم البتة.

أخبار كثيرة نشرتها الصحف عن السوريين وهذه عينة منها..

في محلة البربارة، أقدم ثلاثة ملثمين يستقلون سيارة مرسيدس – بيضاء اللون – على دخول ورشة بناء (روجيه نعيم) واقتادوا العاملين السوريين (خالد المحمد وثائر وسوف) بقوة السلاح ووضعوهما داخل السيارة، ثم رموهما على الأوتستراد المقابل بعد أن سلبوا منهما مبلغ ٢٢٥٠ دولاراً أميركياً وفروا.

اعترض مجهولان كانا على متن دراجة نارية في منطقة الزلقا، سبيل المواطن السوري خميس خ. وسلبا منه مبلغاً من المال كان بحوزته. وقال المسلوب في إفادته أمام القوى الأمنية إن ما سلب منه هو ٣٠٠ دولار. وذلك بعد أن شهر أحدهما بوجهه مسدساً وهدده بالقتل. ثم فرا على دراجتهما إلى جهة مجهولة.

عثر على م. ز ي (من مواليد ١٩٩١ – سوري الجنسية) مقتولاً بسلاح صيد في غرفته المجاورة لمنزل المهندس نبيه شاهين في بشمزين، حيث

كان يعمل لديه ناطوراً. وبعد الكشف الأولي للطبيب الشرعي، نقل القتيل إلى المستشفى الحكومي في طرابلس، وترجح التحقيقات أن يكون قد انتحر.

ادعى لدى فصيلة الأوزاعي كل من السوريين عبد الباسط دلّا وعبده دلّا أن ابني شقيقهما (عاطف دلا ٢٥ عاماً وشقيقه عبد اللطيف دلا ٤٠ عاماً) حضرا إلى بيروت على متن سيارة من نوع (شيري)، وخطفا فجراً على طريق المطار قبالة محال «وسترن يونيون» والسيارة ما زالت متوقفة إلى جانب الطريق، وأنهما تلقيا اتصالاً من شخص مجهول طلب منهما خمسة آلاف دولار أميركي مقابل الإفراج عنهما.

حاول عدد من العمال السوريين في محلة الحدث، معاكسة فتاة ولما تصدى (محمد ديب ملاح – ٢٦ عاماً) لمنعهم من الاعتداء عليها، قاموا بضربه بآلات حادة ما تسبب له بجروح في أنحاء جسمه ورأسه، ما اقتضى نقله إلى مستشفى السان تيريز، وقد تمكنت الفتاة من الفرار فيما فر العمال السوريون بدورهم. وقد بدأت القوى الأمنية ملاحقتهم لتوقيفهم.

تعمد بعض الجمعيات التي تعنى بشؤون النازحين السوريين في شمال لبنان إلى بيع المواد الغذائية المتخصصة أصلاً لإغاثة النازحين لحساب محال تجارية في مدن الشمال وبلداته. وتم رصد حركة بيع وشراء واسعة لهذه المواد في السوق السوداء.

أقدم مجهولان في محلة قرنة شهوان على دخول ورشة زياد وهبي – قيد الإنشاء – وسلبا العامل السوري محمد الشيخو (من مواليد العام ١٩٧٩)

بعد أن هداه بواسطة مسدسين مبلغ ٣٠٠ دولار أميركي ومعدات، ثم فرا إلى جهة مجهولة. ويقع هذا الحادث في نطاق فصيلة بكفيا.

ذكرت مصادر أمنية في النبطية، أنه عثر على المواطن السوري هاني محمود أبو نقطة (٢٢ سنة) جثة هامدة في مبنى قيد الإنشاء يعود إلى الدكتور حسين شميساني قرب صالة اللافيتا عند مثلث زوطر – ميفدون النبطية. وهو مصاب بطلق ناري في صدره وخرج من ظهره وطعنة في رقبته. ويذكر أن أبو نقطة لديه إجازة للعمل في لبنان منذ ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١. ورجحت معلومات أمنية أن يكون قد مضى على الجثة في ذلك المكان أربعة أيام، وقد تبين أن الجثة كانت يابسة، كما أن شقيقة شميساني هي التي عثرت على الجثة في المكان، فأبلغت ذلك إلى القوى الأمنية.

قتل الشاب أ. م (١٧ عاماً) في بلدة برجا في حي عين الصغير، في خلال قيام والده ع. م. بإطلاق النار من بندقية حربية على جيرانه من العمال السوريين، في إثر خلاف معهم على المياه، مما أدى إلى إصابة نجله أ... بجروح بالغة وخطرة نقل على أثرها إلى «مستشفى سبلين الحكومي» لكنه ما لبث أن فارق الحياة متأثراً بجروحه، وأصيب أحد المارة ع. ش وتم نقله إلى مستشفى «لبيب الطبي» في صيدا. وفور شيوع الخبر في برجا، تقاطر أهالي البلدة إلى منزل م. وسط حال من الغضب والغليان الشديد، مما استدعى تدخل وحدات وتعزيزات من الجيش، التي حضرت إلى المكان وطوقت المنطقة لمنع تفاقم الوضع وسط إصرار الأهالي والشبان على محاصرة منزل العمال السوريين والانتقام منهم. فيما تكثفت الاتصالات والمساعي على أعلى المستويات للجم الوضع

في ظل مخاوف من تطوّر الأوضاع نحو الأسوأ. وفي وقت لاحق، قام الجيش بإخلاء المنزل من العمال وعائلاتهم إلى خارج برجا، فدخل إليه أهالي البلدة وحطموا محتوياته وقاموا بتكسير سيارة يمتلكها أحد العمال السوريين (!!!)

وأخيراً، كتب أسعد أبو خليل (أستاذ العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا) مقالاً في جريدة «الأخبار» ١١ آب/أغسطس ٢٠١٢ عنوانه «ترحيل السوريين عن لبنان»، ختمه بما يأتي:

«إن العمال السوريين في لبنان هم ضحايا لقمع نظام البعث السوري و«نيوليبراليته» وهم أيضاً ضحايا مرة أخرى للنظام السوري في لبنان، لأنه لا يكترث لأمرهم، وفريقا النزاع في لبنان، ٨ و١٤ آذار، ساهما في قمع العمال السوريين في لبنان وأن فريق ١٤ آذار يتحمل المسؤولية الكبرى عن قتل أو خطف عمال سوريين على مر الأعوام التي تلت اغتيال رفيق الحريري. وذلك بسبب الحملة العنصرية التي تبناها واعتنقها هذا الفريق (صحيفة آل الحريري كانت تجعل من كل بائع كعك فقير في لبنان عميلاً للاستخبارات السورية، وقد حرّضت على الاعتداء عليهم) لكن هذا كان قبل أن يقع آل الجميل وشمعون والحريري في حب الشعب السوري. وقد تعرض عمال سوريون لاعتداءات أخيراً في مناطق خاضعة لحزب الله وأمل بعد حادثة خطف الحجاج اللبنانيين.

عن أيّ عدالة أتكلّم في هذا الشرق؟ لكن تسليم مطلوبين سوريين إلى سورية في هذه الظروف بالذات يغدو منتهى الظلم والجور.

هكذا أصبح هؤلاء العمال فشة خلق للنظام وللمعارضة اللبنانية وللموالين

لسورية وللبنان كله بأحزابه كلها وتفرّعاتها كافة. يهانون ويتعرّضون لمختلف أشكال الاعتداء، هنا وهناك، ومع ذلك يهاجرون من أجل لقمة العيش.. هي الحقيقة لا يمكن أن تحجبها الشمس.

فإذا التقيت بشاب متعب يرتدي ثياباً مهترئة و..شحاطة، أو صندلاً برزت منه أصابعه المتوسخة بالتراب والوحل فاعرف أنه عامل سوري، فمن سيمائهم - إن كانت لهم سيماء - تعرفهم.

٣٠

قال أبو عامر مخاطباً نور الدين في زيارة الأحد: كنت وعدتك أن أعرفك إلى القاضي عبد المجيد.. وانتبهت الآن، أنه على غير عادته لم يأت اليوم، فسألت طالب الحقوق القادم من القامشلي.. فقال لي إن القاضي لم يأت إلى المقهى منذ أكثر من أسبوع.. فقال نور الدين ربما يكون مريضاً.. قال أبو عامر وهذا ما أخشاه.. بل أخاف أن يفعل بنفسه شيئاً، فسأله نور الدين: ماهو؟ قال: هذا رجل منذ مأساته في الشام أصبح مصاباً بانفصام في الشخصية، تراه أحياناً شخصاً سليماً يتصرف مثل بقية البشر والأسوياء وأحياناً يتحول عدوانياً، وكثيراً ما اعتدى على موظفي المقهى، فأصبحوا حذرين في معاملتهم معه. ولأنه كان قاضياً في بلده، فهم يعاملونه – بالرغم من ذلك – باحترام وهيبة.. إنه فعلاً شخص مهيوب، في الستين من عمره، لا يصادق أحداً. كنت أنتبه له كل صباح مرتكناً تلك الزاوية المطلة على المسبح العسكري، وأمامه ثلاث جرائد، أشعر من بعيد،

أنه، ربما، يقرأ الجريدة مرة بعد مرة.. سأل نور الدين: «وما هي هذه الجرائد؟» قال: النهار، والأخبار، والسفير، جرائده المفضلة، التي تمثل كل منها فئة من الناس، وإن كانت تدعي غير ذلك. ذات يوم كنت أمسح حذاءه وهو يقرأ الجريدة ثم انتبهت إلى أنه لا يلتفت أبداً نحو المسبح العسكري، حيث ترى في آب حسناوات لبنان كله يتبخترن بآخر موضة للمايوهات، التي لا تستر شيئاً من أجسادهن. أصدقك القول أنني كنت ألتفت إليهن، أما هو فلا يلتفت مطلقاً، بل يهتم بقراءة الجريدة. وسألته بنوع من الفضول: أستاذ ماذا يلفت نظرك في هذه الجرائد؟ قال: إنك تعرف من خلالها كل شيء عما يجري في البلد. سألته: وهل ثمة كتاب معنيون يلفتون نظرك؟ قال: نعم.. في النهار مقالات سركيس نعوم، هذا الرجل لا يكتب مجرد نظريات، عنده مصادره لأهم الأخبار، ويعرف تماماً ماذا يجري في هذه المنطقة، إنه يكتب يومياً وهذا ما يثير إعجابي، ويتذكر القاضي كاتباً آخر قضى انتحاراً هو ميشيل أبو جودة، الذي كان يتابع مقالاته منذ كان طالباً في الجامعة.. وكذلك كان هذا الرجل يكتب يومياً ما يثير العجب فعلاً.. ثم فتح ذات يوم أمامي جريدة الأخبار وقال هذه جريدة فتية، لكن لها أسلوب مغاير عن بقية الصحف اليومية، خصوصاً في مقالاتها لكتاب أحسنت اختيارهم، واللافت أن معظم هؤلاء الكتاب المتميزين هم من الطائفة المسيحية. يا أخي أنا معجب بهم جميعاً، تعرف الحقائق المجردة مما يكتبون.. واليوم الذي يكتب فيه أنسي الحاج أو إبراهيم الأمين، ألتقط منهما، كل

بأسلوبه، حركة الحياة إيجابياتها وسلبياتها.. أما السفير، فيحلو لي قراءة افتتاحيات طلال سلمان.. الذي نادراً ما يكتب افتتاحية..

وفجأة ينقلب القاضي رأساً على عقب ويتحوّل إلى رجل غاضب مخيف وعدواني فيصرخ في أحد العمال ومعظمهم سوريون: أرغيلة تنباك عجمي.. ثم يلتفت نحوي: شو.. ما خلصت. أي سيدي خلصت بس بحب إسمع منك.. فيصرخ بي.. قم.. انقلع من وشي.. فأنقلع بسرعة من دون أن أطلب أجرتي.. لكن، قبل أن يخرج من المقهى يبحث عني فيجدني ويقترب معتذراً ثم يرمي بحضني ورقة الخمسة آلاف..

فسأل نور الدين: وما هي قصته؟

قال أبو عامر: كان قاضياً في جنايات الشام ملء الدنيا، لكن في غفلة من الزمن سيطر عليه طمعه فقبل رشوة بمائة مليون ليرة لإنقاذ قاتل من حبل المشنقة.. هذا القاتل قتل أسرة بكاملها الأب والأم والأولاد، بسبب خلاف على المال، وألقي القبض عليه. وظل خبر الجرائد الأول لعدة أشهر. وكان الجميع يطالبون بتحقيق العدالة وتعليق مشنقته في ساحة المرجة.. لكنه لم يحكم عليه بالإعدام، معتبراً أن جريمته لم تكن عن سابق تصور وتصميم.. بل فورة غضب لأن القتيل لم يدفع له ماله فخرج عن طوره، لم يقتل الرجل الذي استدان منه المال ولم يُعده إليه فحسب، بل قتل أسرته كلها. حكم عليه بالمؤبد والأشغال الشاقة، ثم خفض الحكم إلى خمسة عشر

عاماً.. ثم عاد وخفضه إلى عشرة أعوام ففاحت رائحة الفضيحة.. وبالملاحقة تبين أنه قبض مائة مليون ليرة في مقابل إنقاذ القاتل.. اقتيد إلى السجن ثم المحاكمة، إلى أن حُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة. فطلقته زوجته وتخلى عنه أولاده، وإذا به من قمة القضاء إلى الشرشحة ونبذ المجتمع له من كل الوجوه.. كاد ينتحر، إلا أن قاضياً لبنانياً درس معه حقوق دولة في فرنسا، دعاه إلى بيروت، فجاء خالي الوفاض، فأعاره مسكناً وراح يرسل إليه بين الحين والحين بعض المال كي يحافظ الرجل على مستواه ولو بما يشبه التقتير. لكن هذه المأساة أثرت في شخصيته فلم يعد رجلاً سوياً، وأحياناً، كنت أشعر بعدوانيته حتى في التعامل معي. لكن بمرور الوقت أدرك صدق سريرتي. فأصبحت، ربما، صديقه الوحيد.. لأنني ولا مرة وجدت على طاولته أحداً سوى جرائده.. وأحياناً أنتبه إلى أنه يخاطب نفسه بصوت عال ويحرك يديه مع كل جملة يتفوه بها.. في الواقع أصبح رجلاً يائساً لا يجد وسيلة يموت بها، فقد كان راغباً في الموت، لكن ثمة ما يمنعه من فعل ذلك.

فقال نور الدين: والله شجعتني على التعرف به كما وعدتني سابقاً.. متى نراه؟

قال أبو عامر: الآن. لعله مريض وهذا ما يبرر زيارتنا له.

ثم وقف طالباً إلى أحد العمال أن ينتبه للصندوق.

سأله نور الدين: ألا نطلب تاكسياً؟ أجابه: ولماذا التكسي أيها الكسول.. بيته رمية حجر.. في رأس الشارع في منطقة كركاس..

مشى الرجلان معاً وأبو عامر يتحدث عن القاضي وشخصيته ونور الدين يطلب المزيد.

عند الوصول إلى ساحة كركاس، تاه أبو عامر في البداية، فتقدم من محل أبي عبد الخضرجي يسأله فتأملهما بريبة ثم أشار بإصبعه إلى زقاق صغير، وإلى بناية قديمة وقال لهما في الطبقة الثالثة.

مشيا إلى تلك البناية ثم صعدا الدرج، فلم يكن في البناية مصعد. وكبس أبو عامر زر الجرس كبسة واحدة.. فلم يُفتح الباب فهمس يا رب ما يكون في شي..

ثم كبس الجرس مرتين، فلا جواب. وقع الرجلان في حيرة.. هل ندق مرة أخرى؟ ثم كبس زر الجرس ثلاث مرات فانفتح الباب والقاضي عبد المجيد بدا منهكاً، وكان يستند بيده إلى الجدار عندما همس بصوت خفيض: تفضلا، دخل الرجلان إلى بيت صغير ولكنه نظيف، وفي صدر الصالون مكتبة ملأى بالكتب.. ثم انتبها لكتاب سميك مفتوح على المنضدة الصغيرة. ولمح نور الدين أن الكتاب باللغة الفرنسية.. جلسا فيما القاضي دخل إحدى الغرف ثم عاد وقد ارتدى روب ديشمبر بني اللون وربط حزامه على بيجامة بيضاء كان يرتديها.. اقترب من أبي عامر يشكره على هذه الزيارة،

ثم عرفه أبو عامر إلى نور الدين: الأستاذ نور الدين معلم مدرسة في صور.

للوهلة الأولى ظل القاضي صامتاً.. كان متعباً، يده ترتجف على وتيرة واحدة، ثم التفت نحو أبي عامر: ألا ترى ماذا يجري؟ قال أبو عامر بأسف: نعم.. نعم.. أرى وأسمع وأبكي أيضاً..

قال القاضي: هذا نتيجة العناد وركوب الرأس.. مع أن مشكلتنا كانت لتهمد بأرضها لو كان لدينا رجال أذكياء، ثم سحب من تحت الطاولة جريدة «السفير» وفتح ملحقها الأسبوعي الثقافي وفردها على الطاولة قائلاً: هذا حوار مع كاتب سوري مقيم في القاهرة اسمه نهاد سيريس وعنوان الحوار معه: أنا مع التغيير الحقيقي، لكني أخاف من الثورات.. ليس مجال قراءته الآن، ولكن انتبهت لخاتمة الحوار حيث يقول سيريس بعد سؤاله: هل من مخاوف تستشعرها اليوم؟ فأجاب: بالطبع هناك مخاوف كثيرة يستشعرها كل صاحب ضمير وعقل، إنني أرى بلداً مدمراً لم تسلم منه أي مدينة أو قرية. وأرى الجيش وقد تفكك والمدرعات متروكة في الطرقات وهي مدمرة أو سليمة، ولكن جنودنا تركوها قبل أن يهربوا. وأرى أن السوريين تحولوا إلى لاجئين غير مرغوب فيهم من قبل الجيران أنفسهم، الذين أكرموا في البيوت نفسها التي تركها أصحابها وأصبحوا لاجئين عندهم. كما أرى كيف أن هذا الشعب الكريم ينتظر من يسعفه ويرسل إليه رغيف خبز أو خيمة. من كان يفكر في

الثورة قبل آذار/مارس ٢٠١١؟ لم يكن هناك شخص واحد يفكر في ذلك. وكان في الإمكان تفادي ذلك كله وإنقاذ سوريا، لو أن نظام الحكم هذا قد أرسل شخصاً ليقبّل رؤوس شيوخ درعا ويعتذر عن حماقة البعثيين المتعجرفين الأغبياء وينصف الأولاد المشوهين الذين اعتدوا عليهم بوحشية.

صمت القاضي لحظة ثم قال: أصبحنا مكروهين يا أبا عامر.. لم يعد أحد يطيقنا.. نحن السوريين الذين أسسوا أول أمبراطورية إسلامية في العالم، نحن الأمويين سلالة أشراف مكة نصبح هكذا هذه الأيام أذلاء مهانين.. مضطهدين! والله يا أبا عامر، إن قتل المسلحون في أعزاز اللبنانيين الأحد عشر المخطوفين.. فستذبحون على أطراف أرصفة الضاحية بالسكاكين الحادة كما تذبح الخراف. وأخذ يردد: الله يستر.. الله يستر.

ثم إن القاضي وضع رأسه بين راحتيه وأخذ يبكي بصوت عال من دون أن يمسح دموعه وهو يردد: يا حوينتك يا سوريا يا حوينتك.. أولاد في العاشرة من أعمارهم كتبوا على جدران درعا: الشعب يريد إسقاط النظام.. وهم لا يعرفون معناها. سمعوها من التلفزيون المصري.. وسمعوها عبر أكثر من مكان. تونس. مصر، وليبيا، واليمن.. فلماذا لا يكتبونها هنا.. ظنوا أنها أهزوجة.. وظنوا أنها مزحة.. لكن أغبياء مخابرات النظام.. هم وليس الأطفال من فجّر الثورة.. اعتدوا على الأولاد وقلعوا أظفارهم.. وعندما جاءت

أمهاتهم يسألن عنهم المخفر. ويا لقذارة رجل المخابرات عندما قال لهؤلاء الأمهات: لن ترين أولادكن بعد اليوم. وإذا كنتن في حاجة إلى حمل بأولاد جدد فنحن نعوضكن كل هؤلاء الزعران. هذا الرجل التافه، لو كنت مسؤولاً في النظام لعلقت مشنقته في ساحة درعا. وبذلك، كان سيهمد كل شيء. ولكن.. ولكن.. ولكن ليحم الله سوريا. ليحم الله سوريا.

وازداد بكاء القاضي وهو يرتجف إلى حد النشيج. ثم قال: أنا أخطأت في قضاء ملوث بالفساد. لم أكن أنا وحدي من يقبل الرشوة.. لكن بعض القضاة كانوا بعثيين. ولا يستطيع أحد أن يحاسبهم.. كنت أرى بأم عيني وعلى معرفة مباشرة أن زملاء لي يتقاضون الرشى بالملايين ولا يسألهم أحد. كان قضاء سائباً يشبه النظام كله.. ولكن كيف يخطىء نظام ظنه الناس قوياً كالجبل ومتماسكاً كالصخر. فإذا بغبي من البعثيين وليس الأطفال يفجّر الثورة بعجرفته وقلة إدراكه. إن الوطن يا أبا عامر ينهار.. من كان يظن أن يوماً سيجيء وتجد نصف الشعب لاجئين في مخيمات على أطراف الحدود ونصفه الآخر يتقاتلون فيما بينهم بوحشية أين منها وحشية الغابات؟ لا أصدق ما أراه على شاشات التلفزيون أن سورياً يقتل سورياً وجهاً لوجه.. منذ الاستقلال إلى يومنا هذا لم يجر في سوريا ما يجري الآن.. إننا ندمر بلدنا بأيدينا. كل ذلك بسبب غباوة النظام.. وما لهذا الليل من آخر.

صمت القاضي فجأة. بل توقف عن البكاء تماماً وهو منطوٍ على نفسه. مرت لحظات ثقيلة كأنها ساعات، وأبو عامر ونور الدين ينظران نحو الرجل بفزع.

طال صمت القاضي فهمس أبو عامر: سيدي.. سيدي ثم علا صوته: أستاذ عبد المجيد.. أستاذ عبد المجيد.. لكن الأستاذ القاضي عبد المجيد قد مات.

٣١

ومما زاد الأمر تعقيداً بالنسبة إلى العمال السوريين، أن مسلحين سوريين في بلدة أعزاز قرب حلب، نصبوا كميناً لباص قادم من العراق يحمل عدداً من اللبنانيين مع زوجاتهم. ثم خطفوا الرجال وكان عددهم أحد عشر رجلاً وتركوا النساء.. وطلب المسؤول عن هؤلاء فدية قدرها أربعة ملايين دولار لإطلاقهم.. ثم أعلنوا طلباً أهم بالنسبة إليهم وهو أن يعتذر السيد حسن نصرالله من الشعب السوري لأنه يؤيد النظام والرئيس بشار الأسد.. وفي أخذ ورد، تحولت قضية هؤلاء إلى قضية سياسية معقدة، وكان في الظن إطلاق سراحهم في أيام. لكن طال احتجازهم شهوراً وتحولوا حسب المصطلح المتداول إلى ضيوف.. وكثرت المزايدات من كل طرف.. يُطلق سراحهم أم لا.. وكثرت الوساطات من الأمم المتحدة إلى تركيا إلى شيوخ قبائل وشيوخ دين.. وبالرغم من ذلك ظل اللبنانيون في أسرهم.. ولم يكن من مكسر عصا بعد ذلك سوى العمال السوريين.. وأين..؟ في الضاحية التي تعتبر ركناً من أركان الحماية بالنسبة إليهم.. أي يفترض

أن يكون هؤلاء العمال في حماية حزب الله، الذي هو حليف للنظام السوري.. فلن يصيبهم مكروه.. لكن الغضب بلغ بأهل الضاحية حداً أن أقدم بعض الشبان على مهاجمة منزل يسكنه عمال سوريون. فانتشر الخبر بسرعة. وإذا بمئات من العمال وأسرهم يهربون، حتى أن أبا شاكر بائع الفلافل في الضاحية قال: «إذا كان لا بد من الموت فلأمت في بلدي بدل أن أموت هنا ذبحاً بالسكاكين». وأخذ أبو شاكر يجمع رفاقه ويتصل بآخرين ليقنعهم بالعودة إلى سوريا مهما كانت الأخطار.

وفي هذه الفوضى، والرعب الذي عمّ الجميع، التقى تحت جسر الكولا تحديداً، العشرات من العمال وأهليهم شيوخاً ونساء وأطفالاً رضّعاً على أثداء أمهاتهن وأول باص ازدحموا للصعود إليه، كان باصاً يتسع لثلاثين راكباً، لكن، بالتدافع، صعد أكثر من خمسة وستين هارباً ومن بينهم خالد، الذي كانت آخر صورة علقت بذاكرته عن حبيبته سلمى عندما جاءت لزيارة أبيها فرآها منتفخة البطن إلى حد كبير كأنها تحمل أربعة توائم. كانت تمشي بصعوبة تستند إلى بطنها، وكان وجهها منتفخاً ككرة قدم. لا. قال في نفسه ليست هذه هي المرأة التي أحببتها. أنا لا أعرفها واهتزت صورة سلمى في أعماقه، وأحس كأنها شبح مخيف ومرعب. وها هو الآن يهرب منه عائداً إلى قريته.. فهل يصل.. وهل يرى أمه.. ويزور قبر أخيه؟

وعندما احتج السائق هددوه إما أن يمضي إلى سوريا بهم وإما أن يقتلوه.. انطلق الباص بصعوبة، وكان بين الركاب أبو عامر وأبو شاكر

وأبو علي وعائلته وكذلك خالد ورفاقه و.. و.. ما عدا نور الدين الذي قال لأبي عامر.. إن كان لي أن أموت فسأموت هنا، في الجنوب. هذا الجنوب الذي يرفع الرأس في دحره الاحتلال وانتصاره عليه. اذهب يا أبا عامر.. أو حين تروق الأحوال ستراني في انتظارك.

زحف الباص بتكاسل شديد، فحمولته كانت فوق احتماله.. وعندما بدأ يعبر جسر المديرج.. شعر السائق بأن العجلة اليمنى الأمامية قد انفجرت، فاقترب بباصه إلى الطرف الأيمن حتى التصق بالحاجز كي يترك مكاناً لتبديل العجلة المثقوبة فمال الباص به. عاد إلى مكانه خائفاً وصاح بالركاب أن يصمتوا ويتمسكوا بكراسيهم من دون أدنى حركة وإلا مال الباص وسقط في الوادي. وراح السائق يتصل بالشرطة والإسعاف والإطفائية. فقد أدرك الخطر المحدق بهم. صمت الجميع خائفين فيما راح أبو شاكر يصيح أيها السوريون سوريا من أمامكم.. ولبنان من ورائكم فأين المفر؟ ثم يعكس النداء: أيها السوريون لبنان من أمامكم وسوريا من خلفكم فأين المفر؟ ووقف بجسمه الضخم يحاول أن ينجو بنفسه. فانفجرت العجلة اليمنى الخلفية وبدأ الباص يفقد توازنه. ثم، وبغفلة عين وحركة رمش مال الباص بشدة، ودبت الفوضى بين الركاب وراح كل منهم يحاول أن يهرب غير آبه للآخرين. في هذه اللحظة بالذات ألقت سيدة من نافذة الباص ابنها ذا العشر سنوات ليسقط فوق إسفلت الطريق، فمال الباص بشدة إلى اليمين وسرعان ما سقط إلى قعر الوادي مصطدماً بالصخور.. فانفجر واحترق، وتحوّل ركابه أشلاء متناثرة من اللحم والدم.

توقفت السيارات التي كانت وراء الباص، وترجل جميع ركابها إلى الطريق وهم في ذهول ورعب، فيما أخذت سيارات الإسعاف تزعق خلفهم لتصل إلى المكان الذي سقط فيه الباص. اقتربت سيدة من الصبي المتمدد على الأرض والدماء تنزف من كل أنحاء جسمه.. كان يبكي من الألم ويتلفت حواليه مذهولاً، ويسأل عن أمه وأبيه: ماما.. ماما.. بابا.. بابا.

حاولت السيدة أن تسعف الصبي، فأخرجت منديلاً تتلمس به جروحه النازفة ببطء وأخذت تطيب خاطره.. فيما تجمّع حوله عدد من الناس الذين تركوا سياراتهم، منهم من يطل على الوادي حيث يحترق الباص.. ومنهم من يضرب كفاً بكف بكثير من الحسرة والألم. بل بدا الناس جميعهم خائفين وحزانى على مصير هؤلاء بما لم يخطر على بال.

كان الصبي، وقد تحطمت أطرافه والدماء ملأت وجهه وساعديه وأفلتت من قدمه فردة حذائه الرياضي، ولداً أسمر نحيلاً وسيماً وقد طال شعره الأسود حتى كتفيه. راح ينظر إلى الناس من حوله على حذر وخوف، إلى أن سألته السيدة التي احتضنته: شو اسمك حبيبي؟ كررت السؤال مراراً، إلى أن لفظ اسمه حرفاً حرفاً: س.. س.. س.. سوريا.. سوريا.. سوريا.

٢٠١٢/٦/٢٥

واقع العمال السوريين عام ٢٠١٢: خطف وضرب وسلب والجناة «مجهولون»

تواصلت خلال عام ٢٠١٢ حالات الاعتداء على العمال السوريين في أنحاء مختلفة من لبنان، من البقاع إلى الجبل ومن الشمال إلى الجنوب مرورا بالعاصمة وضواحيها، حيث أفادت المعلومات الواردة من مصادر حقوقية وأمنية وإعلامية مختلفة عن خطف عشرات العمال وتعرض آخرين للضرب وإطلاق النار والتهديد والسرقة.

فالمعلوم أنه مع بداية الثورة السورية التي انطلقت شرارتها في ١٥ آذار عام ٢٠١١، سجل عدد من حالات الخطف لعمال سوريين في لبنان يعتقد أنهم من المعارضين للنظام السوري، وتواصلت الاعتداءات مع ازدياد أعداد النازحين من سوريا إلى لبنان، إلا أنها سرعان ما اتخذت منحاً عنصرياً تصاعدياً منذ الإعلان عن خطف ١١ لبنانياً في سوريا في أيار عام ٢٠١٢. وفي هذا الإطار، أشارت تقارير إعلامية إلى أنه نتيجة

لموجة العنف والتنكيل التي طاولت عدداً كبيراً من العمال السوريين، فر آلاف منهم من لبنان، وقسم لا بأس به منهم لم يستوفوا كامل أجورهم.

ويفيد في هذا المجال، لفت نظر السلطات اللبنانية أولاً، والمنظمات الحقوقية ثانياً، إلى أن حالات الاعتداء على العمال الأجانب بشكل عام في لبنان والسوريين بشكل خاص، ليست حالات فردية ومعزولة بل تأتي ضمن سياق عام من التحريض العنصري ضد هذه الفئة بالتحديد. وقد رصد «المرصد اللبناني لحقوق العمال والموظفين» ٢٩ حالة عنف موثقة ضد عمال سوريين، في موجة تذكّر بما حصل في الفترة التي أعقبت اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري عام ٢٠٠٥، التي شهدت حالات اعتداء مشابهة ضد هذه الفئة، وكان تقرير لمنظمة العفو الدولية صدر في العام نفسه، أشار إلى مقتل ما يقارب الـ٢٠ عاملاً بإطلاق الرصاص عليهم أو ضربهم أو طعنهم. كما رصد التقرير آنذاك نحو ٣١ عملية إضرام نيران بشكل متعمد وإتلاف ممتلكات ومساكن العمال المؤقتة. هذا، وبحسب جريدة الأخبار فإنه خلال الفترة الممتدّة بين ٢٠٠٥ و٢٠١٠ أُحصي نحو ٧٠٠ مفقود سوري في لبنان. أما القاسم المشترك بين الأعوام ٢٠٠٥ و٢٠١٢، هو بقاء المعتدين في معظم الحالات مجهولي الهوية، مما حال دون سوقهم من قبل السلطات اللبنانية إلى العدالة فضلاً عن تقصير الحكومة في اتخاذ التدابير التي من شأنها حماية هذه العمالة.

ويمكن تصنيف العنف الممارس ضد العمال السوريين إلى ٣ أنواع: خطف، عنف جسدي، وسلب. وسجل في هذا الإطار ١٤ حالة ضرب وتعذيب، و١١ حالة سلب، و٤ حالات خطف. وفي التفاصيل في كانون الثاني ٢٠١٢ تعرض ٤ عمال بناء في منطقة الزرارية في جنوب لبنان

للخطف على أيدي عناصر يستقلون سيارات جيب ذات زجاج عازل. ورجحت مصادر صحافية أن تكون السيارات تابعة للسفارة السورية في لبنان إلا أنه لم تصدر تقارير أمنية تؤكد أو تنفي هذا الموضوع. والى اليوم لم يعد العمال الأربعة إلى موقع عملهم.

وفي شباط عام ٢٠١٢، تعرض ٣ عمال سوريين في منطقة الشويفات إلى السلب وإطلاق النار ولجأ المسلحون إلى تقييد العمال لشل حركتهم وإطلاق النار في اتجاههم ما أدى إلى إصابة أحدهم برصاصة في رجله.

وفي حادثة مماثلة في شهر آذار من العام نفسه، تعرض عمال سوريون يعملون في ورشة بناء للسلب والاعتداء بالضرب في عاليه ما أدى إلى إصابة أحدهم بجروح بليغة.

وفي شهر نيسان ٢٠١٢، تعرض ٥ عمال سوريين في منطقة كفر ملكي في إقليم التفاح إلى اعتداء بالعصي والآلات الحادة من قبل ١٢ شاباً ما أدى إلى إصابتهم بجروح خطيرة. وكان تقرير إعلامي تحدث عن أن العمال في البلدة تعرضوا إلى مضايقات واستفزازات واعتداءات متكررة.

وفي شهر أيار من العام نفسه، وعلى أثر اختطاف ١١ لبنانياً كانوا في رحلة بحافلة لمزارات دينية في سوريا، تم الاعتداء على عدد من العمال السوريين في لبنان، حيث عثر على العامل السوري ضرار المحمد (مواليد ١٩٨٤) مصاباً بطلق ناري برقبته قرب مطار بيروت. وقد انتشر في وقت لاحق مقطع فيديو على موقع «يوتيوب» يظهر أحد العمال السوريين مكبلاً على كرسي حيث كان يقوم أحد الأشخاص بتعذيبه وإهانته. أما في إقليم الخروب، فسُجل إقدام مسلحين على الاعتداء على عدد غير محدد من العمال السوريين في أماكن سكنهم.

وفي شهر حزيران ٢٠١٢، أفادت «هيومان رايتس ووتش» أنها قابلت مواطِنيْن سورييْن تعرضا للضرب على أيدي مجهولين في بيروت، وأوضحا أنهما لم يتقدما للشرطة بشكاوى لأنهما «لا يثقان بالشرطة اللبنانية».

أما في شهر آب، وبعد أن بُثت تقارير إعلامية تفيد بمقتل بعض اللبنانيين المخطوفين في سوريا في قصف جوي، بدأت موجة جديدة من الاعتداءات على العمال السوريين، وعلى ممتلكات العديد منهم في مناطق مختلفة من بيروت ومحيطها، وتم اختطاف ٣٣ عاملاً سورياً ورجل تركي على أيدي مجموعة من آل المقداد في ١٥ آب على أثر فقد أحد أبنائهم المدعو حسن المقداد في سوريا. وفي برج البراجنة، اعتدت مجموعة من آل زعيتر على عمال سوريين، كما اعتدى مجهولون على عامل سوري ووالدته بالضرب والسلب على اوتوستراد هادي نصر الله في الضاحية الجنوبية. وفي الرويسات تم الاعتداء بالضرب وسلب عامل آخر. وفي حي السلم اعتدى شبان على ٥ عمال وهددوهم إذا ما عادوا إلى المنطقة. وفي حولا الجنوبية، اعتدى عدد من المسلحين على عدد غير محدد من العمال السوريين، ما أسفر عن وقوع جرحى. أما في منطقة النبعة فقد تعرض عدد من العمال السوريين للضرب والاعتداء. وسجل تشكيل تجمعات شبابية في بعض الأحياء لـ«اصطياد» الشبان السوريين والتعرض لهم بالضرب. كما تعرض عدد من المحال التي تعود لسوريين لتحطيم الزجاج في المنطقة نفسها.

في تشرين الأول ٢٠١٢، وتحديداً في السابع منه، قام عناصر من الجيش اللبناني ومخابراته بالاعتداء على ما يقل عن ٧٢ عاملاً وافداً سورياً

ومصرياً وسودانياً في منطقة الأشرفية. عندما قاموا، بناء على شكوى تقدم بها بعض السكان بتهمة «التحرش بالفتيات ومضايقة السكان»، بمداهمة منازلهم ليلة ٧ تشرين الأول أكتوبر. ويورد تقرير لمنظمة «هيومان رايتس ووتش» تفاصيل الاعتداء على العمال، وضربهم وتعذيبهم وإهانتهم لساعات متواصلة وبدون تقديم أي تفسير للمداهمة أو حتى طلب أوراق العمال الثبوتية. ويورد التقرير أن ٢٥ عاملاً ممن التقتهم المنظمة قالوا إنهم تعرضوا جميعاً للضرب المبرح وبدت على أجسادهم جميعاً كدمات واضحة تتفق مع أقوالهم. وقال نديم حوري من المنظمة: «إن الاعتداء على هؤلاء العمال الأجانب بهذه الطريقة العنيفة، أوضح أن عناصر الجيش قد تصرفوا أقرب لعصابة منه لمؤسسة وطنية». ولم يكن هذا أول اعتداء من قبل عناصر الجيش على العمال بحسب ما يورد التقرير. ففي مطلع تشرين الأول قام بعض الجنود بمداهمة موقع بناء يعمل وينام فيه عمال مهاجرون، وسمع السكان المحيطون بالمبنى صرخات صادرة منه. ولم تمر هذه الأحداث دون رد فعل من بعض الجمعيات الحقوقية ومن بينها «المرصد اللبناني لحقوق العمال والموظفين»، التي أصدرت بياناً مشتركاً نددّت فيه بهذا الاعتداء الذي اتخذ شكل المعاقبة الجماعية لكل عامل أجنبي في المنطقة، وهو ما وصفه الموقعون بالـ«عنصرية الموصوفة وكره الأجانب». كما طالبوا السلطة التنفيذية التي تشرف على الأجهزة والقوى الأمنية والجيش اللبناني القيام بدورها وتحمُّل مسؤولياتها في حماية المواطنين والمقيمين عل حد سواء من أي اعتداء، فضلاً عن مطالبتهم السلطة القضائية بالتدخل لوضع حد لهذه الممارسات، وفتح تحقيق وإنزال العقوبات الجزائية بحق المعتدين من القوى العسكرية.

وبعد أسبوع من هذا الحادث، وتحديداً في ١٨ تشرين الأول، اعتدى أكثر من عشرين «مجهولاً» يحملون السكاكين والسواطير والعصي، على عمال سوريين في محلة الرملة البيضاء حيث يعملون في ورشة للبناء. ما أدى إلى إصابة ٦ عمال إصابات بليغة. ولاحقاً أوقفت مفرزة استقصاء بيروت ٦ لبنانيين وفلسطينياً للاشتباه بتورطهم بالاعتداء واقتيدوا للتحقيق معهم. وربما كانت هذه الحالة الوحيدة التي حصلت فيها ملاحقة المعتدين.

وشهد شهر كانون الأول الماضي، سلسلة اعتداءات استهدفت عمالاً سوريين في لبنان تفاوتت بين إطلاق النار عليهم وبين سرقتهم. ففي البقاع، نقل السوري محمد زكريا أحمد (مواليد ١٩٨٦) إلى مستشفى رياق مصاباً بطلق ناري في وجهه من بندقية صيد. وفي عكار وجد العامل السوري ماجد محسن العلي الذي يعمل في أحد معامل صب حجارة الباطون وهو مصاب بطلقين ناريين من سلاح صيد ونقل إلى المستشفى في حال حرجة. وفي زحلة، أقدم ثلاثة أشخاص مجهولين على خطف عامل سوري واعتدوا عليه بالضرب وسلبوه مبلغ مليون ليرة وهاتفه الخليوي، ورموه في سهل مجدلون. كما تعرض عاملان سوريان إلى السرقة في زحلة. واعتدى مجهولون بالضرب على السوري عثمان المحمد على طريق فرعية تصل بين الكرك وتربل وسلبوا منه مبلغاً من المال. وفي القبيع قام مسلحون بسلب عمال سوريين يعملون في معمل لأحجار الباطون. وفي المعاملتين، اقتحم «مجهولون» ورشة «مظلوم اخوان» وسلبوا عاملين سوريين بقوة السلاح. وفي الشفروليه، أقدم «مجهولون» على سلب ٥ عمال سوريين. كذلك في الشويفات حيث سلب مجهولون، وبالطريقة نفسها، ٤ عمال سوريين. وفي آخر حادثة

جرى توثيقها عام ٢٠١٢، أقدم «مجهولون» على سلب ٥ عمال سوريين في منطقة نهر إبراهيم.

يبقى أن نشير في النهاية، إلى أن ما أوردناه آنفاً لا يمكن اعتباره إحصاءً دقيقاً نظراً إلى صعوبة توثيق كل حالات العنف التي مورست ضد هؤلاء العمال، لأسباب عدة منها خوف الضحايا أو ذويهم من أعمال انتقامية في حال إبلاغهم السلطات اللبنانية، فضلاً عن تقاعس القوى الأمنية في حمايتهم. لذا، فإن المرصد اللبناني لحقوق العمال والموظفين يستنكر الممارسات العنصرية ضد العمال السوريين، ويطالب الحكومة اللبنانية بتحمل مسؤولياتها لحماية هذه الفئة من العمالة والقيام بتحقيق جدي لكشف مرتكبي هذه الاعتداءات واتخاذ إجراءات جدية تنهي حالة العنصرية السائدة تجاه العمال الأجانب بشكل عام .

المنشور

المنتدى الاشتراكي

المرصد اللبناني لحقوق العمال السوريين

http://daleel-madani.org/sites/default/files/BookletSyrianWorkers%20(2).pdf

للكاتب

القصة القصيرة

الحزن في كل مكان: (ط١ دار الثقافة دمشق ١٩٦٠)، (ط٢ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠).

العالم يغرق: (ط١ دار ابن زيدون دمشق ١٩٦٣)، (ط٢ دار النهار بيروت ١٩٨٠).

العصافير: (ط١ الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٧٤)، (ط٢ دار الطليعة بيروت ١٩٧٨)، (ط٣ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠)، (ط٤ دار الخيال بيروت ٢٠٠٦).

الرجال الخطرون: (ط١ دار الطليعة بيروت ١٩٨٩).

نهر حنان: (ط١ المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٨٣).

الحصاة (مختارات): (ط١ الدار العربية للكتاب تونس ليبيا ١٩٩٠)

قصصي (الأعمال الكاملة، دار جداول - ٢٠١٢).

الشعر

جراح: كتاب الشعلة: (ط١ كتاب الشعلة دمشق ١٩٦١).

لغة الحب: (ط١ دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٦)، (ط٢ المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٨٣).

أنت الحبيبة وأنا العاشق: (ط١ دار المسيرة بيروت ١٩٧٨)، (ط٢ دار الخيال بيرت ١٩٦٦).

قصص الأطفال

العصافير تبحث عن وطن: (ط١ دار المسيرة بيروت ١٩٧٨).

الحطاب وشجرة الأرز (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت ١٩٧٨.

الأفعى والولد السابق (قصة ملونة). دار المسيرة، بيروت ١٩٨٠.

سلسلة الورود الصغيرة: (ط١ سلسلة دار المسيرة بيروت ١٩٨٠).

الممر: (ط١ اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٨)، (ط٢ المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٨٣).

مصرع الماس: (ط١ الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٠)، (ط٢ الدار المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٥)، (ط٣ آفاق عربية القاهرة ٢٠٠٣).

وردة الأفق: (ط١ ميرا السلسلة الأولى للقصة العربية «هارلوكين» قبرص المحدودة. نيقوسيا ١٩٨٦).

دماء بالألوان: (ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨). (ط٢ دار الفاضل دمشق ٢٠٠٦).

رأس بيروت: (ط١ دار المتنبي باريس ١٩٩٣).

امرأة غامضة: (ط١ دار سعاد الصباح القاهرة ١٩٩٣)، (ط٢ دار الفاضل دمشق ٢٠٠٦).

أسرار النرجس: (ط١ دار الخيال بيروت ١٩٩٩)، (ط٢ منشورات الزمن المغرب).

وميض البرق: (ط١ دار الخيال بيروت ٢٠٠٣).

الحياة عندما تصبح وهماً: (ط١ دار الساقي لندن بيروت ٢٠٠٦).

أهداب: (ط١ دار الساقي لندن بيروت ٢٠٠٨).

من يتذكر تاي (ط١ دار الخيال بيروت ٢٠١٢)، (ط٢ دار الخيال بيروت ٢٠١٢).

القمر بجانبه المظلم - دار الساقي - بيروت ٢٠١٢.

ذكريات

رفاق سبقوا (ذكريات مع أمين نخلة، فؤاد الشايب، معين بسيسو، صلاح عبد الصبور، خليل حاوي)، دار رياض الريس للكتب والنشر لندن، ١٩٨٩).

نصوص في العشق

كل لقاء بك وداع: (ط١ دار الفاضل دمشق ١٩٩٤).

حب شديد اللهجة: (ط١ دار الفاضل دمشق ١٩٩٤).

أحبك وبالعكس أحبك: (ط١ دار الفاضل دمشق ١٩٩٤).

ياسين رفاعية

كاتب وروائي سوري مرموق ولد في دمشق عام ١٩٣٤، وتلقى تعليمه فيها. عمل في الصحافة والتحرير الأدبي، وفي وزارة الثقافة السوريّة، ثم أسس مع الأديب فؤاد الشايب مجلة «المعرفة». وعمل في جريدة «الأحد» اللبنانيّة، وترأس مكتب صحيفة «الرأي العام» الكويتية في بيروت. وبعد الغزو الإسرائيلي للبنان غادر إلى لندن، حيث عمل مسؤولاً ثقافياً في مجلة «الدستور»، ثم انتقل إلى جريدة «الشرق الأوسط» حتى عام ١٩٩٦، عاد بعد ذلك إلى بيروت وتفرغ للكتابة. له أكثر من ٢٥ مؤلفاً في الشعر والرواية والقصة.

سوريّو جسر الكولا

عمالٌ مياومون قصدوا لبنان هرباً من ظروف قاسية، بحثاً عن لقمة عيشهم، لكل منهم حكاية هُنا.. وحكاية هناك: أي مأساة عاشوا، وكم تحمّلوا، وظُلموا.. ما الذي ارتكبوه وما الذي ارتُكب بحقّهم وأي ثمن دفعوا عنهم وعن سواهم؟ وهل كان يحقّ لهم أن يعيشوا قصص حُبّ تفوق مستوياتهم؟ وأن يحسّنوا أنسالهم؟! وأي مصير بانتظارهم ودولتهم الكريمة غير آبهة لهم؟ ما داموا خارجها.

أحداث كثيرة تفوق الوصف.. تجيء في سياق رواية واقعية تمكّن الكاتب الكبير ياسين رفاعية من نقل أحداثها محبوكة جاهزة وهو الأخبرُ بطبيعة العلاقة الحساسة بين السوري واللبناني ونظرة كل منهما إلى الآخر، بحكم انتمائه إلى سورية وإقامته في لبنان ومتابعته الحثيثة لشؤون أبناء بلده حيث يقيم.

رواية رغم شدة واقعيّتها وقساوة أحداثها، تمسك بخيوط الأحداث والأبطال المتعدّدين، بجمالية قلّ نظيرها.

ISBN 978-9953-88-029-7

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٠٩٦١١٣٥٠٧٢٢
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٩٦١١٧٥٢٥٤٧
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر